

# الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي



ماليز روثقن



أكاديمية

## من مواضيع الأطلس:

العصور القديمة المتأخرة ما قبل الإسلام

• رسالة النبي محمد ﷺ وغزواته •

السنة، والشيعة، والخوارج • الخلافة

العباسية • انتشار الإسلام • الشرع

الإسلامي واللغة العربية • الدولة

الفاطمية • طرق التجارة • الممالك

الصليبية • الطُرق الصوفية • الأيوبيون

والمماليك • الغزو المغولي • المغرب

وإسبانيا • الدول الجهادية • السلطنة

العثمانية • إيران • آسيا الوسطى •

التوسع الروسي • انتشار الإسلام في

جنوب شرقي آسيا • السيطرة الاستعمارية

• البلقان • تنامي الحج • مدن متمدنة •

تأثير النفط • الموارد المائية • تجارة

السلاح • العراق • أفغانستان • إسرائيل -

فلسطين • المسلمون في أوروبا الغربية •

المسلمون في أميركا الشمالية • الفنون

الإسلامية • توارث المسلمين في العالم •

السينما الإسلامية • المواقع الأثرية

الإسلامية





الأطلس التاريخي  
للعالم الإسلامي



# الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي



تأليف  
ماليز روثفن

بمشاركة  
عظيم نانجي

نقله إلى العربية واعتنى بخرائطه  
سامي كعكي

أكاديميا

# الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي

© أكاديمية إنترناشيونال، 2007

ISBN: 9953-3-377-9

جميع الحقوق محفوظة

Historical Atlas of The Islamic World

© Oxford University Press 2004

was originally published in English in 2004.

This translation is published by arrangement with Oxford University Press.

تنشر الترجمة العربية بترخيص من دار النشر الانكليزية أكسفورد

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، بأي طريقة، سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماتاً.

أكاديمية إنترناشيونال Academia International

شارع فردان، بناية بنك بيبلس Verduin St., Byblos Bank Bldg.

ص.ب P.O.Box 113-6669

بيروت، لبنان Beirut 1103 2140 Lebanon

هاتف 800832 - 862905 - 800811 (961 1) Tel.

فاكس 805478 (961 1) Fax

بريد إلكتروني E-mail academia@dm.net.lb

[www.academiainternational.com](http://www.academiainternational.com)

أكاديمية هي العلامة التجارية لأكاديمية إنترناشيونال

**ACADEMIA** is the Trade Mark of Academia International



# المكتويات

108	الأمبراطوريات البريطانية والفرنسية والهولندية والروسية	6	مقدمة
110	الحركات الإصلاحية في القرن التاسع عشر	14	العقائد والعبادات الأساسية في الإسلام
112	تحديث تركيا	16	الجغرافيا الطبيعية للعالم الإسلامي
116	العالم الإسلامي تحت السيطرة الاستعمارية حوالي العام 1920	20	اللغات والمجموعات العرقية الإسلامية
118	البلقان وقبرص وكريت (1500-2000)	24	العصور القديمة المتأخرة ما قبل الإسلام
122	الأقليات المسلمة في الصين	26	رسالة محمد وغزواته الحربية
124	المشرق (1500-2000)	28	توسع الإسلام حتى عام 750
128	مشاهير الرحالة المسلمين	30	انتشار الإسلام (751-1700)
132	بريطانيا في مصر والسودان خلال القرن التاسع عشر	34	السنة والشيعا والخوارج (660-نحو 1000)
136	فرنسا في شمال إفريقيا وغربها	36	الخلافة العباسية في ظل هارون الرشيد
138	نمو الحج وتطور المشاعر المقدسة	38	انتشار الإسلام والشرع الإسلامي واللغة العربية
142	مدن متعددة	40	الدول الوريثة إلى العام 1100
146	وقع النفط في القرن العشرين	44	العصر السلجوقي
148	الموارد المائية	46	التجنيد العسكري (900-1800)
150	تجارة السلاح	50	الدولة الفاطمية (909-1171)
152	إضاءة سريعة: جنوب شرقي آسيا (1950-2000)	52	طرق للتجارة (نحو 700-1500)
154	إضاءة سريعة: العراق (1917-2003)	56	الممالك الصليبية
156	إضاءة سريعة: أفغانستان (1840-2002)	58	الطرق الصوفية (1100-1900)
158	الجزيرة العربية والخليج (1839-1950)	62	الأوروبيون والمماليك
160	صعود الدولة السعودية	64	الغزو المغولي
162	إضاءة سريعة: إسرائيل - فلسطين	66	المغرب وإسبانيا (650-1485)
164	إضاءة سريعة: الخليج (1950-2003)	70	إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى - شرقاً
166	المسلمون في أوروبا الغربية	72	إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى - غرباً
168	المسلمون في أميركا الشمالية	74	الدول الجهادية
170	المساجد وأماكن العبادة في أميركا الشمالية	76	الحبيب الهندي إلى العام 1499
172	الفنون الإسلامية	80	الحبيب الهندي (1500-1900)
176	أبرز المواقع المعمارية الإسلامية	84	صعود العثمانيين حتى 1650
180	توزع المسلمين في العالم (عام 2000)	88	الأمبراطورية العثمانية (1650-1920)
184	السينما الإسلامية	92	إيران (1500-2000)
186	استخدام الإنترنت	94	آسيا الوسطى إلى العام 1700
188	جدول زمني بأهم الأحداث الإسلامية	96	الهند (711-1971)
		102	التوسع الروسي في ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى
		106	انتشار الإسلام في جنوبي شرقي آسيا (نحو 1500-1800)

## مقدمة

من مُدُن العالم ومنتجعاته السياحية، نذكر منها: نيروبي، دار السلام، مومباسا، الرياض، الدار البيضاء، بالي، تونس، جاكارتا، مومباي (بومباي) ومزيريد. اللانحة تطول، وحجم الإجابات أخذ بالارتفاع، فيما يكتسِف الغضب والحيرة ردود فعل الشعوب وحكوماتها. وأحسب أن التداعيات البعيدة المدى لردود الفعل هذه على السلم والأمن الدوليين كافية لإقناع كل فرد منا (وليس فقط محرري وسائل الإعلام الذين يُقولون وعي الجمهور بما يُلائم أولويات المعلنين لديهم)، أن المظاهر المتطرفة للإسلام هي من يضع أجندة النقاش وجدول الأعمال في القرن الحادي والعشرين.

إن المسلمين الذين يُقيمون في الغرب، أو في تلك المناطق الأخذة بالانتعاش من العالم الإسلامي التي تغشاها المؤثرات الإلكترونية للحرب، ليشعرون بالامتناع من التعرُّض السلبي لهم، هذا التعرُّض المصاحب عادة للقلق المتزايد من الغرباء الطائنين. إن

قلماً بمر يوم، منذ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001، إلّا ويُذكر فيه الإسلام، دين ما يُقارب خُمس البشرية، في وسائل الإعلام. في ذلك اليوم، خطف إرهابيون أربع طائرات ركاب أميركية وصدّموا بها برحليّ مركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى المتنازع بالقرب من واشنطن، مما أدّى إلى مقتل زهاء ثلاثة آلاف شخص، ودفع الولايات المتحدة وحلفاءها إلى إعلان ما يُسمى «الحرب على الإرهاب»، التي أسفرت حتى الآن عن القضاء على حكومتين إسلاميتين، واحدة في أفغانستان والأخرى في العراق. وهكذا برز الإسلام فجأة، في كل أنحاء العالم، موضوعاً للتحليل والنقاش. واتسمت السجلات على أعمدة الصحف كما في استديوهات الأخبار، في المقامي كما في البيوت، بالحدة والسفوية. والأسئلة التي كانت تدور فيما سبق داخل أروقة المؤتمرات الأكاديمية وندوات التخرُّج الجامعية، دخلت الآن في صميم اليوم السائدة للوعي العام: ما هي «شريعة الجهاد»؟ وكيف حدث أن صار «دين مسالم»، ينتسب إليه ملايين المؤمنين العاديين والمحترمين، أيديولوجيا للحد والكراهية لدى أقلية ساخطة؟ ولماذا أضى الإسلام بعد سقوط الشيوعية مشحوناً هكذا بالحدة الانفصالية؟ أو، إذا ما شئنا استخدام عنوان مقالة لاقت رواجاً واسعاً لعميد المستشرقين، برنارد لويس: «ما وجه الخلل» الحاصل في التاريخ الإسلامي، في علاقته بنفسه كما في علاقته بالعالم الحديث؟

أسئلة من هذا الضرب لم تعد بعد الآن أكاديمية بحثية، بل أضحت على درجة كبرى من الأهمية، وموضع أخذ وردّ بالنسبة لمعظم الأمم والشعوب على سطح كوكبنا هذا. فالإسلام، أو قلّ بعض التفرّيعات منه – سواء أكانت مشوّهة، أم منحرّفة، أم فاسدة أم رهيبة أُناس متطرفين – بات اليوم قوةً يُعتدّ بها، أو على الأقل سبباً تُلمص بظاهرة خبيلى بإمكانيات واحتمالات بالغة الخطورة.

قبل 11 أيلول/سبتمبر وبعده، وقعت العديد من الفظائع والأعمال الوحشية التي تُسببت إلى متشددين إسلاميين، أو التي اعترفوا هم أنفسهم بمسؤوليتهم عنها، فأوقعت الأذى الفادح والدمار الشديد بالعديد



المرُضي من الإسلام)، أو المرادف لمعاداة السامية إنما مطبقة هذه المرة على المسلمين بدلاً من اليهود. بعض الدارسين ممن تدرجوا في الأكاديميات الغربية، مُتهمون بأنهم يرون الإسلام من خلال العدسات المشوهة للاستشراق، ذلك العلم الذي تطرق إليه الفساد نظراً لارتباطه بالإمبريالية، حين كانت المعرفة المتخصصة مسخرة لخدمة القوة والنفوذ الاستعماريين.

هذا مجال محفوف بالمخاطر ومُتنازع عليه، ومن يُغامر بدخوله من الكتاب إنما يُعرض نفسه للخطر. فأي تعميم بشأن الإسلام، مثله مثل أي دين آخر، يكون عرضة للنقض والنقض، لأن مقابل كل وصف معياري للإيمان أو الاعتقاد أو السلوك الإسلامي، توجد تنوعات مهمة وفروق ذات شأن. وتزداد معضلة التعريف صعوبة لعدم وجود مؤسسة «كنسية» جامعة أو «باباوية» إسلامية تتمتع بسلطة أمرية تفصل في ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي (حتى الكنائس البروتستانتية تميز مواقفها الدينية بالتفاير وأحياناً بالتضاد مع الكاثوليكية الرومانية).

الإسلام دينٌ سلام: فلفظه «إسلام» التي تعني حرفياً التسليم (لأمر الله)، تتصل من الوجهة الاشتقاقية بعبارة «سلام» التي تغني السلم والصُلح، والتحية المتعارف عليها التي يستخدمها معظم المسلمين لدى انضمامهم إلى تجمع ما، أو حتى لدى التقائهم بغريباء عنهم، هي: «السلام عليكم». يمكن القول إن الغربيين ممن يتهمون الإسلام بأنه دين عنصري يجهلون حقيقته. والصاق النعت «مسلم» أو «إسلامي» بأعمال الإرهاب ينطوي على ظلم واقتتات شديدين. حين أقدم مهووس مسيحي ذو ميول يمينية كتيموثي ماكفاي على تفجير مبنى فيدرالي أميركي في مدينة أوكلاهوما، وكان أسوأ عمل فظيع يرتكب على التراب الأميركي قبل 11 أيلول/سبتمبر، لم يصادر أحد إلى وصفه بالإرهابي، «المسيحي». إن العديد من المؤمنين المسلمين ليهنظرون إلى «الغربيين» ممن تخلوا عن دينهم أو أعماهم التحامل الديني، على أنهم أناس لا «يفهمون» الإسلام حق الفهم. وثمة وسائل إعلامية معادية لا تتورع عن تشويه الآراء الغربية، فتصيغ المشاعر والمواقف بصيغة «الإسلاموفوبيا» (الهلح

العالم كما رآه الإبريسي  
(549 هـ / 1154 م)



ثانيةً بصفته «المهدي المنتظر» في يوم ما من مقبَل الأيام

أهل السُّنة. من جهة أخرى، يرون أن النبي قد أعطى إشارات كافيّة على أنه يجبُ لِفلاقته أحد أصحابه، أبا بكر الصديق (حوالي 632-634)، الذي اتفق أبرز قادة الجماعة على القول به خليفةً بعد وفاة الرسول. وهو بدوره اختار عمر بن الخطاب (ح 634-644)، الذي وقع اختياره، وهو على فراش الموت، وبعد التشاور مع زعماء المسلمين، على عثمان بن عفّان (ح 644-656). وقد خلف عثمان عليّ (ح 656-681)، ومجدداً بموافقة وقبول قادة المسلمين في ذلك الحين. وفي نظر الغالبية السُّنيّة، يُمثّل هؤلاء الخلفاء الأربعة «الخلافة الراشدة».

وعلى مرّ الأيّام، صارت لكل من الشيعة والسُّنة هوية اجتماعية مميزة لهم. وقد انقسمت هاتان الطائفتان وتفرّعتا فروعاً شتى، وانقسمتا في حركاتٍ ونزعاتٍ مختلفة. ولئن اختلفت هذه وسواها من المجموعات فيما بينها، وكثيراً ما تصارعت حول تفاريقها، إلّا أن الانتماء العام للعلاقات التي سادت المجتمعات الضخمة ما قبل العصر الحديث أفسح في المجال لحدوث التعاضل والتبادل والحوار الفكري بينها.

إلاّ أنه برزت لدى الطوائف المتشدّدة والجماعات المتطرّفة، في الآونة الأخيرة، نزعةٌ إلى لعن الخصوم في الدين وتكفيرهم، أو إلى اتهام من يحكمهم بالمرور من الإسلام. غير أن هذا المنظور الضيق الأفق يُقابل به وحي متنامٍ بين السواد الأعظم من المسلمين بتنوّع وتعدّدية التّأويلات داخل الأمة.

وجو اللاتسامح الهادي للعبان في بعض أنحاء العالم الإسلامي في الوقت الحاضر، ذو منشأٍ معقدٍ وقد يكون غرضياً، شأن التطرّف الطهراني الذي استفحل في أوروبا القرن السابع عشر من جراء المتاعيل المشوشة للتحوّلات الاقتصادية والاجتماعية. وكما ستوضّح الفرائط والنصوص فيما يلي من صفحات، فقد جاءت الحداثة إلى العالم الإسلامي على أجنحة القوى الاستعمارية، عوضاً عن أن تكون حصيلة تحولات متولّدة داخلياً. فـ «خير أمة» أخرجها الله للناس كي «تأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر» فقدت الهيمنة الأدبية والسياسية التي كانت لها ذات يوم في الجزء

والهوية الإسلامية، شأنها شأن الهوية اليهودية، تشمل السلف كما تشمل المعتقد. فمن يسمّون مسلمين إنّما يمارسون دينهم بطرقٍ مختلفة. فوسع المرء أن يكون مسلماً من الوجهة الثقافية، تماماً مثلما يستطيع المرء أن يكون يهودياً بالمعنى الثقافي، من غير أن يتقدّم بمجموعة معيّنة من الفرائض أو المعتقدات الدينية. وإنّنا لا نجانِب الصواب إذا ما وصفنا العديد من الأميركيين والأوروبيين غير المتديسينين بـ«المسيحيين الثقافيين»، نظراً للأهمية التكوينية التي كانت للمسيحية في تطوّر الثقافة الغربية. وحقيقة أن هذه التسمية نادراً ما تُستخدم – هذا إذا ما استُخدمت أصلاً – لتكشف عن مدى الهيمّة الثقافية الغربية وطموحها إلى تبوء سُدّة العالميّة.

إنّ الأساس المسيحي للثقافة الغربية هو من البداهة مكان بحث لا يَجمَعُ أحدُ نفسه عناء إبرازهِ للمعيان. وفي الوقت عينه، لطالما انتُخِلت لفظة «مسيحي» من قبل الأصوليين البروتستانت الذين يسعون جاهدين إلى تمييز أنفسهم عن الإنسويين العُلمانيين أو المُؤمنين المتدينين على السواء، ممّن لا يشارطونهم نظرتهم العامة إلى الأمور. ثمة مشاكل ماثلة بصدد التعريف تسري على العالم الإسلامي كذلك. فكما أن هناك تباينات وفوارق لاهوتية ما بين الكنائس المسيحية المختلفة حول حتى المسائل الإيمانية والطقسية، كذلك تقوم داخل حظيرة الإسلام جماعات وطوائف ومِلّ تختلف فيما بينها لجهة الطقوس المتبعة أو تقاليد كلٍّ منها في التّأويل والعمارة.

ومن بين أكبر النُحل في الإسلام، هناك تاريخياً طائفتان تُعدّان أهمّها على الإطلاق، هما: السُّنة والشيعة

يعتقد الشيعة أن النبي محمد (نحو 570-632)، وقبل وفاته بوقت وجيز، اختار علي بن أبي طالب، ابن عمه وزوج ابنته فاطمة، خليفةً له. كما أنهم يؤمنون بأنّ هذه الخلافة تواصلت عبر سلسلة من الأئمة (أو القادة الروحيين)، المتحدرين من صُلب علي وفاطمة، وقد اختلر كلّاً منهم الإمام الذي سبقه. والكتلة الشيعية الأكبر حجماً، وهم الشيعة «الأثنا عشرين» أو كما يسمّون «الشيعة الإماميين»، يؤمنون بأنّ آخر هؤلاء الأئمة، الذي «انحجب» في العام 873، سوف يظهر

الأكثر تمدناً من العالم خارج الصين. حين كان الإسلام في طور الصعود والترقي، كذلك كان مناخ التسامح الناشئ عنه. فقد كان العلماء والفقهاء المسلمون يتساجلون ويتناظرون فيما بينهم، لكنهم كانوا يحاذرون تكفير كل من ينطق بالشهادة - بما هي الجهر العلني بالإيمان - أو من يُقيمون الصلاة مبتهمين وجوههم شطر مكة. ومثلما لاحظ الباحث الأميركي كارل إرنست، فإن «التعددية الدينية، حقيقة اجتماعية في أي مجتمع في عالمنا المعاصر. فإذا ما ادّعت جماعة لنفسها السلطة على سائر الجماعات الأخرى، مُطالبة إياها بالولاء والطاعة، فسوف يُعتبر ذلك تحالفاً للتسلط بواسطة اللغة الدينية المنمّقة» [كارل إرنست، «أبحاث مصدر: إعادة النظر في الإسلام في العالم المعاصر»، لندن، ص 602].

في المبدأ، وإن لم يكن دائماً في الممارسة، المسلم هو من يتّبع الإسلام، للفظلة العربية التي تعني الانتساب، أو بمعنى أدق، «التسليم» لإرادة الله كما أوحى بها للأنبياء محمد. وهذه الموصفات المتنزلة شفاهاً على امتداد فترة نبوة محمد الناشطة، من حوالي العام 610 وحتى وفاته، موجودة كلها في القرآن، الكتاب الذي يُشكل أسس الدين الإسلامي والنُظم الثقافية المتنوعة النابعة منه. وقد تصدّى لفيف من الباحثين من ذوي النزعة التصحيحية في الجامعات الغربية للرواية الإسلامية التقليدية عن أصل القرآن، زاعمين أن النص قد اقتُطع من كتلة أكبر من المواد الشفهية بعد الفتح العربي للهلال الفصيف. غير أن الغالبية العظمى من الدارسين، مسلمين وغير مسلمين، تنظر إلى القرآن على أنه المُؤونة الكتابية للتنازل المتراكم على امتداد مسار الرسالة المصدية. وخلافاً للكتاب المقدس، ليس هناك ما يدل على وجود تصنيف متعدد للقرآن. وعلى النقيض من «العهد الجديد» (الإنجيل) بنوع خاص، الذي جُمعت فيه أقوال السيد المسيح في أربع روايات متمايزة عن حياته وما يُفترض معها أنها قد وضعت من قبل مؤلفين مختلفين، فإن القرآن يحتوي على العديد من الإشارات الضمنية إلى حوادث وقعت في حياة الرسول، إنفاً من غير أن يتناولها بالتفصيل. بل إن قصة المسيرة العملية لمحمد كنبى وكرجل دولة (إذا جاز لنا أن نستخدم هنا اصطلاحاً حديثاً لزعيم حركة وحّدت

قبائل الجزيرة العربية)، قد بُنيت من مجموعة أخرى مختلفة من المادة الشفهية، تلك التي تُعرف بـ «الحديث». أي المأثورات والمنقولات عن مسلكية النبي، وهي لم تدوّن في تصانيف إلا بعد وفاة الرسول. يتألف القرآن من 114 فصلاً تُعرف بالسور، وكل سورة تتألف من عدد متفاوت من الفقرات التي تُسمى آيات (وتعني بالعربية: دلائل أو معجزات). ويستثنى السورة الأولى، سورة الفاتحة (أو الاستهلال)، المكوّنة من سبع آيات هي بمثابة ابتهاج يُطلى في مختلف الشعائر، بما فيها الصلوات اليومية، فإن سور القرآن الأخرى مرتّبة بحسب تناقصها في الطول، بحيث تأتي أقصرها في النهاية وأطولها في البداية. ومعظم المصاحف القياسية تُصنّف السور ما بين سور نزلت في مكة (وهي تميل إلى القصير، ومن هنا موقعها القريب من نهاية الكتاب)، وسور تمود إلى العقبة التي أقام فيها محمد في المدينة التي هاجر إليها مع أتباعه الأوائل هرباً من الاضطهاد في مكة عام 622، العام الأول من التقويم الإسلامي (الهجري). السور المكيّة، واسمها المبكرة منها، تحمل في طياتها رسائل حيّة عن المسؤولية الشخصية، وأحاديث عن الشواب والعقاب (الجنة وجهنم)، فيما هي تنمّغي من جهة أخرى ببهاء العالم الطبيعي وجماله ككليل على قدرة الخالق العظيمة وجلال شأنه. أما السور المدنية، فهي وإن كررت العديد من الموضوعات ذاتها، إلا أنها تسوق تحاليم إيجابية فيما يخص القضايا الاجتماعية والقانونية (بما فيها الأحكام الخاصة بالعلاقات الجنسية والميراث، والعقوبات الموصوفة لبعض أصناف الجرائم). وهذه السور، معطوفة على مواد مستقاة من مأثور الحديث، كانت المصدر الرئيسي لنشوء وتطور النظام القانوني المعروف بـ «الشريعة».

وقد أضاف أعلام الفكر الإسلامي على اختلاف مشاربهم مصادر أخرى من عندياتهم، وذلك أوجداً المنهجية اللازمة لتنظيم أحكام الشريعة وتطبيقها. بالنسبة للمؤمنين المسلمين، يُعزل القرآن كلام الله المباشر، وقد أملاه كما هو من دون أي تنوير أو تنقيح بشري. ويصف بعض العلماء المسلمين المحدثين النبي محمد بالناقل الأمين لكلام الله. ومن المعتقد أن النبي نفسه كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وإن كان بعض الدارسين يُشكّكون في ذلك على خلفية أنه كان

وفتحوا شطراً من الأمبراطورية البيزنطية (بلاد الروم)، وكامل بلاد فارس أمام الاستيطان الإسلامي. في البدء، بقي الإسلام ديناً «عربياً» في المقام الأول. إذ عمد أمراء الحرب المسلمون إلى إيواء كتاباتهم المقاتلة القبلية في معسكرات كبيرة خارج المدن المستولى عليها، تاركين رعاياهم الجدد (من مسيحيين ويهود وزرادشتيين) يديرون أمورهم بأنفسهم ما داموا يدفعون الجزية (وهي نوع من الضريبة على الرأس) عوضاً عن تأدية الخدمة العسكرية. أما عملية الأسلمة، فقد حدثت بالتدريج من خلال الزواج، حيث إن أعيان الأسر من سكان البلاد المفتوحة لم تأل جهداً في سبيل الالتحاق بالشعب الإسلامية. كما اتسع نطاق هذه

تاجراً نشيطاً. وتاجراً، بالنسبة لغالبية المسلمين، القرآن كما دُون في المصحف، واستقرّ على ما هو عليه إبان حكم الخليفة الثالث، عثمان بن عفان (644-656)، «غير مخلوق»، وأزلي من أزلية الله نفسه. من هنا، فإن القرآن بنظر المؤمنين المسلمين يحتلّ المكانة التي يشغلها المسيح في نظر المسيحيين. قاله يتجلى ليس من خلال بشر ما، بل عبر اللغة الواردة في نص مقدّس. إن العقائد الدينية الأخرى، ومنها البوذية، والمسيحية، والهندوسية، واليهودية، والسikhية، والزرادشتية، تضيف على نصوصها التأسيسية هالة مقدسة. وقد أخذ الحكّام المسلمون بهذا المبدأ المشترك بإدانتهم التسامح الديني حيال «أهل الكتاب».



صفحتان متقابلتان من المصحف مزخرفتان بماء الذهب ومزخرفتان بالفضة البهاري أنجزت هذه النسخة عام 1399، العام التالي لاستيلاء تيمورلنك على دلهي، الآية من سورة التوبة، وهي تتحدث عن حلفاء النبي من البدو الذين لا يَغفر لهم تقاسمهم عن الالتحاق بلجدي غزواته

العملية لَمَّا وجد الرعايا المعوزون ومقطوعو الجذور سنداً لهم في دين حكامهم الجدد، أو لمّا عثر المتحزبون من سحر حكامهم القدامى على ملائح روحي يُلانهم في دين يحترم تقاليدهم، في الوقت الذي يُقدّمون فيه تعاليمهم الدينية في إطار توليف جديد وخلّاق. كما كان دور المبشرين المسلمين الأوائل حاسماً هو الآخر في هذه العملية.

في طوره المبكر، شهد الإسلام توسّعاً خائفاً خارج حدود جزيرة العرب عن طريق الفتح العربي لبلاد الهلال الخصيب وما يليها من ديار في غضون قرن أو نحو ذلك بعد وفاة الرسول في العام 632. وقد تصافر الإيمان بالإسلام ورسالة النبي السماوية - فضلاً عن الرغبة في المغنم - لتصهر القبائل العربية في آلة حربية مهولة. فهزموا الجيشين البيزنطي والساساني،

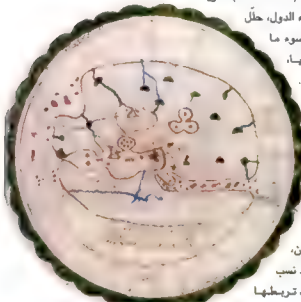
وكما يتضح من الخرائط التي يضمها هذا الأطلس، كان الحزام الأوسط من الأراضي الإسلامية الممتدة من المحيط الأطلسي إلى وادي السند ويشكل دائم تقريباً تحت رحمة الغزاة من البدو الرحّل وأشباه الرحّل. وفي الأزمنة ما قبل العصر الحديث، أي قبل أن تعمل الأسلحة النارية والسلاح الجوي وأنظمة الاتصال الحديثة على إخضاع مناطق الأطراف لسيطرة الحكومات المركزية (برعاية استعمارية طبعاً)، كانت المدن عرضة للهجمات المتكررة من جانب النهابين البدو. وعبقريّة النظام الإسلامي تكمن في أنه زوّد القبائل المتأسلمة بمنظومات قانونية ومسكّية وتعليمية من ضمن مبادئ الإيمان، وقد تضافت معها على مرّ الزمن.

في «مقدمته» لشاريع العالم، وضع فيلسوف التاريخ العربي ابن خلدون (1332-1406) نظرية حول التجوّد الدوري ونشوء الدول، حلّ فيها هذه السهورة على ضوء ما جرى في شمال إفريقيا، المنطقة التي ينتمي إليها. وطبقاً لنظريته هذه، فإن المناطق الجافة أو القاحلة، التي يندر سقوط المطر فيها، تبقى الحالة الرعوية هي النمط الرئيسي للإنتاج الزراعي فيها. والرعاة، على عكس الفلاحين، ينتظمون ضمن خطوط نسب قبلية (أو في مجموعات تحبّسها علاقات قرابة أبوية). إنهم أحرار نسبياً من سطوة الحكومات، وكونهم يتميّزون بدرجة حراكية أعلى من أهل الأمصار (الحضر)، فلا يمكن فرض الضرائب عليهم بصفة منتظمة كما يتعدّر إخضاعهم لسيطرة السادة الإقطاعيين الذين يستولون على جزء من محاصيلهم لقاء شملهم بالحماية. أجل، في المناطق القاحلة، هم رجال القبائل من يكونون مدججين بالسلاح في العادة، وهم من يستطيعون في

غير أن اللاهوت الإسلامي (علم العقائد أو علم الكلام)، كان له بعد ثقافي اتسم بالدينامية. ولعلّ هذا بالذات ما يفسّر لنا كيف تطوّر دين «العرب» إلى ديانة عالمية فقد حمل الإسلام معه، بوصفه «دين الكتاب» النموذجي، الذي يمثّل كلمة الله مجسّدة في نصّ مكتوب، هبة واحترام التعظيم والمعرفة إلى الثقافات الجاهلة. وعلى شاكّة تعريف لاروشفوكو للنفاق، نقول إن عبادة الكتاب بل تكّن ولاء الرذيلة للفضيلة، بقدر ما كانت إجلال الجهل للعلم. وأياً كان إدراكنا للوحي - تنزيل من عند الله، أم حالة ذهنية متبدّلة أشبه ما تكون بعمليات دماغية لنابغة بشري - فإن «معجزة» محمد جاءت على صورة لغة. ومرة بعد أخرى، راحت أقوام البدو الرحّل القاطنة عند أطراف الأبراطورية الإسلامية بالاستهلاء على مراكز القوى، عاملةً بذلك على تعدّين نفسها، ولتغدو من ثم حاملة بدورها لواء النفوذ الثقافي الإسلامي. وإنّ تفسّع الدولة العباسية العظمى، من بعد الحلم بخلافة عالمية تضم مجمل أرجاء العالم الإسلامي (لا بل وسائر البشرية في الواقع) مشروعاً قابلاً للحياة. فخطوط المواصفات كانت أطول من أن يتمكّن المركز من لجم طموحات الأمراء المحليين. لكن هبة المعرفة، كما كان يرمز إليها القرآن وأياته المنقوشة على جدران المساجد والمباني العامّة في لوحات بدئية، ناهيك عن المصاحف المنسوخة بمنتهى الإتقان، كانت شديدة فعلاً. حتى الغزاة المغول، أصحاب السُّعّة السيئة لما كانوا يتصفون به من قسوة وهجمة، لم يجدوا مناصاً من التسليم بقوة الإسلام الروحية والجمالية في الأجزاء الغربية من البلاد الخاضعة لسلطانهم.

ليست الغاية من الخرائط التي يحتويها هذا الكتاب تقديم رواية جامعة وشاملة عن النماذج المتحوّلة للدولة والسلطة المدنية التي سادت إبان الاندفاع الجارف للتاريخ الإسلامي من زمن الرسول إلى يومنا الحاضر. بل غاية ما تتطلع إليه أن تنير جوانب مهمّة من ذلك التاريخ عبر فتح نوافذ صغيرة على نواح بالغة الشأن من التاريخ البعيد والقريب، وبما يساعد على تجنبان إرث المشاكل، وكذلك السوانح، الذي ورثه الحاضر عن الماضي. فالجغرافيا عنصر جوهري لفهم التاريخ الإسلامي وصلته المنطوية على إشكالية بالحدائق

خريطة العالم رسمتها أسرة الشرفي الصفاسي في العام 1571/1572 م في مدينة صفاسي بطونس



جزئياً، إلى مغايل الشريعة الإسلامية؛ إذ بخلاف الأعراف القانونية الرومانية، لا تتضمن الشريعة أية أحكام للاعتراف بالجمعية النقابية بوصفها «شخصية» اعتبارية

في صياغتها الكلاسيكية، تنطبق نظرية ابن خلدون أكثر ما تنطبق على البيئة في شمال إفريقيا؛ البيئة التي يعرفها ويفهمها أفضل من غيرها. بيد أنها تصلح مع ذلك نموذجاً تفسيرياً للتاريخ الأوسع لغرب آسيا وشمال إفريقيا منذ ظهور الإسلام إلى الزمن الحاضر. تقوم النظرية على أساس من التفاعل الجدلي بين الدين والعصبية. وفهمه ابن خلدون هذا للعصبية، الذي يشكل العمود الفقري لنظرته العامة إلى التاريخ الاجتماعي والسياسي للإسلام، يُمكن تطويعه كي يتماشى والنظريات الإثنية الحديثة، سواء أخذ المرء بالنموذج «البدائي» أو «الثقافي»، وبالوسع إيجاد المبدأ الأساس لنظرية ابن خلدون في أطروحتين له أبرزهما الفيلسوف والعالم الأنثروبولوجي إرنست غيلنر بنوع خاص، وهما: 1- «لا تقوم الرئاسة إلا بالغلبة، ولا تقوم الغلبة إلا بالعصبية»؛ 2- «وحدها القبائل التي تحكمها العصبية قادرة على تحمل شظف الحياة الصحراوية».

والقوة الغالبة للقبائل قياساً بقوة المدن هي ما وفّر الشروط التي مكّنت الحكم العسكري السلالي أو بديله، الحكم الملكي المدعوم من المؤسسة الملوكية أو العصبية المعاصرة، من أن يقدّم النمط السائد في التاريخ الإسلامي قبل التدخل الاستعماري الأوروبي. وغياب الاعتراف القانوني بالجماعة النقابية في الشرع الإسلامي حال دون قيام التماسك الاصطناعي المعهود في النقابات؛ وهذا الأخير شرط مسبق لتطور الرأسمالية المدنية وتجاوز الحُمة «الطبيعية» للقرابة. وقد دأبت التقاليد الثقافية الرفيعة للإسلام، في عهود ما قبل الاستعمار الحديث، تتفاعل مع أشكال التضامن البدائي هذه والعصبية العرقية، إلا أنها لم تستطع الطول محلها.

رسمياً، الأخلاق الإسلامية تمنع قيام أي شكل من أشكال التضامن المحلي خصوصاً إذا كان يُمايز ما بين المؤمنين. نظرياً، ثمة جماعة إسلامية واحدة هي

بعض الأحيان أخذ المدينة رهينة لهم طلباً لغنية أو حتى فتحها عنوة. إن نظرات ابن خلدون الناقية تُخبرنا لماذا يُجاني المرء الحقيقة عندما يتحدث عن «إقطاع» إسلامي إلا في السياق المحدود والمحدّد جداً للأنظمة السائدة في أحواض الأنهار الكبرى كمصر والعراق، حيث تعمل كتلة فلاحية مستقرّة في زراعة الأرض. أما في المناطق القاحلة، فينتقل الرعاة بمواشيهم وقطعانهم موسمياً من مكان إلى آخر، وفقاً لرتببات معقّدة يتخذونها مع سواهم من المتنقلين بالأرض. وحقّ الانتفاع ليس بملكية. فالممتلكات والأراضي هنا لا تصدّها حدود مشتركة مثلما أصبحت عليه الحال في المناطق الأوروبية التي تتساقط عليها الأمطار بمعدلات عالية. لقد ضرب الإقطاع، وكذلك فرعه النابت: الرأسمالية، جذوراً عميقة له في أوروبا، وخلق في نهاية المطاف الدولة البرجوازية التي سوف تبسط سيطرتها على الأرياف، وتصوغ الزراعة بصيغة تجارية، وتخضع المجتمع الريفي للقيم الحضرية وبقية المدينة. على العكس من ذلك، بقيت شعوب الأطراف في معظم أنحاء غرب آسيا وشمال إفريقيا قادرة على التمسّك من ريف الدولة إلى حين مقدم السلاح الجوي. وحتى في أيامنا الحاضرة، لم يتحقّق ذلك كلياً في بعض الأماكن من أفغانستان، حيث البُنى القبلية قاومت ولا تزال سلطة الحكومة المركزية.

وثمة لفظ مُجرّب يستخدمه أهل الحضرة المغاربية للدلالة على مناطق البلاد القبلية: إنهم يسمونها «بلاد السببة» - أي أرض الجورفة والسفاهة - في مقابل «بلاد الفزن»، أي المركز المتمدّن، الذي يقع وبصفة دورية فريسة لها. تبعاً لنظرية ابن خلدون، فإن تفوق القبائل رهّن بـ«العصبية»، تلك العبارة التي تعيل، في العادة، على قوة الشعور بوحدة الجماعة أو التضامن الاجتماعي. وهذه العصبية مستمدّة، في النهاية، من البيئة القاسية للأرض الصحراوية، أو الأرض الجباب، حيث لا وجود إلا لعدد طفيف من تقسيم العمل، وحيث البشر يعتدّون في بقائهم على غريّ الشب وشائج القرى. على النقيض من ذلك، تفتقر الحياة المدنية لأية عصبية أو روح تشاركية. وغياب التضامن البرجوازي، الذي تسمو بموجبه مصلحة الجماعة النقابية فوق رابطة الدم والقرى، يُمكن عزوه، ولو



تختلف عنها في آخر الأمر لتجد نفسها تحت الهيمنة السياسية والثقافية لشعوب كانت تعدّها - وما زال بعض أفرادها يعدونها - في مصاف الكفار.

كان النظام الإسلامي في الأزمنة ما قبل الحقبة الاستعمارية، والمتجذّر إلى اليوم في ذاكرة ووجدان المسلمين المعاصرين، على أكمل تهايب مع البهنة السياسية لعصره. فحمى استراتيجيّة «الجهاد في سبيل الله»، كانت تعتمد لأغراض ذرائعية، نفعية أو عسكرية، فيما كان المستفيد من ذلك هو الدين الإسلامي والخشافة الإسلامية. وهكذا صار الغرّة البدو، والممالك المستقدمون من مناطق الأطراف لصدّهم، في مقدمة رجال الإسلام، اللذين عن حياض الإيمان والجماعة، وأبرز حُصاة ثقافته ونظمه للتعليمية.

والذاكرة الاجتماعية لهذا النظام ما برحت تُمارس جاذبية شديدة على مخيال العديد من الشباب المسلم في الوقت الحاضر. ويصعّب هذا القول بنوع خاص حين نذكر أن الذاكرة الأحداث عهداً عن الحديث من خلال الاستعمار يُمكن تشبيلها كقصة ملوّها المهانة والكوص، وخيانة رسالة الإسلام لا شيء إلا لإحلال الحقيقة والعدالة الشاملتين في عالم تمرّقه الفقرة والنزاعات. إن العنف الذي ضرب أميركا في 11 أيلول/سبتمبر 2001 قد يكون متجذّراً في اليأس المستحكم بأناس يحملون رؤية رومانسية ومثالية عن الماضي فيما هم يتأملون أشدّ الألم تحت وطأة الإذلال الهومي في الحاضر. ولئن كان الذين خطوا لهذه العملية، من دون أدنى شك، أناساً متعلمين ومحتكين، وعلى دراية تامة بأحوال المجتمعات العصرية وسير العمل فيها، إلا أنّه ليس بالأمر العرضي البتة أن يكون معظم مختطفي الطائرات الخمسة عشر من التابعة السعودية، وبعضهم من محافظة عسير بالذات؛ هذه المنطقة الجبلية الفقيرة المعادية للحدود اليمنية الحالية، استولت عليها أسرة آل سعود في عشرينيات القرن العشرين، وهي لا تزال تحتفظ بالكثير من علاقاتها وارتباطاتها بالقبائل اليمنية. كان من شأن المذبحة العشوائية في 11 أيلول/سبتمبر أن تروّع ابن خلدون مثل كل كرام الناس قطعاً، لكنّي أشك في أنها كانت سقّاجنه.

«الأمّة» تخضع لمشية الله. أما عملياً، فكثيراً ما يُصار إلى تعديل أو تحوير هذا المثل الأعلى الإسلامي من خلال التسليم بالحاجة إلى استنفار العصبية أو النعرة القبلية «في سبيل الله». تُشدّد الممارسة الإسلامية، مُتمثلة بالعبادات وغيرها، على قيمة الجماعة وذلك عبر إقامة الصلاة وأداء فريضة الحج بانتظام؛ ومع مرور الزمن، تولدت عن ذلك تقوى كتابية ذات صبغة مدنيّة، وتقاليده ثقافية رفيعة أو «كبرى». غير أن هذه عاجزة بذاتها عن أن تبني جماعة مترامنة، مستديمة وقوية بما فيه الكفاية لتتجاوز الدينامية المعادية، دينامية النعرة المطوّلة. وسواء أكانت هذه النعرة دينوية، قائمة على الفوارق بين القبائل والقرى أو حتى بين الحرف واليمن؛ أو طائفية، قائمة على الاختلاف ما بين شتى المذاهب الدينية أو الطرق الصوفية التي تتكلمها في أغلب الأحيان أسر بعينها؛ أو كان منشؤها الفوارق بين السنّة والشيعية، فإن مثل هذه الانقسامات تعمل ضد وحدة الأمّة.

على نسق الحركة المعدنانية في الولايات المتحدة، يُشكّل الإسلام، ولاسيما التيارات السنّي الغالب الذي يضم حوالي 90 بالمئة من مسلمي العالم، قوة شعبية محافظة، تعارض التزمّت العقائدي أو الضوابط الكهنوتية المعتدلة. وإذا كانت كتابية الإسلام وروحه العملية الرابضة قد أدمنته بلغة مشتركة عابرة للحدود الإثنية والعرقية والقومية، خالقة بذلك أضخم «مجتمع عالمي» عرفه العالم ما قبل العصر الحديث، إلا أنها لم تنجح قط في تأمين الدعامة الأيديولوجية الأساس لنظام اجتماعي موحد. يُمكن أن يُترجم إلى هوية قومية مشتركة، في الغرب، أوجدت مؤسسات المسيحية القروسطية، المتحالفة مع البنى القانونية الرومانية، الشروط المسبقة لنشوء الدولة القومية الحديثة. أما في «دار الإسلام»، فإن الأساس الخلفي للدولة ظل باستمرار عُرضة للإضعاف والتخريف من جانب واقع العصبية القبلية. كان يُمكن التسليم بذلك أمراً واقعاً، إنما يستجول منحه اعترافاً شرعياً وربما كان ذلك أحد الأسباب التي جعلت حضارة متقدمة بأشواط على منافستها المسيحية في القرنين العاشر والحادي عشر،

## المقائد والعبادات الأساسية في الإسلام

تتخذ أشكالا عدة، كالصلاة والذكر والدعاء والابتهاال. والمسلمون في تأديتهم الصلاة يسجدون في اتجاه الكعبة، ذلك الهيكل المكعب الشكل الذي تغطيه «كسوة» سوداء مطرزة من الحرير الأسود، وينهض وسط ما يُعرف بـ«الحرم القدسي» في مكة. وتقام الصلاة يومياً عند الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب والعشاء، وفي المقدور الجمع بينهما بحسب الظروف. كذلك بالوسع أداء الصلاة فردياً، في البيت، أو في مكان عام كالمتنزه أو حتى الشارع، وطبعاً في المساجد والجوامع وسواها من الأماكن المخصصة لذلك. ونداء الصلاة (ويُسمى الأذان)، يُطلق من المئذنة التي تعلو المسجد، ويتضمن التكبير (الله أكبر)، والشهادة («أشهد أن لا إله إلا الله... إلخ.»)، واللازمة: «حيّ على الصلاة». في الماضي، وقبل اختراع مكبرات الصوت الإلكترونية، كانت أصوات الأذان المرئية ترتدّياً بدءاً تصدح من أعلى المآذن خمس مرات يومياً. وصلاة الظهر في يوم الجمعة هي الصلاة الجامعة التي تصاحبها «خطبة» يتلوها الإمام، أو من يؤمّ المصلّين، أو آية شخصية دينية بارزة أخرى. وفي القرون الأولى من الإسلام، كان اسم الخطبة أو الأمر يردّ حتماً في أثناء الخطبة. وحين كانت المناطق تنتقل ملكيتها من حاكم إلى آخر (على غرار ما كان يحدث مراراً وتكراراً)، كان المؤمّر الرسمي على انتقال الحكم: المباداة باسم الحاكم الجديد علناً في المساجد الكبرى بالبلاد. وثمة ركن آخر من الأركان الأساسية في الإسلام، ذلك هو الزكاة، أو المشاركة في الثروة (ويجب عدم الخلط هنا بين الزكاة والإحسان الطوعي أو الصدقة). في الماضي، كانت الغاية من إيتاء الزكاة تقوية الشعور الجمعي من خلال التشديد على واجب الغني بمساعدة الفقير، وكانت تدفع للزعامة الدينيين أو للحكومة. أما اليوم، فإن كلّ ملة إسلامية تؤتي زكاتها وفقاً لتقاليد خاصة بها.

والصوم هو الامتناع عن الأكل من طلوع الفجر

في الغالبية العظمى من المذاهب الإسلامية، يلتزم المسلمون جميعاً قواعد أساسية محدّدة، تُسمى «أركان الإسلام». وأهم هذه الأركان، إظهار الإيمان أو النطق بالعبارة التالية: «أشهد أن لا إله إلا الله: وأشهد أن محمداً رسول الله». وهذه الجملة التي تقال أمام شهود، وتُسمى «الشهادة»، شرط كافٍ للدخول في الإسلام والانتساب إلى «الأمة».

كذلك يشهد المسلمون بالتوحيد (وحدة ووحداية الله). إنهم يؤمنون بأنّ الله كان دائماً وأبداً على اتصال بالإنسانية من خلال الرُّسل والأنبياء، مثل إبراهيم وموسى وعيسى، وأن محمداً هو خاتم الأنبياء الذي أنزل عليه القرآن. والمسلمون مطّالبون بالترّزام بنمط سلوك مناهي وأخلاقي في حياتهم الشخصية والاجتماعية، وهم مسؤولون عنه أمام الله.

وبالإضافة إلى التوحيد، تشتمل مبادئ الإيمان التي يلتزمها المسلمون على الاعتقاد بأن الملائكة وسواها من الكائنات الخارقة للطبيعة كالجان مثلاً، إنما تعمل في تبليغ رسائل الله: وأن إبليس أو الشيطان، الملاك الساقط، أخرج من الجنة لأنه أبى النزول عند أمر الله بالسجود لآدم: وأن محمداً هو «خاتم النبيّين»، أي أنه الأخير في سلسلة من الرُّسل البشريين أرسلهم الله لهداية البشر وتحذيرهم. ويؤكد القرآن أن من الذين أوحى إليهم فيها سلف – وبالأذات النصاري واليهود – قد حوِّروا في الكتب التي أنزلت عليهم. ويُنذر القرآن الناس بهجوم الدين (الدينونة/ القيامة)، يوم يقف الجميع، الأحياء والأموات على حد سواء، أمام الرب الذين ليحاسبوا على ما فعلت أيديهم: فمن فعل خيراً، يُثاب ويدخل جنّات النعيم: ومن أخلّ بواجباته، يُعاقب بأنّ يُصلّى نار جهنم.

كذلك يبيّن القرآن بالتفصيل جملة من الممارسات التي صارت مع الوقت معيارية بالنسبة للمسلمين. ومن هذه الممارسات: العبادات، التي

حتى غروب الشمس طوال شهر رمضان؛ وفيه يمتنع المؤمنون عن الطعام والشراب والتدخين وكذلك عن الجماع، وقد عدَّ أبو حامد الغزالي، المتصوِّف والفقيه المشهور في القرون الوسطى، منافع جمَّة للصيام، نذكر منها: نقاء القلب وشحذ المدارك الملأزم للجوع، وإماتة الجسد والسيطرة على النفس وكبح الشهوات، فضلاً عن التضامن مع الجوعى: فالإنسان الشبعان «غرضة لأن ينسى الجائعين وحتى الجوع نفسه». تقليدياً، شهر رمضان مناسبة لجميع شمل أفراد العائلة والعكوف على الصلاة والتأمل الديني. لكن في العديد من الأقطار الإسلامية اليوم، ينقلب الصيام إلى مأذب عامرة عند المغرب، فتكون مناسبات يغلب عليها جو المرح والإسراف في الطعام والشراب وتدوم حتى ساعة متأخرة من الليل. رمضان هو الشهر التاسع في التقويم الهجري (القمري)، الذي ينقص عن التقويم الشمسي بأحد عشر يوماً. لذلك، يحلُّ رمضان، شأن بقية الأعياد الإسلامية، في فصول مختلفة خلال دورة كاملة من خمس وثلاثين سنة.

وهناك فريضة شعائرية جليلة الشأن في الإسلام، هي الحجُّ إلى مكَّة، حيث يتوجَّب على المسلم المؤمن أن يحجَّ في حياته مرة «واحدة» على الأقل إن استطاع إلى ذلك سبيلاً. تاريخياً، الحجُّ كان وما زال إحدى الوسائل الرئيسية لإبقاء العالم الإسلامي بشئى أربجائه على اتصال وتواصل مادي، في

الآزمنة ما قبل الحديثة، أي قبل أن تجعل وسائل النقل الجماعية من سفن ومطائرات الحجَّ في متناول معتدلي ومتوسطي الحال، كان الحجاج العائدين يكتسبون اللقب المشرف: «الحاج» / «الحاجة»، ويحظون بمكانة اجتماعية أرفع من أولئك الذين لم يحجُّوا بعد داخل أوساطهم. والحجُّ علاوة على إتاحتها الفرصة لتحقيق كمال الذات روحياً، يوفر في بعض الأحيان فرصة لمزاولة الأعمال من خلال تمكينه الحجاج من مختلف أصقاع الأرض من الالتقاء والعمل معاً. كما أنه يسهل الأمر للحركات الهادفة إلى الإصلاح الديني - السياسي. فكم من حركة سياسية نشأت عن لقاءات جرت أثناء موسم الحجِّ - ابتداءً من الثورة الشيعية التي أفضت إلى قيام الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا (909)، وصولاً إلى حركات النهضة والإصلاح الإسلامية الحديثة. والمعلم الدال على انتهاء شهر الصوم هو «عيد الفطر»: في حين يبلغ الحجُّ ذروته مع «عيد الأضحى»، حيث يشارك المسلمون في تقديم الأضاحي من المواشي. وهذان العيدان هما أكبر احتفالين متعارف عليهما يحبيهما المسلمون في كل مكان. وعلاوة على ما تقدم، هناك العديد من العبادات والممارسات الروحية الأخرى لدى المسلمين التي نشأت وتطورت عبر العصور، وهي مبنية على تأويلات خاصة لمزاولة الإيمان وتفاعله مع التقاليد المحلية.

## الجغرافيا الطبيعية للعالم الإسلامي

المحيط الهندي؛ وعلى منطقة جونغلي جنوبي بحر قزوين عند المنحدرات الشمالية لجبال ألبورز، التي تستجمع الهواء المشبع بالرطوبة المنساب جنوباً من روسيا.

في الأزمنة القديمة، وقبل أن تصبح المياه المتحجرة الجوفية، المخزونة لملايين السنين داخل الطبقات الصخرية، متوافرة للإنسان بفضل طرق الحفر العصرية، كانت الزراعة غير مستقرة إلى حد بعيد، خصوصاً حين ظهرت المنطة مثلاً، وغيرها من المزروعات التي يلزمها كميات هائلة من المياه، على شكل واديات غذائية. فالطفل الذي ظلّ يخلّ الحنطة طوال آلاف السنين لن يلبث أن يعرف مواسم عجايباً حين يكون تساقط المطر بوسعة واحدة بدلاً من البهوسات العشرين المعتادة. وهذا ما أدركته الشعوب القديمة جيداً، فأثنت نفسها إلهاءات الحبوب. غير أن الزراعة ازدهرت بالفعل في أودية الأنهار الكبرى، في مصر وبلاد الرافدين (العراق حالياً). فالفيضانات السنوي فيهما، الناتج عن الأمطار المدارية في إفريقيا وذيون الثلوج في هضاب الأناضول وإيران، دأب يخلّ محاصيل منتظمة، وسهّل عملية نشوء الثقافات المدنية المتقدمة في سومر وأشور ومصر. والحاجة إلى إدارة شبكات الري ذات المعايير العالية الدقة في استخدام مياه دجلة والفرات والنيل الفنية بالعناصر الغذائية، اقتضت استنباط أنظمة معقدة للتسجيل والضغط، الأمر الذي أتاح للكتبة المتعلمين، الجديدين بأن يكونوا كهنة، أن يحكموا جنباً إلى جنب مع القابضين على زمام القوة العسكرية. وهكذا يجوز القول إن النهر الأصفر في الصين، وادي الإندوس (الهند)، والمنظومات النهرية الكبرى في الهلال الخصيب، كانت في أصل نشوء الحضارة الإنسانية. وأولى الدول، بمعنى أنظمة الحكم الخاضعة للنظام والقائمة على مبادئ قانونية عامة، إنما ظهرت في تلك المناطق تحديداً منذ ما يزيد عن خمسة آلاف سنة.

والقدر المحدود من ماء التربة اللازم للإنتاج الزراعي، كان له الوقع الحاسم على نمو المجتمعات البشرية في المناطق الجافة. صحيح أن الظروف تختلف من منطقة إلى أخرى، إلا أن ثمة مزايا مميّنة

لأن كان العالم الإسلامي يغلّي حالياً حزاماً عريضاً من المناطق الممتدة من سواحل إفريقيا على المحيط الأطلسي إلى الأربخيل الإندونيسي في المحيط الهادي، إلا أن الرقعة الوسطى من غرب آسيا، حيث ظهر الإسلام، كان لها الأثر الحاسم في تطوره. وبالمقارنة مع غرب أوروبا وشمال أمريكا، تقصّف تلك الرقعة بقلة هطول الأمطار على وجه العموم. في فصل الشتاء، تسقط الأمطار والثلوج التي تحملها الرياح الغربية



مسجد أفايس في الفجر، تُعدّ أول مرة في القرن الرابع عشر ميلادي، وهو مبني من الطين. هيكلاً الإنشائي يتطلب تجهيزاً وترتيباً بصورة منتظمة، ويقوم بذلك عمال يحملون طيناً جديداً ويتسلقونه على القيد الفضية النائفة التي تقرم مقام السقالات.

القادمة من المحيط الأطلسي وكميات لا بأس بها على جبال الأطلس وجبل الريف، وعلى هضبة برقة وجبل لبنان، فيما تسقط بقاياها على نحو متقطع على الجبل الأخضر في عُمان، وجبال زاغروس وألبورز ومرتفعات أفغانستان. غير أن الأمطار الوحيدة التي تهطل بانتظام أكيد، هي تلك المتساقطة على جود اليمن وتُفَار، التي تستقبل الرياح الموسمية الهابّة من

محاصيلهم الزراعية من جانب الكهنة على شكل تقديرات وأعطيات، أو من قبل الحكام على صورة ضرائب إلزامية، كان الرعاة الرُحَّل في كثير من الأحيان يتجهون في التمسك من قيود سلطة الدولة وشوايها. فالتاس هنا منتظمون في عشار أو في تشكيلات أبوية من ذوي الأرحام متحدرين من سلف تكرر مشترك. وتلقى البسالة في الحرب تشجيعاً خاصاً، لأنه حيث تندر الموارد الغذائية، ربما تضطر القبائل، أو البطون والأفخاذ القبلية، إلى التنافس فيما بينها، أو حتى إلى الإغارة على القرى المستقرّة كي تبقى على

تميز أنماط الحياة فيها من مثيلاتها في المناطق المعتدلة شمالاً أو المناطق الاستوائية جنوباً. فحيثما تقل الأمطار أو يكون هطولها غير مؤكد على وجه اليقين، تشكل تربية الحيوانات – الإبل، والغنم، والماعز، والبقرة، والخيول إذا كان الأمر ملائماً – أضمن وسيلة للعيش لعدم لا يستهان به من البشر. إن «البوادي الخالصة»، أو بحدود الرمال من الكثبان المتبدلة والمتقلّبة بفعل الرياح، والتي تغطي قرابة ثلث مساحة الجزيرة العربية وشمال إفريقيا، لا تناسب حياة البشر أو الحيوان إطلاقاً، لذلك تحاشاها

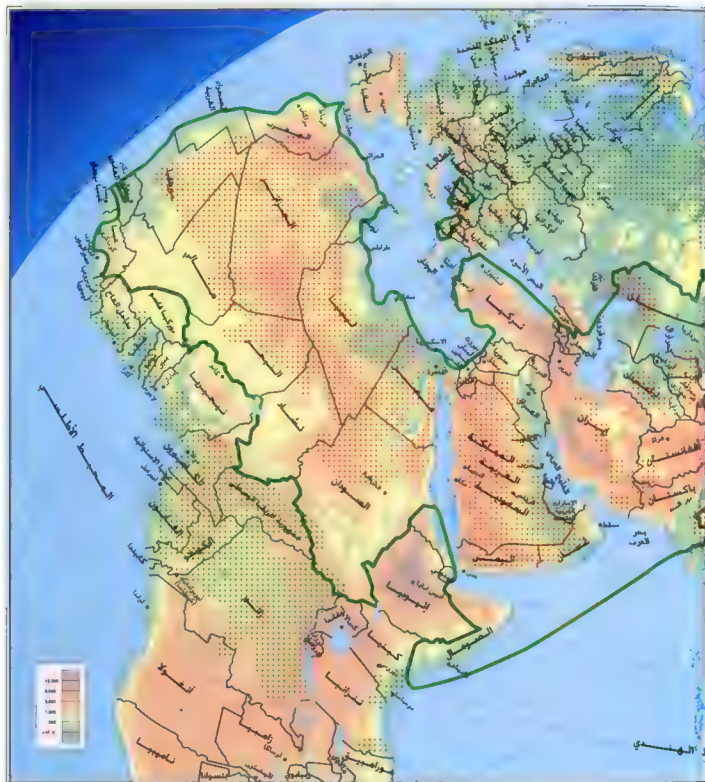
مع إرساء الإسلام دعائمه على امتداد «طريق الحرير»، أقيمت المساجد للمسافرين المسلمين والمهتدين المخلصين إلى الإسلام على حد سواء. هذا المسجد في مقاطعة شينجيانغ الصينية يعمس في تصميمه مؤثرات العمارة في آسيا الوسطى



قيد الحياة. الملكية لدى الرعاة مشاعية، وهي تتخذ بصورة تقليدية شكل قطعان من الماشية عوضاً عن أراضٍ مُعْطاة للمحاصيل الزراعية. إن الممتلكات والأراضي هنا ليس لها حدود مشتركة (كما هي الحال في المناطق ذات التساقطات المطرية العالية)، لأن الأرض قد يشغلها مستخدمون مختلفون تبعاً لاختلاف فصول السنة. وغالباً ما يعتبر الموارد الحيوية، كالنباتات وأبواب المياه، التي للجميع مصلحة فيها، ملكاً لله، إنما عهد بها إلى أسر محصومة تكون قيمة عليها وتعد نوعاً ما مقدسة

الرعاة والتجار والجيوش. لكن أشكالاً معقدة من الحياة الرعوية البدوية وشبه البدوية نشأت في المناطق شبه الصحراوية الأوسع مساحة، فكانت قطعان المواشي تساق شتاءً مسافات بعيدة إلى الأودية أو الأراضي شبه المتصحرة لترعى هناك على الكأ والنباتات التي يمكن أن تنبت بعد أدنى رجة من المطر. وفي حر الصيف، تنتقل القطعان، حيثما أمكن ذلك، إلى المراعي في المرتفعات والهضاب، أو تتجمع على مقربة من الأنهار ويزرع المياه. ويعكس الغلاحيين العاملين في زراعة الأرض الذين قد تُنزع منهم





## اللغات والمجموعات العرقية الإسلامية

وإلى جانب المسلمين الذين يعيشون في بلدانهم ذات الأصل العرقي المعروف، هناك في الوقت الحاضر ملايين المسلمين المقيمين في أوروبا وأمريكا الشمالية. وحيث إن اللغة الإنجليزية هي اليوم اللغة العالمية للأعمال والتجارة والثقافة والعلوم، وبالنظر إلى أن المسلمين من الجيل الثاني في أوروبا وأمريكا وكندا يتحدثون الإنجليزية (ناهيك عن الفرنسية والألمانية والهولندية وسواها من اللغات الأوروبية)، بات انتشار هذه اللغة بين المسلمين يُشكل تطوراً بارزاً في الآونة الأخيرة.

تُعد الدولة القومية الحديثة، القائمة على حدود معترف بها دولياً، ولغة مشتركة (في معظم الحالات)، ونظام قانوني عام، ومؤسسات تعليمية (سواء أكانت مُعينة أم منتخبة)، ظاهرة جديدة في معظم العالم الإسلامي. فالحدود الحديثة المفروضة فرضاً في أحوال كثيرة، نتيجة ترتيبات وتفاهات بين الدول الأوروبية، تترسم خطوطاً على الخرائط تنتهك وحدة الانتماءات اللغوية/العرقية، مما ترك شعوباً كالأكراد والبشتون، مثلاً، مقسمة بين دول مختلفة. قبل أن تهاشر التدخلات الاستعمارية بحبس البلدان الإسلامية داخل المنظومة العالمية للدول الأعضاء في الأمم المتحدة، كانت تلك البلدان تنزع إلى تنظيم نفسها على أساس مذهبي أو عرقي وليس على أساس إقليمي أو ترابي. فلم تكن للبلدان الإسلامية حدود مرسومة على خرائط ولم تكن الحكومات فيها تعمل بانتظام ضمن مساحة معترف بها، كما هي الحال في أوروبا، «بل كانت بالأحرى تنطلق من عدد من المراكز الحضرية بقوة تميل إلى الضعف كلما طالت المسافة وبرزت في وجهها موانع طبيعية أو بشرية» [البرت حوراني، «تاريخ الشعوب العربية»، لندن، منشورات فابن لطبعة منقحة 2002، ص 138]

وإذا لم أن تنصب الروح القومية، كما في إيطاليا النهضة وإنجلترا وهولندا، على المدينة، أو المدينة/الدولة، أو الأمة بالمعنى الإقليمي الحديث، انصبت بالأحرى على العشرة أو القبيلة ضمن إطار «الأمة» الأوسع: الجماعة الإسلامية على نطاق العالم أجمع. وقد تعززت أشكال التضامن المحلي هذه

هناك ما يناهز مليار مسلم في العالم اليوم، أي حوالي خمس تعداد البشرية. وأكبر مجموعة فيهم ذات لغة واحدة هي العرب، بما يشكل زهاء 15 بالمئة من المسلمين. إنما ليس كل العرب مسلمين. فهناك أقليات مسيحية عربية لا يُستهان بها في كل من مصر وفلسطين وسورية والعراق، وأعداد قليلة من اليهود الذين يتكلمون العربية في المغرب، وإن كان عدد هاتين الجاهليتين قد شهد هبوطاً سريعاً في العقود الأخيرة بفعل الهجرة بالدرجة الأولى. لقد هجمت العربية، بما هي لغة القرآن والعلم والفكر الإسلاميين، زمنياً طويلاً على ثقافات العالم الإسلامي: تليها مباشرة الفارسية، لغة بلاد العجم والبلاد المغولية في الهند.

غور أن انتشار الدين الإسلامي بين شعوب وأقوام من قبل العرب، قد جعل العربية لغة أقلية، وإن كان العديد من المسلمين من غير العرب يتلون القرآن بالعربية. وتبعاً لمصح إنوغرافي نُشر عام 1983، ثمة ما يربو على 400 مجموعة عرقية/لغوية في صفوف المسلمين حالياً، لعل أكبرها بعد العرب، وبالترتيب نزولاً: البنغاليون، البنجابيون، الجاويون، الناطقون بالأردية، أتراك الأناضول، السودانيون (سكان شرق جاره)، الفرس، الهوسا، الملاويون، الأذريون، الغولاني، الأوزبكسون، البشتون، البربر، السنديون، الأكراد، المادوريون (سكان جزيرة مادورا، شمال شرقي جاره). ويتراوح تعداد هذه المجموعات ما بين 100 مليون نسمة تقريباً (البنغاليون)، و10 ملايين (السنديون، الأكراد، المادوريون). ومن مثبات المجموعات الصغرى التي تضمها اللائحة، تأتي أصغرها طراً، وهي: الوائون، الذين يعملون في الصيد وجمع الثمار في إثيوبيا، ولا يزيد عددهم عن 2,000 نسمة لكن ثلاث لغات يتكلم كلأ منها يزيد من 10 ملايين نسمة - وهي الجاوية والسوندانية والمادورية - تتعرض حالياً للخطر من جانب الـ «بهاسا إندونيسيا»، وهي اللغة الرسمية المعتمدة اليوم في المدارس الإندونيسية. وحيث إن الإندونيسيين يشكلون أضخم بلاد في العالم ذات أغلبية إسلامية، فمن الممكن أن تتجاوز الـ «بهاسا إندونيسيا» اللغة العربية من حيث كونها اللغة الإسلامية المحكية الأوسع انتشاراً.



على الرُّحل من ممتلئ السلب والنهب أو عن ضبطهم ولجئهم بواسطة القوة العسكرية، تعرّضه نوعاً ما القوة الأدبية للإسلام وهيبته الثقافية. وقد حدث مراراً، في عصور ما قبل الاستعمار، أن صار الشُّهاب أنفسهم مدافعين مؤثوقين عن الإسلام: أو إذا ما استعزوا هنا جُملة للعالم الأنثروبولوجي إرنست غيلنر، «صاروا الذئاب كلاباً للرعيان». ومثلما روى النبي محمد قبائل الجزيرة العربية بما ضربه لها من أمثلة شخصية، فضلاً عن الإعجاز القرآني ونظام الحكم الميثقي عنه، كذلك عملت الشريعة (الإلهية) وأنظمة الفقه (البشرية) معاً على تسوية الخلافات والنزاعات التي كانت تتربى بين قطاع الطرق الرعويين والزّراع وأهل الأمصار. وهذا النظام المتأصل في الذاكرة الاجتماعية لمسلمي الحاضر، كان يقوم على واجب الحاكم في إقامة العدل، وذلك بالحكم وفق الشرع الإسلامي. والمهمة الجسيمة التي تواجه الدول الإسلامية المعاصرة، هي كيف تسفر تقاليد سياسية واجتماعية يعرف الجميع أنها تشكّلت في بيئة تختلف كل الاختلاف عن الظروف السائدة حالياً.

شرطي من الطوارق في منطقة الساحل الجنوبي الصحراوي الكبير من مركزهم في تيمبوكتو، سيطر الطوارق على طرق التجارة بين البحر المتوسط وغرب إفريقيا

بمعارسات من قبيل الزواج اللصحي بين أبناء العمومة المباشرين، وهو شرط لازم في العديد من المجتمعات الإسلامية. كما تدعّت الولاءات العشائرية أكثر فأكثر بالعامل الديني، مع لجوء زعماء القبائل في كثير من الأحيان إلى توسيع ثورتهم أو غزواتهم بالدعوة إلى الذود عن حياض الإسلام الحق في وجه أعدائه الكفار. إذا ما نظرنا إليها من منظور تاريخ الغرب الحديث، نجد أن أنظمة الحكم التي عرفتها المناطق الجافة أو القاحلة كانت بوجه عام غير مستقرة وباعثة للخلاف والشقاق. في أوروبا، وهي منطقة تتميز بمعدلات تساقط أمطار عالية، خرجت الدولة من رحم الصراعات الدستورية ما بين الحكّام والمحكومين، تغذّيها الصراعات بين الطبقات الاجتماعية إنما داخل سكاني متجانسين يتشاطرون نفس الهويات القومية والسياسية والثقافية (وإن شابهها نزاع في بعض الأحيان كما في إيرلندا مثلاً). أما في المناطق الجافة، فقد فرضت العشائر المتعبد، أو السلالات ذات الركائز القليلة، هيمنتها على المجموعات المروّضة، أو سعت إلى ضمان هيمنتها تلك عن طريق استقدام المماليك (وهم من الصكر المسترق) من أطراف البلاد النائية، ممن لا يربطهم بسكان البلاد الأصليين سوى الحد الأدنى من العلاقات الاجتماعية. فبقي الزّراع أهل الفلاحة وكذلك أهل المدن والأمصار، عرضة لأعمال السلب والنهب من جانب البدو الرُّحل، ممّن كان يضرب بهم المثل بالصيحة: «البرابرة على الأبواب»! كانت العصبية التي تشدّ أفراد العشيرة إلى بعضهم بعضاً أقوى من أي شكل من أشكال التضامن المديني. وإذا افترضنا الطبقات المدينية المسلمة إلى روح التلاحم النقابي التي ميّزت نظيرتها في الغرب، فقد أخفقت في تحقيق الثورة البرجوازية أو الرأسمالية التي أقضت إلى قيام أنظمة الدولة الحديثة في أوروبا وأميركا الشمالية.

بيد أن هناك طريقة مغايرة لمعاينة المشهد ذاته. فعلى ضوء غلبة البداوة الرعوية على الحزام الشاسع من الأراضي التي ضرب فيها الإسلام جذوره، والممتد من سهوب كازاخستان إلى سواحل الأطلسي (وكنذك الآخر في المناطق المشابهة في شمال الهند وإلى الجنوب من الصحراء الإفريقية الكبرى)، كان عجز الدول الزراعية الضعيفة نسبياً عن فرض الضرائب







## المصور القديمة المتأخرة ما قبل الإسلام

اللاحقة الذين كانوا يتمتعون بحماية البيزنطيين، والشميين الذين كانوا يدينون بالولاء للأمبراطورية الساسانية.

والتأثير الأكبر على الحياة الثقافية التي فُض لها أن تظهر في العالم الإسلامي، جاء من الأكاديميات ومعاهد التعليم التي صانته المؤثرات الفارسية والإغريقية والهندية. ولعل الإرث الهلنستي والفارسي في حقول الطب والطوم والفلسفة بنوع خاص، هو ما سيخلق ذلك التقليد القوي المتمثل في حب البحث والفضول الفكري في المجتمعات الإسلامية العتيقة

هذا وقد تأثرت ثقافات المنطقة، وإن بدرجات متفاوتة، بالطابع الكيزمبوليتاني للعالم المتوسطي هذا، فحفظت بذلك تراث العصور القديمة الكلاسيكية

والتراث الهلنستي

بأشكالهما المختلفة،

المعمارية والفلسفة والفنية

والمدينة والزراعية. ومن

بين أبرز الديانات التي

عرفتها المنطقة، الديانة

المسيحية في صيغتها

الأفوكسية التي دانت لها

الأجزاء الجنوبية من الجزيرة

العربية، فيما سيطرت

الزرادشتية على إيران وبلاد

ما بين النهرين. وللعبودية

تاريخاً مديد في الشرق

الأدنى، كما استقرت جاليات

يهودية صفورية في اليمن

وواحات الجزيرة العربية مثل

يثرب (المدينة). وقد تعايشت القيم والآداب والتقاليد

الموروثة من كل هذه الحضارات في تلك البيئة

الشاسعة، المتعددة الديانات والمتعددة الأعراق، التي

إن يمضي قرن من الزمن على وفاة النبي محمد إلا

وتكون قد بوغلت بالفتوحات الإسلامية لها. وسوف

تشكل مع مرور الزمن جزءاً من منظومة حضارية أكبر

مقترنة بالدين الإسلامي، إنما محافظة في الوقت عينه

على تواصل مع شتى تراثات العصور القديمة.

خرجت جماعة المسلمين إلى الوجود في الجزيرة العربية إبّان القرن السابع الميلادي، وكانت المنطقة التي شهدت مولدها محل سيطرة حضارات وأمباطوريات وثقافات ومجموعات عرقية عريقة فما زالت آثار من حضارة بلاد الرافدين حية إلى اليوم في واديّ دجلة والفرات؛ ولطالما شعرت المناطق المعاذية للبحر المتوسط والخليج بوقع القوى المجاورة التي كانت تززع خطوط التجارة البحرية في تلك المياه نهائياً وإهابة. كانت بيزنطة، الدولة الرومانية الأرثوذكسية الشرقية، التي تتخذ من القسطنطينية قاعدة لها، المملكة المسيحية الأولى في المنطقة، وكانت على خصام مع الأمباطورية الساسانية الزرادشتية الجبارة في بلاد فارس (إيران حالياً).

نقش بارز على الصخر من ماغشي - رومسان، يصور أرشدور الأول، مؤسس السلالة الساسانية، وهو يواجه محارباً معادياً من بارلها



والمد والجزر في النزاع بين مختلف القوى الكبرى آنذاك كان له أكبر الأثر على التجارة، وكذلك على العلاقات مع المنطقة المزدهرة الواقعة إلى الجنوب منها في الجزيرة العربية. ولا يزال تاريخ بعض الممالك العربية الغابرة محفوظاً إلى الآن في الأوابد والمعلقات الأثرية كذلك القائمة في البتراء النبطية (القرن الأول ق-القرن الأول م)، وتدمر (القرن الثاني - القرن الثالث)، وفي آثار الفسافسة في القرون



## رسالة محمد وغزواته الحربية

التنزيل الأخير من الله إلى البشر جُمع القرآن في عهد ثالث الخلفاء الراشدين، الخليفة عثمان بن عفان (ح 644-656)، وهو يتألف من 114 فصلاً أو سورة. ويُقال إنها تنزلت على محمد في مسقط رأسه مكة، حيث كان يعمل في التجارة؛ كما أن هناك سوراً تعود إلى فترة إقامته في المدينة (622-632).

في مكة، تسببت إدانة القرآن للأثام والشور، مثل الكبرياء والغرور والجشع وإهمال الواجبات الاجتماعية، وكذلك تدميراته من يوم الحساب وتهجمات على عبادة الأوثان، بنشوب نزاع حاد بين محمد وأتباعه من جهة، وزعماء قبيلته قريش من جهة أخرى. فتمزق أبناء عشيرته للمقاطعة، والمهتدون إلى الإسلام للاضطهاد، مما حمل بعضهم على اللجوء إلى أقبشوم (في الحبشة). إلا أن شهرة محمد كخبي ورسول الله الصادق الأمين، تجاوزت حدود مكة، فكان يُدعى إلى القضاء والتحكيم بين فئات القبائل المتخاصمة في يثرب، التي سُميت لاحقاً بـ «مدينة الخبي»، وتُختصر عادة بـ «المدينة»، وهي واحة مأهولة تقع على مسافة 250 ميلاً إلى الشمال الشرقي من مكة. وهجرة المسلمين إليها في العام 622 تُؤرخ لبداية العصر الإسلامي وتحتوي آيات القرآن التي تعود زمنياً إلى حقبة المدينة، حين كان محمد بمثابة الحاكم الفعلي فيها، على شطر من العادة التشريعية، كأحكام الزواج والميراث، التي سوف تُشكّل لاحقاً ما يُعرف بالقانون أو الشرع الإسلامي.

وبعد سلسلة من الحملات والغزوات ضد المكّبين، خرج المسلمون ظافرين. وفي السنة الأخيرة من حياته، رجع محمد مظفراً إلى مكة، حيث أعلنت القبائل عن خضوعها له وأمنتها لأمره على امتداد طريق العودة. وقد قام بإصلاح شعاير الحج القديمة، فخرج عنها جوانبها الوثنية وأعاد توجيهها نحو ما آمن بأنه التوحيد الإبراهيمي الأصلي. وبعد تنظيم بضعة حملات إضافية، عاد محمد إلى المدينة، حيث وافته المدينة بعد مرضٍ قصير ألم به في العام 632.

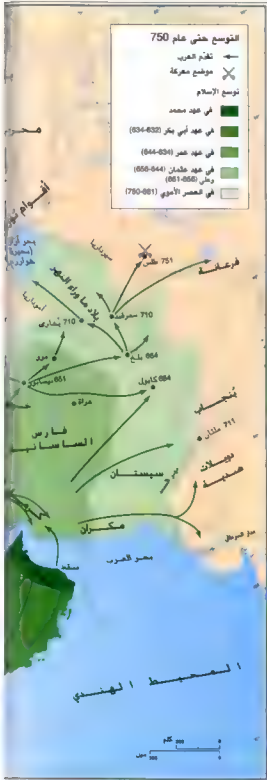


الإسلام اسم مشتق من الفعل العربي «أسلم»، أي سَلِمَ العره نفسه واستسلم. واسم الفاعل «مسلم» يعني، أولاً وأساساً، تسليم الإنسان أمره لله كما تجلّى في تعاليم الرسول محمد (ن 570-632). هذا ويؤمن المسلمون بأن محمداً قد تِلَغّ الوحي الإلهي بحذاقيره منجّماً في القرآن، هذا الكتاب الذي ينظر إليه المسلمون على أنه

يُعدُّ تصوير النبي محمد في رسوم من الحضارات، لكن جرى تداول صور المآثر البطولية لعمه حمزة وأخريش إظهاراً لأولي الممارك الشخصية التي خاضها المسلمون. هذا الرسم من العهد (حوالي 1561-1578)، وأحد من سلسلة تصامير كهيرة الحجم كانت تُعرض على الجمهور أثناء سرد وقائع تلك القصص الملحمية

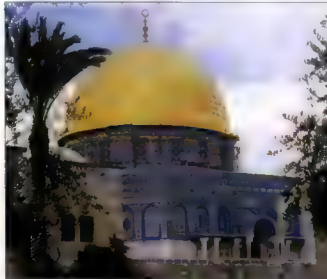


## توسُّع الإسلام حتى عام 750



تركت وفاة الرسول محمد جماعة المسلمين من دون أي قائد بَيِّن، فكان أن اختار عدد من الزعماء واحداً من أقدم أصحابه، هو أبو بكر الصديق (ح 632-634)، ليكون أول خليفة له. وخلال فترة حكمه وحكم خليفه عمر بن الخطاب (634-644)، أُعيد توحيد القبائل التي ارتدت بعد موت الرسول، وتحوّلت تحت راية الإسلام إلى قوة عسكرية وأيديولوجية جبّارة. اندفع المسلمون خارجين من الجزيرة العربية، ففتحوا نصف الولايات البيزنطية، وهزموا جيوش فارس الساسانية. سقطت العدائن، عاصمة الفرس، في العام 736، والقدس في العام 638 وفي فترة حكم عثمان بن عفان، خلف عمر بن الخطاب، دانت مصر بكاملها لسيطرة المسلمين العرب، وكان ذلك بحلول عام 646. اقتنى العرب السفن من مصر وسورية، وبواسطتها أخذوا يَشْتَوْن غارات بحرية، فانتزعوا قبرص في العام 946، ونهبوا رودس في العام 654. وعملت الفوارق والخلافات المذهبية بين الحكام البيزنطيين ووعاياهم في مصر وسورية على تسهيل الأمر للمسلمين، فقبِلوا بالامبالاة، إن لم تقل بالترحاب، من جانب من يُشاطرهم الإيمان بإله واحد، الذين زادتهم عقودٌ من الحكم البيزنطي الغريب عنهم شعوراً بالسخط والمرارة. غير أن العوامل الدنيوية كانت سهمته هي الأخرى، فالحافز المحرِّك للحرب كان الرغبة في المغنم، فضلاً عن الإيمان الديني. في الماضي، كان المغيرون من البدو يكتفون بالنهب أو يُسيطرُون على الأرض، إنما ليقترقوا

قبة الصخرة في القدس، بناها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في العام 691-692. وتعتبر أكبر صرح شُيِّد بعد الفتح العربي يردان المبنى بأبواب قرآنية تتحدث عن وحدانية الله، وهو يكتنف الصخرة التي يُعتقد أن النبي قد خرج منها في «إسرائته» الإعجازي إلى السماء





بعد ذلك بصفتهم أصحابها أو مفتلحيها بين باقي الشعوب المقهورة. لكن الخليفة عمر، الذي عرف عنه تبصُّره وبعد نظره، قرَّر تشجيع القبائل على الاستقرار وفق نظام من المعاش [المعاش] يُدفع من الخزينة العامة [بيت المال] التي وضعت يدها على الأراضي المفتوحة. غير أنه أبقى العرب منفصلين عن بقية السكَّان، داخل معسكرات مسلحة نمت حتى صارت مدناً أشبه ما تكون بالعاميات العسكرية، كالبصرة والكوفة في العراق. صحَّح أن الفوتر الناشئة عن توزيع الغنائم [الغني] كان ينفجر أحياناً على صورة حرب أهلية مفتوحة، إلا أن الإشراف العام من جانب الحكومة الإسلامية الحديثة العهد لم يتوقف في ظلِّ الحكم السلافي. ولئن وجدت السلالات الحاكمة من يتحداها في بعض الأحيان بوصفها حكماً منافهاً للمبادئ الإسلامية في العدالة والمساواة، إلا أن الحكم السلافي كان على أتم انجذاب مع الشكل السائد من التنظيم الاجتماعي القائم على الجماعة القروية ذات الطابع الأبوي، وبقي هو النعم الساري المفعول إلى يومنا هذا. وقد واصل الإسلام إنتشاره وتوسُّعه في ظل الأمويين، بحيث وصلت أقدام المغيرين العرب إلى مناطق قصبة كوست فرنسا ووادي السند



## انتشار الإسلام 751 - 1700

بموجبها لليهود والنصارى بالبقاء على دينهم إذا ما أدّوا الجزية. كفل الخلفاء لجميع الشعوب من أهل الكتاب (بمن فيهم الزرادشتيون) الحق في ممارسة شعائهم الدينية شريطة أن يدفعوا الجزية، وهي كناية عن ضريبة تُسَدَّد لقاء الإعفاء من الخدمة العسكرية. في البدء، بقي الإسلام ديناً للعرب، ورمزاً للوحدة وشارة للقبيلة. وحين اعتنق الناس الإسلام، طُلب من المهتدين الجُدد أن يكونوا موالى (أي وكلاء) للقبائل العربية، وبما يفترض معه احتفاظ العرب بالدور المهيمن.

بيد أن عوامل كثيرة شجعت الناس على الدخول في الإسلام بُعيد الفتوحات الأولى. فبالنسبة لأولئك المسيحيين الذين أرهقتهم قرون طويلة من المشاحنات اللاهوتية المتخلفة حول التوازن الدقيق بين طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية، جاء الإسلام حاملاً إليهم رحابة صدرٍ بدينٍ يتبوأ فيه المسيح مكانةً مشرفةً بوصفه بشراً بمحمد. كذلك الأمر بالنسبة لليهود، فقد بدا الإسلام لهم كإيمانٍ مقومٍ بديانة إبراهيم وموسى. وحتى الزرادشتيون الذين جردوا من أي دعم رسمي لديانتهم عقب الفتح العربي للأمبراطورية الساسانية، وجدوا في الإسلام ديناً مثل دينهم، يقيم وزناً لمسؤولية الفرد الأخلاقية؛ ولاحقاً في فكرة المهدى الشيعية، مفهوماً شبيهاً بعقيدة «الساوشانت» في الأخويات الزرادشتية. تتميز الأفكار المسيحانية (المخلصية) بجاذبية عامة، وهي منبئة في جميع التعاليم الدينية تقريباً في أعقاب الفتوحات الإسلامية للهند، صار «الإمام المنتظر» بحسب الأخويات الشيعية يتصاهى في بعض الأحيان مع التجسد المرتقب للاله فيشنو. وفي المواضع، ساهم المهتدون إلى الإسلام من الديانات الأقدم عهداً في نزع الصبغة القبلية عن دين العرب من خلال تأكيد حقهم كمسلمين، والتشديد على عالمية رسالته، وكذلك من خلال التنويه بوظيفته كمشرع في إرساء النظام الاجتماعي الجديد وأشكال السلطة السياسية الجديدة. ولعل البساطة التي تسم عملية اعتناق الإسلام (النطق

لقد توسع الإسلام بالفتح والهداية معاً. وإذا قيل أحياناً إن الدين الإسلامي انتشر بحد السيف، فليس معنى ذلك أن الاثنين متطابقان. يقول القرآن ويصوره لا ليس فيها: ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة، 852]. واقتداءً بالسابقة التي أرساها الرسول، والتي سمح

بُرج الجامع الكبير في القيروان بنوس. يعود بناء هذا المسجد إلى القرن التاسع الميلادي، وقد بُني في نفس موقع مدينة قرطاجة القديمة وتصميمه الهندسي المتميز بثلاثة أبراج يعلو واحد منها الآخر، مقنن من وظيفة الضئائر وأبراج المراقبة في المصور الكلاسيكية



وإرسون متجولون: دراويش صمدانيون: أمراء  
أروميون محاطون ببطانات تطلب الألباب: مثقفون  
ودعاة مذاهب سرية متفذكرون يعرفون كيف يكيفون  
عقائدهم وطقوسهم بحيث تناسب جمهوراً تتباين  
خلفياته الثقافية أشد التباين. وربما لافتقاره إلى  
برنامج تبشيري موجه توجيهاً مركزياً، أثبت الإسلام  
أنه أكثر ما يكون قدرة على الانتشار بصورة عضوية.

هذه الصفحة من القرآن المرقونة  
بالخط المحقق، أنجزت في بغداد عام  
1308. ويمنح قياسها الكبير عن كونها  
نسخة موهوبة كي يستخدمها عموم  
المصلين في المسجد



جهراً بالشهادتين أمام شهود عدول ليس (إلا) كانت  
تتفاير مغايرة صارخة لصالحها مع الإجراءات  
الشديدة التعقيد لاعتناق الديانات الغامضة. ففي  
إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، أمكن «أسلمة»  
الأرواح المحلية بسهولة عن طريق دمجه في المحشر  
القرآني من الملائكة والجان والشياطين. كما أمكن  
لعادة الأسلاف، هي الأخرى، أن تكيف نفسها بواسطة  
تطعيم مجموعات القرابة المحلية بأنساب روحية،  
عربية أو صوفية.

لكن كان هناك أيضاً المزيد من الاعتبارات  
الدنيوية وراء العديد من عمليات الدخول في الإسلام.  
فأحكام الزواج الإسلامية ترجح الكفة لصالح دين  
الإسلام قطعاً، ذلك أن امرأة من أهل الذمة غير مكزمة  
حين تتزوج من مسلم أن تغير دينها، والعكس غير  
صحيح. إذ من المفترض أن ينشأ الأولاد على دين  
الإسلام، وفي ذلك ما يضمن أسلمة الأجيال القادمة.  
وقد كان لهذه الميزة الديمغرافية شأن كبير في  
مجتمعات جرت العادة فيها أن يتزوج المنتصرون من  
نساء القبائل المهزومة. وبصورة أكثر عمومية، كان  
هناك ذلك الميل الطبيعي لدى أناس يهتمون  
بالنسابة والطموح إلى الالتحاق بصنف النخب  
الحاكمة. ففي المجتمع الإسلامي المتطور في الحواضر،  
كمدن إيران والعراق مثلاً، صارت معرفة الشريعة  
والأحاديث النبوية، إلى جانب تحصيل العلوم غير  
الدينية كالآداب والفلك والفلسفة والطب والرياضيات،  
مباشرة علامة فارقة على الطبقات الشريفة  
(الأستقراطية). لكن التأسلم بدافع من الطموح  
الاجتماعي ينبغي ألا يوصم بوصمة الانتهازية  
الجنحة. فالعالم الإسلامي في أوج ازدهاره في العصور  
الكلاسيكية، كان المجتمع الأرقى تطوراً والأرفع ثقافة  
خارج الصين. لذلك كان أمراً طبيعياً أن تكون للخصال  
المدنيّة، من رصانة ونظام وترتيب وغيرها،  
جاذبيتها الخاصة بمعزل عن النشاط التبشيري  
الواحي. فالقائمون عند أطراف المناطق التي تشكل  
قلب الإسلام، سوف يطالعهم الدين الإسلامي بأشكال  
ومظاهر شتى: تجار متعلمون مثقفون: معلّمون





## السنة، والشيعة، والخوارج 660 - ن 1000

صيفة معتدلة تُعرف بـ «الإباضية». وقد ثار أحد زعماء الخوارج، ويدعى ابن ملجم، لرفاقه بأن اغتال علياً عام 661 فتوصل الحسن، أكبر أبنائه سنّاً، إلى تسوية مع معاوية المنتصر، الذي أضحي بذلك أول خليفة أموي. وعند وفاة معاوية في العام 680، ووراثته ابنه يزيد الحكم، قام الحسين، الابن الأصغر لعلي، بمحاولة لاسترجاع الخلافة وإعادة ثانيّة إلى ذرية النبي الأقرين. لكن المذبحة التي أودت بحياة الحسين ونفّر من أتباعه في كربلاء في العام 680 على أيدي جنود يزيد، ولدت موجة من الندم والثوبية بين أتباع علي في العراق [حركة التّرابين] ومصاروا هؤلاء يُعرفون منذئذ بـ «الشيعة»، أي شيعة علي.

الانقسامات الرئيسية في الإسلام، المتصوّرة أساساً على مسألة الزعامة، ترجع زمنياً إلى وفاة الرسول محمد، إلا أنها اشتدت وتفاقت مع أولى الحروب الأهلية (656-661)، وتدايعياتها في الجيل التالي (680-681). كان الخليفة الأول، أبو بكر، واحداً من أقدم صحابة الرسول ووالد أصغر زوجاته سنّاً. عائشة. وقد اختبر عند وفاة الرسول بدعم قوي من عمر، وكان من أوائل المهتدين إلى الإسلام ويحتلّ بكل مزايا القائد بالفطرة. وحين حضرت الوفاة أبا بكر، لقيت خلافة عمر قبولاَ عاماً. وخلال فترة حكمه التي دامت عشر سنوات، أخذت الدولة الإسلامية بالتشكل. كذلك بدأت تظهر في عهده التّوترات والمنازعات الناجمة عن الفتحاحات، وذلك حول تقاسم الغنائم ومكانة زعماء القبائل في النظام الإسلامي الجديد. وقد بقي هذا التّوتر تحت السيطرة بفضل حكم عمر الذي اتسم بالصرامة والطهرانية، إلا أنه لن يلبث أن يتفجر على نحو فاجع إبّان عهد خلفه، عثمان، الذي اغتيل في المدينة على أيدي مقاتلين ساهطين عاتدين من مصر والعراق. فبالرغم مما عُرف عن عثمان من التزام شديد بالدين الجديد، وهو الذي كان من أوائل الداخلين فيه، لطالما ارتبط اسمه بعشيرة بني أميّة في مكة، التي عارضت في الأصل رسالة محمد. فقد اتهم بمحاباة أبناء عشيرته على حساب مسلمين أكثر تقوى وصلحاء منهم. وقد تكوّن هؤلاء حول علي بن أبي طالب، ابن عم الرسول وأقرب أنسابه الذكور من الأحياء، الذي رأى بعض أتباعه أنه الشخص المختار أصلاً لخلافة الرسول، والذي تنبأ الآن سدة الخلافة فعلاً. غير أن إغفاق علي في معاقبة قتلة عثمان حمل الثّنين من أقرب صحابة النبي محمد، وهما طلحة والزبير، على شق عصا الطاعة بدعم من عائشة. ولئن هزم عليّ هذين الرجلين، إلا أنه لم يتمكّن من التغلب على نسيب عثمان، معاوية بن أبي سفيان، وإلى بلاد الشام، في معركة صفين وقراره الأخير بالسعي إلى إجراء تسوية مع معاوية، أثار تمرداً في صفوف أشد أنصاره تشدداً وكفاحية. أولئك الذين عرفوا فيما بعد باسم «الخوارج». صحيح أن علياً أنزل هزيمة نكراء بالخوارج في تموز/يوليو 658، إلا أنه كتب اليقاه لعدد كافٍ منهم لمواصلة الحركة إلى يومنا هذا. وإن في

لطالما أبدى أباطرة الغول وذرّتهم عبادة ثابتة بتاريخ دينهم وحكمتهم. وقد تجلّى ذلك في مذكراتهم ورسومهم على السواء بحلول منتصف القرن السابع عشر. كان الفنانون التابعون للأميراطور جيهانغير قد طوّروا تصميمات تصويرية يظهر فيها حكيماً أو وليّاً على الأقل وقد اقتعدوا بساطاً يتناقشون فيها بينهم لم يتورع فنّانو الحقيقة المغولية عن تصوير أولياء خرافيين من الماضي كما لو أنّهم بعد أحياء الشخصيات البادية في هذا الرسم تمثّل الاتجاه السلفي وحده النرويجي حارس الرأس إلى يسار الصورة يمثّل الخروج عن «الخط المألوف»



## الخلافة العباسية في ظل هارون الرشيد

على البيزنطيين (الروم)، أجبرتهم على البقاء في وضع دفاعي حرج. لدى توبته سنة الخلافة في العام 786، أقام هارون علاقات دبلوماسية مع شارلمان (ح 742-814) ومع أمبراطور الروم. كما أنشأ صلات دبلوماسية وتجارية مع الصين.

كثيراً ما يُشار إلى حكم هارون الرشيد على أنه «العصر الذهبي»: أي حقبة من النشاط الثقافي والأدبي الفائقة الأهمية، ازدهرت خلالها الفنون،

والنحو العربي، والآداب والموسيقى بفضل رعايته لها. هذا ويبرز الرشيد كأجلى ما يكون البروز في العمل الأدبي الشهير: «ألف ليلة وليلة». ومن بين جلسائه وسُمّاره، نذكر الشاعر أبا نواس (ت 815)، الذي عُرف بغمرياته وغزلياته، والموسيقي إبراهيم الموصلي (ت 804) وكان أبو الحسن الكشائي (ت 806)، معلم الرشيد ومؤدّب أولاده، وجهاً مرموقاً بين النخبة العرب ومقرّبي القرآن في عهده. وفي عهده أيضاً، نقلت بعض النصوص الكلاسيكية من اليونانية والسريانية وغيرهما إلى العربية.

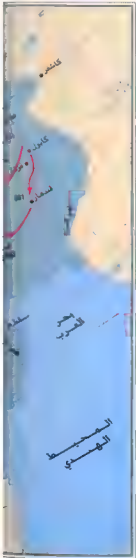
واشتهر هارون بهباته السخية فكانت قصيدة مُحكمة النظم قيمة بأن تُكسب صاحبها فرساً أو صُرّة ذهب أو حتى عزة بحالها. كذلك عُرفت زوجته زبيدة بحمل البرّصنوع الخير، ولاسيما وقفها وراء حفر عدد كبير من آبار



ثمة إجماع على أن فترة حكم الخليفة هارون الرشيد (ن 764-809) تُمثل ذروة الفتوحات العسكرية والتوسّعات الإقليمية في ظل الدولة العباسية، حيث امتدت الخلافة من حدود الهند وآسيا الوسطى إلى مصر وشمال إفريقيا

برز هارون الرشيد من خلال ارتقائه الصفوف كقائد عسكري قبل تسلّمه مقاليد الخلافة من أخيه المغفور، الهادي (ح 785-786)، كما عمل والياً على عدد من الأمصار، منها إفريقية (تونس حالياً)، ومصر، وسورية، وأرمينية، وأذربيجان. وحمالاته العسكرية

صورة تُمثلُ هارون الرشيد يعلب عليها الطابع الروماني للفن التاسع عشر، ويظهر في خلفية الرسم مسجد على الطراز العثماني كان إحياء الخلافة الإسلامية من جانب سلاطين بني عثمان خطوة يُراد منها تحويلهم حق رعاية المسلمين في البلدان الأوروبية، وذلك لموازنة الحقوق المُدعاة من طرف هذه الأخيرة على رعايا السلطان من المسيحيين







## انتشار الإسلام، والشرع الإسلامي، واللغة العربية

الأدبية نفسها. وفي حين سيطرت العربية على اللهجات المحلية في الولايات الغربية، ظلت الفارسية قيد التداول في الولايات الشرقية، وقد شهدت هذه الأخيرة نهضة أدبية كبرى في القرن العاشر الميلادي بظهور لغة جديدة هي مزيج من العربية والفارسية، ما لبثت أن سادت إيران بأسرها، فضلاً عن بلاد ما وراء النهر وشمال الهند.

وتم موضوع ظل يطرح نفسه المرة تلو الأخرى في تلك الحقبة التكوينية من الفكر الإسلامي، وأعني به العلاقة ما بين الوحي والعقل، التي غالباً ما التمت بالحدّة والتشجّع. في عهد الخليفة العباسي المأمون (ح 813-833)، خرجت إلى حيز الوجود مجموعة من المتكلمين (علماء العقائد) عُرفوا بـ«المعتزلة»، كانوا قد تشبّعوا بأعمال الفلاسفة الإغريق وتجنّبوا الأسلوب العقلاني في الجدل والحجاج الذي يُساري ما بين الله والعقل المحض. بالنسبة للمعتزلة، العالم الذي خلقه الله إنما يسير وفق المبادئ العقلية التي يستطيع البشر إدراكها عن طريق أعمال العقل. وحيث إن البشر كانتات حرة، فهم مسؤولون أدبياً عن أعمالهم. ولما كان للخير والشر كليهما قيمة جوهرية، فإن العدالة الإلهية محكومة بنواميس عامة، كونية. كان المعتزلة من أصحاب الرأي القائل إن القرآن «مخلوق» في الزمن، وقد أوحى به الله لمحمد، لأنه لیس جزءاً من جوهره. أما خصومهم من «علماء الحديث»، فكانوا يُصيرون على أن القرآن «غير مخلوق»، بل هو أزلي تماماً مثل أزلية الله نفسه. كما كانوا يرون أن ليس من شيمة الإنسان أن يشك في مشيئة الله أو يتحرّرها بصورة عقلانية، بل إن أعمال الإنسان كافة محكومة بالقضاء والقدر في النهاية. والنظرة المعتزلية هذه، التي زادت «المحنة» (محنة خلق القرآن) قوة على قوة، فرضت نفسها فترة من الزمن. غير أنها ما لبثت أن تراجعت في عهد الخليفة المتوكل (ح 847-861)، بفضل الضغوط الشعبية المعتركة على الشخصية البطولية لأحمد بن حنبل (ت 855)، الذي تحمل كل صنوف السجن والتعذيب دفاعاً عن الرأي القائل بلا مخلوقية القرآن. وقد أمكن التوصل إلى حل وسط بين

عمل الانتشار السريع للإسلام بمثابة قوة تغييرية هائلة في العالم القديم. فما إن انتهى عهد عمر بن الخطاب (ت 644)، حتى كانت الجزيرة العربية بأكملها قد تم فتحها، ومعها معظم أراضي الأمبراطورية الساسانية، علاوة على الأقاليم السورية والمصرية من الأمبراطورية البيزنطية. وفي أعقاب موقعة كربلاء المأساوية، التي انتهت بمقتل الإمام الحسين (680)، بدأت مرحلة جديدة بقيام الأمبراطورية الأموية (681-750)، التي امتد سلطانها في نهاية الأمر من نهر إبرو في إسبانيا إلى نهر أوكسوس (جيهون) في آسيا الوسطى. وإذ بسطت على هذا النحو سلطتها الشاملة على بلاد مترامية الأطراف، اتخذت السلالة الأموية من دمشق عاصمة لها، وبقيت علمياً من دون أي تحدٍ لسلطانها إلى حين صعود الخلافة العباسية وعاصمتها بغداد (749-1258). وفي حين بقيت إسبانيا (الأندلس) تحت الحكم الأموي (756-1031)، قامت قوى إقليمية جديدة بالتصدي للهيمنة العباسية، كالفاطميين في مصر (909-1171)، والسلاجقة في إيران والعراق (1038-1194). وقد توافقت كل ذلك مع موجات من الغزاة للصليبيين خربت الشرق.

لقد ازدهرت مدارس وتيارات عديدة في الفكر، مثل مذاهب الاجتهاد السنية (الحنفي، والمالكي، والشافعي، والنبلي)، والمذهب الشيعي «الإثني عشري» المتحدّر من إمامة عليّ (ت 661). كذلك طبع فوران النشاط الفكري ظهور تياراتٍ المعتزلة والأشعرية في مناهج «علم الكلام»، ونضج الفلسفة والعلم والتصوّف. وقد تأسست العديد من مراكز التعليم المرموقة، واقتترنت بإنتاج غزير للمخطوطات، نذكر منها: الأزهر في القاهرة، والزيتونة في تونس، والقرويين في فاس، وحلقات قرطبة في الأندلس، وحوارات النجف وكربلاء في العراق، وحوارات قم ومشهد في إيران.

وبوصفها لغة القرآن، انتقلت العربية إلى المتأسلمين الجدد، وبصيرورتها اللغة المشتركة للإسلام القروسطي، تجلّت أوجه تفوّقها في سائر حقول الثقافة العالية، من المجال الديني إلى القانوني، ومن المجال الديواني إلى الفكري، وصولاً إلى الأساليب



الوحي والعقل في أعمال أبي الحسن الأشعري (ت 935)، الذي كان يلجأ إلى استخدام طرائق عقلية دفاعاً عن فكرة عدم خلق القرآن، ويقبل بتدريج معين من مسؤولية البشر عن أفعالهم. بيد أن هزيمة المعتزلة كانت لها ذيول بعيدة المدى: فقد بطل بعد الآن أن يكون الخلفاء أصحاب الكلمة الفصل في أمور العقيدة. واعتنق التتار السائد في علم الكلام السني نظرية الأمر على صعيد الأخلاق: أي أن عملاً ما يكون صائباً لأن الله أمر به: والله لا يأمر به فقط لأنه صائب والمعتزلية اصطلاحاً نال على الفساد والاعتساف في نظر الكثر من الإسلاميين المحافظين، ولاسيما في المملكة العربية السعودية، ممن يأخذون بالمذهب الحنبلي في الشرع

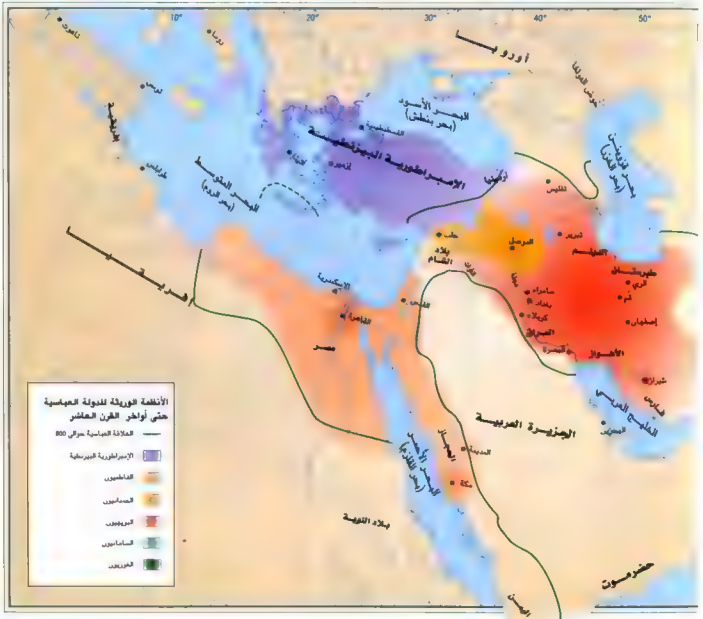
صحن الجامع الأزهر في القاهرة أسسه الفاطميون الطيبة عام 970م. لكنه صار فيما بعد أهم مركز للدراسات الفقهية السنية وينبوعاً غزيراً للمخطوطات.



والأمان الذي يتمتع به الجميع في الأنفس والممتلكات جميعاً

غير أن التوترات السياسية والدينية كانت ما فتئت مستفحلة في عقد دار الأمبراطورية. فالنزاع على الخلافة بين ولدي هارون الرشيد، الأمين والمأمون، انفجر احتراقاً أهلكاً دام قرابة عقد من الزمن، مما فتى في عهد الجيوش العباسية وأوهن مؤسسة الخلافة

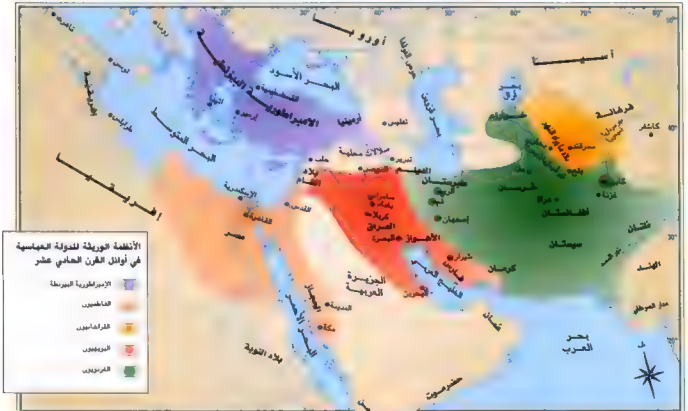
المتزمتون، المعتصمون بمبدأ انتخاب الإمام أو الخليفة، أقاموا لأنفسهم دويلات مستقلة في كل من واحة ورجلة وتاهرت وسجلماسة. وعن مدينة تاهرت التي دمرها الفاطميون في القرن العاشر، كتب الإخباري ابن الصغر يقول: «ما من غريب توقف فيها إلا واستوطنها وبني فيها، مأخوذاً بالحبوحة الضافية عليها، وعدل إمامها، وحفانيته تجاه البرية،



على بناء طبقة من مَلَكَ الأراضي على حساب الحكومة المركزية. وفي إيران والولايات الشرقية، أقام طاهر [بن الحسين بن مصعب]، أكفأ قَوَاد السامون العسكريين على الإطلاق، حكماً وراثياً. وبغية التصدي لقوة السامريين، عوّل خلف السامون، الخليفة المعتمد، وبشكل متزايد على المرتزقة المجندين من القبائل الناطقة بالتركية في أسوأ الوسطى - هذه الممارسة التي عجلت بتفكك الدولة العباسية وظهور سلالات قبلية حاكمة بحكم الأمر الواقع. ولعلّ بناء عاصمة جديدة للدولة في سامراء زاد في عزلة الخليفة عن رعاياه. ولم تحل نهاية القرن العاشر إلّا وكان الخلفاء العباسيون ملوكاً بالاسم فقط، يتحدثون شرعيتهم مطالبين بالحكم لذرية عليّ. وأشدّ هؤلاء تطرّفًا وجذريةً، وهم القرامطة، لم يألوا جهداً في إنكسار نار الثورات الفلاحية والبدوية في العراق وبلاد الشام

نفسها. ولكن كسب السامون الحرب، إلّا أن محاولته فرض عقيدة المعتزلة القائلة بـ «خلق» القرآن، واجهت مقاومة عنيفة من جانب العلماء الشعبيين المتحالفين حول أحمد بن حنبل. في عُرِف هذا الأخير، الذي كان يؤمن بأن النصّ الإلهي «غير مطوق»، لا بل ويتّصف بـ «القديم»، من شأن العقيدة القائلة بعكس ذلك أن تنتقص من فكرة أن القرآن كلام الله. لذلك كان ابن حنبل وأتباعه ينظرون إلى القرآن والحديث على أنهما المصدر الوحيد للسلطة الدينية، وهم دون سواهم المؤهلون لتأويلهما. أما الخليفة، فهو في نظرم مجرد منفذ لإرادة الجماعة وليس مصدرًا لإيمانها.

ومثلما ضعفت سلطة الخليفة الدينية، كذلك تراخت قبضته السياسية والاقتصادية. ففي المناطق الزراعية كالعراق، عمل نظام الإقطاع (أو الزراعة الخراجية)



ممتلكاتهم مع قبيلة الكراكلة التركية بزعامة السُلالة القرخانية، وقد بذل محمود قصاره لحصرها في حوض نهر جيحون في الشمال. كذلك عبر محمود نهر السند حيث أرسى لنفسه حكماً دائماً في البنجاب، وراح يشن غارات على شمال غربي الهند، ناهباً المدن ومُحطماً العديد من الآثار الفنية بحجة أنها «وثنية». وهذا ما أكسبه سمعة مخوفة كغزاة للكفار، وعلى جبهته الغربية. في أراضي «الإسلام القديم»، دحر محمود البويهيين حتى تخوم العراق تقريباً.



محمود الغزنوي [يمين الدولة] يعبر نهر الفاتح. حطى الغزنويون، وكانوا ولاية عسكريين أفراكا، بشهرة طائلة في الأزمنة المتأخرة باعتبارهم أول من أدخل سلطان المسلمين إلى الهند. الرسم مأخوذ من «جامع التواريخ» للوزير رشيد الدين، المصنف في مطلع القرن الرابع عشر ميلادي.

والجزيرة العربية باسم «مخلص» يتحدّر من نسل عليّ عبر سليلة إسماعيل بن جعفر. وفي عشرينيات القرن العاشر الميلادي، أصاب الفرامطة الذين خلقوا دولة مستقلة لهم في البحرين، العالم الإسلامي كله بالصدمة والذهول عندما نهبوا مكة ونقلوا معهم «الحجر الأسود». وفي عام 989، انتزعت مصر، وكانت شبه مستقلة تحت حكم ابن طولون وخلفائه الأخشيديين، من جانب الفاطميين الإسماعيليين الذين أقاموا خلافة يتولّاها «إمام هي» من نسل علي وإسماعيل. وفي شمال سورية وأعلى نهر دجلة، حكمت أسرة بني حمدان العربية البدوية – وكانت هي الأخرى من الشيعة – دولة شبه مستقلة، وفي بعض الأحيان مستقلة بالقمام. وفي خراسان وبلاد ما وراء النهر، حلّ السامانيون محل الطاهريين كمدافعين عن الثقافة العالية العربية – الفارسية في وجه القبائل البدوية المتكاثرة. وحتى في قلب الأمبراطورية نفسها، أي في العراق وغرب إيران، كان الخلفاء العباسيون سجناء فعليين للبويهيين الشيعة، وهم عشيرة محاربة من الديلم كانت تستوطن جنوبي بحر قزوين.

وفي آسيا الداخلية، حيث أسس السامانيون عاصمة مزدهرة في بخارى، أفسد اعتناق القبائل الناطقة بالتوركية الإسلام على السامانيين دورهم كغزاة. كان هؤلاء محاربين أشداء عهد إليهم بالدفاع عن حدود الإسلام من تعديبات البدو الزحل. لكن تجنيد المحاربين بالاسترقاق، المعروفين بالمعاليك أو الغلمان، من سكان المناطق الجبلية أو القاحلة، عجل في تفكك أوصال الأمبراطورية وحينما تداعت السلطة في المركز، تنطج المعاليك إلى إنشاء «سلالاتهم الرقوية» الخاصة بهم. وهكذا شرع

الغزنويون – الذين حلوا محل سادتهم السامانيين السابقيين في خراسان – بالعمل جنوداً مسترقين في منطقة غزنة الحدودية إلى الجنوب من كابول. وحين انهيار حكم السامانيين عام 999، قام محمود الغزنوي (ح 998-1030)، وهو ابن والرمز الأرقاء، بتقاسم

## العصر السلجوقي

اليوهيين عام 1055، آلت بغداد إليهم، حيث قام الخليفة العباسي بتتويج زعيمهم طغرلوك سلطاناً، اعترافاً منه بسلطته العليا. وفي مقابل هذا الاعتراف

بالرغم من كل التحديات التي واجهت سلطة الخلفاء العباسيين وفقدانهم المنعة العسكرية والسلطان السياسي الفعّال، إلا أنهم احتفظوا بهيبة كبيرة واعتبار لا يستهان به في أعين معظم أهل الأمصار والعديد من القبائل باعتبارهم الورثة الشرعيين للنبي محمد ورأس جماعة المسلمين. لقد ساعد تقسيم العالم إلى «دار الإسلام» و«دار الحرب» على انتشار الإسلام وتوسّعه في اتجاهين، اتجاه طارد بعيداً عن المركز، وآخر جاذب نحو المركز. حين كانت القبائل تتقبّل الإسلام من خلال احتكاكها بالتجار والعلماء المسلمين أو بالمتمسّوة الجوالين، كان الخلفاء يميلون إلى إضفاء الشرعية على حكمها، فيعيّنون زعماءها ولاة على مناطقهم. والدخول في الإسلام عمل على تمدن الأقوام البدوية والرعيّة بإخضاعها شكلياً - وإن ليس دائماً في الممارسة - للشرعية، مما قلّص الفجوة الثقافية بين سكّان البوادي والسهوب من جهة، وسكّان المدن والأمصار من جهة أخرى. وكم من مرّة صارت القبائل الداعلة حديثاً في الإسلام من كبار بناء ورعاة الثقافة العالية الإسلامية، مطلة بالفرن والعلماء والأدب. لكن الدخول في الإسلام صعب، في الوقت عينه، على الحكّام أن يدافعوا حتى عن قلب العالم الإسلامي في وجه غزوات وتعدّيات البدو الرُحّل، طالما أن هؤلاء لم يعودوا بعد الآن في عداد الكفّار، وبالتالي فقدّ الجهاد (أو «الحرب المقدسة») ضدهم كل أسبابه الموجبة.

وثمة مجموعتان من الشعوب الناطقة بالتوركية، وهما الأتراك الكراكية والأتراك الغزّة (الفرّ)، أسستا دولتين كان لهما إسهامهما الكبير في هذه السيرة. ففي بلاد ما وراء النهر، قبلت السلالة القرخانية بالسلطة الصورية للخلفاء العباسيين، وأضحت راعية لثقافة تركية جديدة مستمدة جزئياً من النماذج العربية والفارسية. وبعد إنزال الأتراك الغزّة، بقيادة الأسرة السلجوقية، الهزيمة بالغزنويين، بسطوا سيطرتهم على خراسان، واضعين بذلك الحجر الأساس للإمبراطورية السلجوقية. وفي أعقاب دحرهم



في أعقاب التقدّم السريع الذي أحضره السلاحفة داخل بلاد الأناضول، انشد هؤلاء من قونيا (إلكنونوم سابقاً) عاصمة لهم. هذه اللوابة ذات الزخرفة البديعة لمدرسة «إينجه ميناره» دليلٌ واضحٌ على الزّاء الاستثنائي للطرز السلجوقي في العمارة. والمئذنة البيضاء التي اشتقت منها المدرسة اسمها، دُمّرت جزئياً حين ضربتها إحدى الصواعق عام 1900









يقاوموا كل محاولات امتصاصهم داخل صفوف النُخب الأصلية. وظلّوا في الأغلب الأعمّ يشكلون شريحة أرستقراطية من جيل واحد، لا تجمعها أواصر القربى ببقية المجتمع المصري.

وقد تطوّر نظام الاسترقاق العسكري في اتجاه مختلف نوعاً ما في ظل العثمانيين. فاعتباراً من أواخر القرن الرابع عشر، بدأ السلاطين يوازنون قوة الخيالة السباهية في جيوشهم الخاصة، المجدّدين أساساً من إقطاعات الفلّاء والأشراف أو المتطوعين كمرتزقة من عشائر البدو العربية والمكردية والناطقة بالفارسية، بتشكيلات عسكرية من المشاة عُرف أفرادها من العساكر الجند بد الإنكشارية. المجدّدين غالباً من الولايات العثمانية المسيحية في البلقان، فكان

من يدي آخرين - وبمعنى آخر: «تحويل الذئاب إلى كلاب رعيان» - قائمة في كل أرجاء العالم الإسلامي، من المغرب إلى وادي السند.

ونظام الاسترقاق العسكري هذا بلغ ذروة اكتماله في مصر، البلد الكثيف السكان من الفلاحين والمفتقر إلى أية طبقة عسكرية أصلية من صُلبه. وقد تأسس هذا النظام في مصر بنجاح مُطلق، حتى إن حكم المماليك دام ما يربو على قرنين ونصف القرن (1250-1517)، وعاد وظهر ثانية، وإن في شكل معذل، في ظل العثمانيين (1517-1811). وحيث إن المماليك المصريين كانوا يسوّون النقص الحاصل في صفوفهم باستمرار من الخارج (بدايةً من الأتراك الكيبيتشاك ثم لاحقاً من الشركس في القوقاز)، فقد استطاعوا أن



التجنيد، المعروف به «الدفرمة» (ضريبة الدم بالتركية)، يجري في القرى والداكر كل أربع سنوات مرة تقريباً. في حين كانت المدن والبلدات مغطاة من ذلك، لا اعتبارهم أبناء المدن والواضر متعلمين أكثر مما ينهي أو غير أشداء جسدياً بما فيه الكفاية. فكان يقع الاختيار على الفتيان ممن تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والثامنة عشرة (وإن أفادت بعض التقارير عن تجنيد صبوة دون الثامنة من عمرهم). ولما كان الرجال المتزوجون مستثنين من التجنيد، فقد كان الفلاحون الأرثوذكس يلجؤون في كثير من الأحيان إلى تزويج أولادهم وهم بعد صغار السنّ للتهرب من أخذهم إلى العسكرية. والفتيان الذين يتم انتقاؤهم من بين البقية (وتصل نسبتهم إلى 20 بالمئة)، كانوا يعطون هوية إسلامية ويُدربون على فنون القتال، مع اختيار أبرعهم وألمعهم لخدمة السلطان شخصياً. ومن موقعهم هذا، كثيراً ما كانوا يرتقون الصفوف ليهتدوا حكاماً للأمبراطورية نفسها. وإذا كان التجنيد الاسترقاقي قد توقف منذ أربعينيات القرن السابع عشر، إلا أن ظاهرة الإنكشارية لم تعرف الانحسار بفضل التحاق المزيد من الصبية المولودين مسلمين هذه المرة بصفوفهم. وبالنظر إلى ما كانوا يتمتعون به من مصالح تجارية لا يُستهان بها، وما يتفاوضونه من رواتب ومعاشات قاعدية من خزينة الدولة، فقد تحول الإنكشارية إلى نخبة ذات امتيازات، مستبذة ومساندة لكل تغيير. في عام 1826، استخدم السلطان محمود الثاني قوته العسكرية المكونة حديثاً للإجهاز على معظم هؤلاء الإنكشارية أثناء تجمعهم للفتيش في استنبول.

عزمٌ لسرايا الإنكشارية بكامل بهارجهم وثيابهم الموشاة بالذهب أثناء أحد الاستقبالات في بلاط السلطان. والإنكشارية المجهزون أسلاً من نصارى البلقان، صاروا قوة تُحسب لها حساب داخل الدولة. وقد خطر السلطان مصود الثاني تشكلات الإنكشارية هذه عام 6281 كجزء من برنامجه التحديثي





## الدولة الفاطمية 909 - 1171

تأسست الخلافة الإسماعيلية الشيعية للفاطميين في إفريقيا بالمغرب، عندما قبلت عشيرة بوكاتمة البربرية اسماء أبي عبدالله المهدي بأنه السليل الشيعي لعلّي وقاطمة، وتارت على الأغالبة في العام 909. وبحلول عام 921، كان المهدي قد استقرّ في عاصمته الجديدة، مدينة المهديّة، الواقعة على ساحل إفريقية. وبوصفهم ورثة الأغالبة، ورث الفاطميون كذلك أسطولهم البحري وجزيرة صقلية. وفي أواخر عهد المهدي (ح 909-934)، امتدت الدولة الفاطمية من الجزائر وتونس الحاليّين إلى ساحل طرابلس في ليبيا. بنى الخليفة الفاطمي الثالث المنصور (ح 946-956) عاصمة جديدة سُميت على اسمه: «المنصورية». وظلت المنصورية الواقعة بالقرب من صبرة إلى الجنوب من القيروان، عاصمة للفاطميين من عام 948 إلى عام 973.

إلا أن الحكم الفاطمي لم يتوطد على وجه الروح في شمال إفريقيا إلاّ إبان سلطة العضو الرابع من السلالة الحاكمة، المعزّ لدين الله (ح 953-975)، الذي حول الخلافة الفاطمية من مجرد قوة إقليمية محليّة إلى أمبراطورية كبرى، فقد نجح في إخضاع المغرب بأسره، فيما عدا صبرة، قول أن ينصبّ اهتمامه على فتح مصر، وهذا ما تمحقّ له في العام 969. فأقيمت عاصمة فاطمية جديدة خارج الفسطاط، وقد دُعيت في البدء «المنصورية»، إنما أعيدت تسميتها بـ«القاهرة المعزّية»، أي مدينة المعزّ الظافرة، عندما تسلّم الخليفة عاصمته الجديدة في العام 973. وأضحى توسيع رقعة السلطة الفاطمية لتشمل بلاد الشام الشغل الشاغل لولد المعزّ وخلفه، العزيز بالله (ح 975-996). وفي نهاية عهده، تمكّنت الدولة الفاطمية من بلوغ اتساعها الأقصى، أقلّه من الوجهة الاسمية، مع الإقرار بسيادة الفاطميين من المحيط الأطلسي وغرب المتوسط غرباً، إلى البحر الأحمر والصحار وسورية وفلسطين شرقاً. وفي عام 1038، مدّ الفاطميون نطاق سلطانهم إلى إمارة حلب شمالاً.

في عهد الخليفة المستنصر بالله المديد (ح 1036-1094)، دخلت الخلافة الفاطمية طور الانحطاط. فقد خسرت شمال بلاد الشام إلى الأبد في العام 1080. آنذاك كان الفاطميون يجابهون الخطر المتعاظم

الدولة الفاطمية والنول الإسلامي  
الأخرى حوالي 1000

- دولة الفاطمية حوالي 1000
- عقالات الفاطمية في تونس
- دولة القباية حوالي 900
- مدن كبرى



للأتراك السلاجقة، الذين كانوا في صدد إرساء الدعائم لدولتهم الجديدة في العام 1071، صارت دمشق عاصمة لأتابكية سورية وفلسطين الجديدة التابعة للسلاجقة ولم ينتخب عهد

قصعة خزفية من القسطنطينية (القاهرة)، تعود إلى القرن العاشر - الحادي عشر ميلادي. هذا الإناء الخزفي المطلي بطلاء لامع، مزوّن بموتيفات فاطمية نموذجية، كالأزب الطاهر في وسط القصعة والمهايات



المتنصر بالله إلا ولم يبق في أيدي الفاطميين من ممتلكاتهم في سورية وفلسطين سوى عسقلان ويضع مدن ساحلية من بينها عكا وصور ويحلول عام 1048، قام الزيريين، الذين استغلهم الفاطميون في حكم إفريقية، بالانفصال عنهم وأعلنوا القطية للعباسيين. وفي العام 1070، حين خسروا صقلية لصالح النورماندين، صارت برقة الحد الغربي للدولة الفاطمية، التي ما لبثت أن انحصرت فعلياً داخل حدود مصر وحدها. أما عسقلان، وهي آخر موطئ قدم فاطمي في سورية وفلسطين، فقد انتزعتها منهم الفرنجة عام 1153. وانتهى حكم الفاطميين في العام 1171، يوم أعلن صلاح الدين الأيوبي، وكان آخر وزير فاطمي بعيد بسط سيطرته على مصر، الخطية للخليفة العباسي فيما كان الخليفة الفاطمي الأخير، العاضد لدين الله (ح 1160-1171) يُعاني سكرات الموت في قصره.



## طُرُق التجارة ن 700 - 1500

الأمبراطورية حمل معه تدهوراً اقتصادياً في بعض المناطق، مع قيام السلالات الحاكمة المتنافسة برفع ميزانيتها عن طريق فرض المزيد من الضرائب والرسوم، إلا أن الوتيرة التي سُجِّبت بها مثل هذه الخطوات بوصفها تدابير غير مشروعة، وجائرة وغير عادلة، إنما تدل على المزاج العام، الذي ظل محابياً للنشاط التجاري حتى وإن كانت الظروف السياسية غير مؤاتية له.

كان من نتيجة الفتح العربي في بادئ الأمر جمع طريقين للتجارة البحرية - واحد عبر الخليج والثاني عبر البحر الأحمر - ضمن سوق واحدة قائمة على شريعة ولغة وعملة مشتركة. في العصر العباسي، كان الطريق المفضل للبضائع الآتية من شرق آسيا وجنوبها إلى المتوسط هو مجرى نهر دجلة صعوداً حتى بغداد، أو مجرى الفرات وصولاً إلى أيسر وسيلة نقل إلى حلب، ومنها إلى مرفأ سوري كزنطكية. وكانت المدن الواقعة على امتداد هذه الطرق تعتمد في معيشتها على تبادل البضائع.

كانت مدن بلاد ما بين النهرين تمتص السلع الكمالية الآتية من الهند والصين؛ فكانت هذه بُعاع في الأسواق إلى جانب السلع الضرورية، مثل الحبوب والوقود والأخشاب وزيت الطهي. كما كانت بلاد ما بين النهرين المصلة الأولى على الشط التجاري الرئيسي المتجه نحو الصين والهند، وكذلك شمالاً نحو حوض الغولغا وأراضي أوروبا الشرقية المروية جيداً، منبع الفراء والكهرمان والسلع المعدنية والمديوعات الجلدية. في الفترة المبكرة، كانت السفن الإسلامية المنطلقة من موانئ كالبيصرة أو هُرمز تقطع الطريق بطوله إلى الصين، وتعود من هناك بعد سنتين أو ثلاث محملة بالبضائع كالحرير والغرف الصيني والنشب وسواها من الأشياء النفيسة. لكن مع ازدياد التجارة تعقيداً وتكلفاً، لم يعد التجار يتعاملون مباشرة مع غوانغزو (كانتون) وهانغزو في الصين، بل صاروا يقتنون البضائع الصينية من موانئ في جاوه وسومطرة أو على ساحل مالبار.

أما التجار المسلمون من المغرب فكانوا ينشطون في تجارة الذهب، التي أخذتهم عبر قبافي الصحراء الكبرى إلى مدن الساحل، مثل تمبوكتو وغاو وما بعدها إلى مناجم الذهب في غرب إفريقيا. وسلسلة المراكز

يقال إن النبي محمد كان يُسافر إلى خارج الجزيرة العربية طلباً للتجارة؛ وقيلته قُريش، التي قادت الفتوحات العربية، كانت من بين أوائل التجار في الجزيرة العربية. وقد ظلّ التجار موضع تقدير واحترام، وكثيراً ما كانوا يُصاهرون عائلات العلماء الذين يحظون بدعمهم على مهنة وتقنيات توقف على مؤسستهم التعليمية. إن الأعراف الإسلامية تحدت النشاط التجاري، فالمساجد غالباً ما تكون في جوار الأسواق. ولكن كان يوم الجمعة مُكرساً للصلاة الجامعة، فهو لم يتكرس عطلة رسمية إلا في أزمرة متأخرة فحسب. كانت الأسواق تفتح قبل صلاة الظهر وبعدها. وحين إن معظم السكّان الذكور متجمعون في المدينة، فقد كانت أيام الجمع ملائمة جداً لتعاطي التجارة. وكذلك الأمر بالنسبة للحج أو العمرة في مكة، حيث يأتونها المسلمون من أقاصي الدنيا ليلتقوا بعضهم بعضاً، فكانت هذه المناسبات هي الأخرى عامل تسهيل لأمر التجارة. كان التجّار يؤمنون بنفقات رحلتهم الطويلة والشاقة (التي ربما كانت تستغرق من المدة نصف عمره في الأزمنة القديمة)، عن طريق تبادل السلع فيما بينهم، أو من خلال صنع بعض المشغولات الحرفية. كما كان التجّار يلتحقون بقوافل الحجيج كي يبيعوا بضائعهم في الصّحار.

إن إخضاع الفاتحين العرب مساحات شاسعة من الأراضي الساحلية لسلطة حكومية واحدة، أتاح لهم خلق منطقة هائلة للتجارة الحرة، وسهل عليهم مدّ النشاط التجاري إلى ما وراء حدود الأمبراطورية ببعيد. وقد كشفت التنقيبات الأثرية عن مدى اتساع نطاق هذه التجارة، فعثر على عدد وفير من النقود المعدنية العائدة إلى العصر العباسي في البلاد الاسكندنافية، وعلى أقمشة حريرية وأتنية خزفية صينية مطبوعة في مقابر في غرب آسيا، لم يكن التجّار المسلمون مجبرين على دفع المكوس أو الرسوم الجمركية داخل حدود الأمبراطورية. أما التجّار الأجانب الذين يدخلون ديار الإسلام، فكانوا يضمنون لنفسها من الرسوم المفروضة على التجّار المسلمين في ديارهم هم. ولعلّ النخب الجديدة التي عرفتها مصور الخلفاء، وما كانت تتطلبه من سلع مترفة وكماليات، كانت وراء تشجيع التجارة ومضاعفة حجمها. صحيح أن تفكك أوصال



كانت الطرق البرية التي تربط غرب آسيا والبحر المتوسط بشرق آسيا وجنوبها لا تقل أهمية، بأي حال، عن الطُرُق البحرية. فوجود العديد من المدن مُحاطة بالبابسة أو بعيدة عن الأنهار والمحيطات، تعيّن لزمام نقل البضائع، بما فيها السلع ذات الأحجام الضخمة، بواسطة الدواب. لذلك، كان الأمر يتطلب تخطيطاً دقيقاً وحذراً قبل انطلاق القوافل في رحلاتها الطويلة. كما كان من الضروري تأمين العلف للدواب والغذاء للمسافرين، ناهيك عن استئجار أفراد من البدو لحراسة

التجارية التي أقامها التجّار المسلمون على الساحل الشرقي لإفريقيا، مثل لامو وماليندي وجزيرة زنجبار، وصلت جنوباً حتى إلى صوفالا في موزامبيق الحالية. لقد اخترق رجالون مسلمون يخصصون بجسارة فائقة الداخل الإفريقي بحثاً عن الذهب والعبيد والمعادن والأخشاب النادرة والأحجار الكريمة قروناً عديدة قبل أن يقتفي أثرهم الأوروبيون.

وحين جعل انحسار الدولة العباسية وغزوات القبائل التركية الطُرُق التجارية عبر بلاد الشام أقل



القوافل. وفي المناطق النائية، كانت هناك شبكة من الفانات (للاستراحة والمبيت حتى صباح اليوم التالي)، والخانقانات (مهاجع للمتصوفة) توفر الطعام وحسن الوفادة. وقد شُيّد بعضها على هيئة حصون لتصد في وجه عصابات الذهب البدوية. ونظراً لطول المسافات وسط تضاريس بالغة الوعورة، زد على ذلك انهيار السلطة الإقليمية، صار بناء الطُرُق أمراً غير عملي بالمرّة. حتى في أواخر أيام الرومان، كان النقل المدواب قد اختفى أو يكاد. وبالإمكان تلمّس نتيجة ذلك في كثير من مدن غرب آسيا وشمال إفريقيا. فقبل الحصر الحديث، لم تكن سوى قلة قليلة منها تلك جادات عريضة بما يكفي لمرور الكاركات والمركبات.

أمناً، برز إلى الوجود طريق بحري يبدل يمرّ عبر البحر الأحمر ونهر النيل. كانت صعوبات جمة تكتنف هذا الطريق، حيث إنّ المسافة من خليج السويس إلى نهر النيل كانت أشدّ وعورة من المسلك المارّ عبر سورية، باستثناء فترة وجيزة أحيى فيها سلاطين المماليك ترعة قديمة كان حفرها القراعنة أصلاً. وقد جنت موانئ البحر الأحمر، مثل عدن وجدة وعذاب والمُقرّم (السويس حالياً)، فوائد جمة من هذه التجارة، وكذلك فعلت القاهرة والإسكندرية. وهكذا احتكر المسلمون التجارة في المحيط الهندي إلى حين مجيء البرتغاليين ومن بعدهم الإنجليز والهولنديين اعتباراً من القرن السادس عشر فصاعداً.

لم يخلُ القرن السادس عشر إلّا وكانت الأمبراطورية العثمانية، وعاصمتها القسطنطينية (إستنبول)، قد صارت واحداً من أهم المراكز التجارية في العالم الإسلامي. فكان السلطان، فضلاً عن بطانته ومستشاريه، أشدّ ما يكون حرصاً على الوقوف على حالة التجارة سنّة بسنة.





## الممالك الصليبية

جاءت الحملات الصليبية في زمن  
الاحتلال والتراجع الإسلامي:  
ففي الأندلس، تسالت  
النجاحات المسيحية،  
فسقطت طليطلة عام  
1085، ثم استولى  
النورمانديون على  
صقلية في العام 1091-  
1092. من الناحية  
الاقتصادية، أسفر تدهور  
أحوال الخلافة العباسية

وعزوات السلاجقة عن تحويل خط  
سبر التجارة مع شرق آسيا بعيداً عن بغداد  
والقسطنطينية. ومن خلال مرور البضائع في  
الأراضي المصرية لتتلقفها من ثم السفن للتجارة  
الإيطالية، انتعشت مدن إيطاليا أيما انتعاش. ومن  
جاء المضايقات التي كان يسببها القراصنة  
المسلمون، أقدمت بيزا وجنوى على تدمير المهديّة،  
العاصمة السياسية والتجارية لشمال إفريقيا المسلم  
عام 1087. فيها أتاح تذبذب خط الحدود بين  
الأمبراطورية البيزنطية والدولة الفاطمية قدراً لا  
يُستهان به من الاستقلالية للمدن السورية  
والفلسطينية، وهذا ما جعل من المتعذر عليها أن تتحد  
معاً لصد الغزاة. لقد فتحت هزيمة الروم في معركة  
ملازكرد عام 1071 مراعي الأناضول أمام هجرة  
أرهاب من الأتراك الغزوية لا تأثر كلها بإدارة  
السلاجقة انتاب البابا أوربان الثاني الذعر إزاء الخطر  
الذي يهدد العالم المسيحي من جانب الأتراك، وكذلك  
من جانب النورمانديين الذين دأبوا على مهاجمة  
الممتلكات البيزنطية في إيطاليا، فأمر بشن «حرب  
مقدسة» دفاعاً عن وحدة العالم المسيحي. وقد لقيت  
هذه الحركة حامزاً قوياً بفضل وعظ كاريزميين  
و شعبيين من أمثال بطرس الناسك، وكذلك بفعل  
الشعبية المتزايدة للحج إلى القدس كوسيلة لاكتساب  
الجدارة الروحية أو للفوز بالقوة والغفران على خطايا  
مرتكبة كالقتل مثلاً.

لكن الغرسان من الغرب اللاتيني، بما فيه ذلك  
إنجلترا واسكتلندنافيا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا،  
ترافقهم جيوش من الغزاة والزاعج، وهم في معظمهم  
من أهل المدن والفلاحين الذين أغرتهم الوعود بنيل





## الطُرُق الصوفية 1100 - 1900

للطُرُق الصوفية، يمثلون للإرشاد الروحي الصادر عن مشايخ تلك الطُرُق، ويستمدون من «بركتهم» منافع جمّة. وخارج ديار الإسلام، أثبتت الطُرُق الصوفية فائدتها العملية في نشر الإيمان في مناطق طرفية، مثل أرخبيل الملايو وآسيا الوسطى وجنوبي الصحراء الكبرى الإفريقية. كان الوصول إلى الإسلام النصي المعيارى المأمور عن العلماء والقائم على القرآن والحديث والفقه والتفسير، يتطلب معرفة باللغة العربية، وهذا ما كان يحدّ كثيراً من تأثيره وجاذبيته، في حين أن مشايخ الصوفية (ويُسمّون بالفارسية «السيّرة») كانوا مهرة في الارتباطات الروحية، فاستطاعوا إيصال تعاليم الإسلام شفاهاً بواسطة اللغات المحلية. كما أتاحت لهم الطقوس الصوفية السريّة المعروفة بمجالس «الذكر» (أو الحضرة) أن يطوّروا فنوناً روحية تتماشى والممارسات المستمدة من التقاليد غير الإسلامية، كالرقص الطقسي أو التحكم بالتنفس على منوال اليوغا في الهند. أما في إفريقيا، فقد تمكّن الصوفيون والمرابطون (الذين كانوا في أول أمرهم زهاداً مسلمين) من نشر الإسلام من خلال تشبيههم الآلهة أو الأرواح المعبودة محلياً بالقوى الغارقة للطبيعة كالجبان والملائكة الوارد ذكرها في القرآن. كما أمكن تكيف عبادة الأسلاف عبر إضافة بُنى قرابية محلية على أنساب عربية أو على سلاسل صوفية، في ما يُشبهه غري روحية تربط المشايخ والأولياء بالنبي محمد وصمبه. وقد وفّرت مثل هذه السلاسل، في مناطق طرفية كجبال الأطلس الأعلى، إطاراً شبه دستوري حققت من خلاله الأفضاء والبطون القبلية حدّاً أدنى من التعاون فيما بينها، مع قيام زعماء الأسر المُحاطة بهالة من القداسة بدور الوسيطاء المحكّمين في حل النزاعات الناشئة بين القبائل المختلفة. وفي كل أرجاء العالم الإسلامي، صار الأولياء من المتصوّفة (وكان ثمة نساء من بينهم من وقت لآخر) موضع تجيل شعبي يبلغ حد التقديس، لكن هذه البذعة ما لبثت أن صارت بعد حين هدفاً للمصلحين الذين اعتبروا الغلو في تجيل الوسطاء

كانت الطُرُق الصوفية ولا تزال أهم تعبير منظمّ للتعلّق بالقيم الروحية في الإسلام. إن كلمة «صوفية» (أو تصوف) مشتقة من اللفظة العربية: صوفي، أي لابس الصوف؛ ويُعتقد أنها عائدة إلى الملابس الفخينة المصنوعة من الصوف التي كان يرتديها أوائل الزهاد المسلمين، ممّن سعوا إلى إثناء ما لديهم من طاقة روحية جوّانية. وهذا ما يُعبّر عنه في بعض الأوقات بتشدن الاتحاد مع الخالق (الطول)، ويُميزهم عن سائر المؤمنين الذين يقنعون بالتقيد الشكلي بالشرعية والشعائر الدينية. وثمة بعض المريدن الأوائل، وكانوا يُدعون أحياناً بالمتصوّفة «السكارى»، قد وصلوا لديهم حالات ذهنية تقودهم إلى تجربة الفناء في الحضرة الربّانية، والقوق إلى الاتحاد وجدانياً مع الله، والألم المتأني عن الافتراق عنه، وهي الموضوعات التي يطرّفها الكثير من الشعر الصوفي.

هذا وتتخذ الصوفية «السكوى» أحياناً شكل عروض مسرفة في التهور ترمي إلى إبداء الازدراء بالجسد، من غرذ أسباح الحديد في اللحم إلى الإمساك بحيوانات غسارية... أما الصوفية «الصاحبة»، كما تجسدها تعاليم أبي حامد الغزالي (ت 1111)، فتقصر على أن السبيل إلى تحقيق الكمال الروحي إنما يقع قطعاً ضمن حدود العبادات الشرعية والطقوس الشعائرية المتعارف عليها.

وكونها حاضرة منذ بدايات الإسلام الأولى، فقد كان في مستطاع جميع الحركات الصوفية أن تدعي أنها تعود في منشئها إلى التجربة الدينية للنبي محمد واثنين من أقرب صحابته إليه، هما: أبو بكر وعلي. غير أن التصوف المنظم لم يستتب على أسس راسخة إلا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، محرّزاً تقدماً سريعاً في أسيا إثر الغزوات المغولية حين اختلّت الركائز المؤسّساتية للحياة الإسلامية على نحو خطير. داخلياً، عملت الطُرُق الصوفية على تمكين النظام الاجتماعي – السياسي بأن وفّرت للأمرء المصادر الشعبية للشرعية الدينية، وأكملت حيثيات السلطة الرسمية التي يُمثّلها العلماء. فكان العديد من الأمراء بمثابة رعاة وخمّاة

لعفيف من المتصوّفة المولويين أو  
الداراويش، أثناء تأديتهم طقوسهم  
المدوّمة التقليدية الرقص، ويُدعى  
«الدُرّ» (أي دُرّ الخالق) يحمل  
المريد على الاقتراب من الحصرة  
الريّادية، في ما يُشبه التوازن  
الدقيق بين المشوّة الروحية  
والسيطرة المنهجية على الذات  
تأسست الطريقة الصوفيّة المولوية  
على يد الشاعر والمتصوّف الشهير  
جلال الدين الرومي (1207-1273)



وإضفاء هالة من القداسة عليهم انتهاكاً لتحريم الإسلام الوثني.

وخلافاً للطعام الذين يعكسون، في العادة، إجماع الرأي لدى المتعلمين، طوّرت الطرق الصوفية منظمات ذات تراتبية هرمية تتمتع بالسلطة الروحية المتركَزة في يد الرئيس الذي يكنى بأسماء شتى، مثل: الشيخ، أو المرشد، أو السهر، أما المريدين أو المنتسبون إلى الطريقة، فهم مقيّدون بالبيعة أو يمين الولاء للرئيس أو المرشد الذي يترى على رأس مراتب متسلسلة من الصفوف داخل الطريقة، وفقاً لدرجة تسامي الحالة الروحية للمرشد. ومع أن الأنظمة السارية المفعول تختلف وتتفاوت إلى حد بعيد فيما بينها، مع انتصاف بعض الطرق الصوفية بدرجة أكبر من المصرية والانضباطية من بعضها الآخر، فإن الجمع بين التعلق بالرئيس وتكريس الذات للمصنّف ضمن الجماعة الصوفية تتيح لأتباع الطريقة أن يخطوا من أنفسهم قوة مقاتلة جبّارة. ففي القوقاز مثلاً، خاض الإمام شامل ثورة ضد الروس دامت من عام 1834 إلى عام 1839، وذلك تحت جناح مرشده الروحي وحميه السيد جمال الدين الغازي الغموي، شيخ مشايخ الطريقة الشاذلية المتفرعة عن النقشبندية. وفي شمال إفريقيا، تقدّم عبد القادر، أحد مشايخ الطريقة القادرية، الصوف في النضال ضد الفرنسيين، وكذلك فعلت الطريقة السنوسية في المقاومة ضد المحتلّين الإيطاليين (في ليبيا). لكن في مناطق أخرى، سارت بعض الطرق الصوفية في ركاب قوى الاستعمار. ففي مراكش مثلاً، وما بين أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين، قبلت الطريقة التجانية الواسعة النفوذ إعانات مالية طائلة من الفرنسيين الذين سخّروا تلك الطريقة لتعزيز مصالحهم الاستعمارية. وفي السنغال، انصرفت الطريقة المريدية التي أسسها أمادي بامبا (1850-1927) عن المقاومة لتتّبع عوضاً عنها ضرباً من أخلاق العمل قائماً على زراعة القول السوداني، مما أعاد الاستقرار إلى البلاد في ظل نظام خاضع للسيطرة الفرنسية.

وفي حالات كثيرة، أمنت الطرق الصوفية القهادة اللازمة للحركات الإصلاحية والنهضوية التي

اكتسحت العالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين. فعبارة «الصوفية الجديدة» تنطبق أحياناً على حركات تجهد لإقامة توازن ما بين النشاط السياسي «البراني» والتجربة الروحية «الجوانية»، فيما يوقّر البناء الهيكلي للطريقة الآلية الضرورية لنقل الأفكار ووضعها موضع التنفيذ. ولعل أشهر مثال على ذلك، حركة «نور خُلق» التي أسسها سعيد نورسي (1876-1960) في تركيا. كان سعيد نورسي هذا داعية وكاتباً ذا خلفية نقشبندية، وقد سعى إلى إحياء الفكر الإسلامي عن طريق دمج العلم والإيمان واللاهوت والتصوّف في صيغة جديدة من الشعار النقشبدي: «اليد تنكبّ على العمل، والقلب يهفو إلى الله». وعلى عكس جماعة الإخوان المسلمين في مصر، التي تأثرت هي الأخرى بالأفكار الصوفية، فإن حركة «نور خُلق» تعمل على وفاق قام مع الدولة العثمانية في تركيا.

استشهدت الأفكار الصوفية والممارسات التقديرية، في العقود الأخيرة، بالهجوم من جهتين: من جانب المدّثيين الذين يعتبرون الصوفية اتجاهاً رجعيّاً، ومن جانب الإسلاميين الوهابيين الذين يضعون أيديهم على العديد من المؤسسات الإسلامية بفضل الدعم المالي من المملكة العربية السعودية وغيرها من البلدان الغنية بالنفط. وإذا كانت هاتان الأجندتان مختلفتين إلى حد ما، إلا أن نتائجهما واحدة في المحصلة. لقد بدأ المدّثيون، المعتنقون أفكار التنوير الأوروبي، بالمطالبة بدين «عقلاني»، لكنهم انتهوا برفض الدين جملة وتفصيلاً. وفي ردّهم على المدّثيين، وقبّ الإسلاميون أسرى الموقف ذاته: «إما كل شيء أو لا شيء».

تتمثل الصوفية مكاناً وسطاً بين الدالة والأصولية، وهذا ما يتيح للدين أن يتكيف مع الظروف الاجتماعية المتبدّلة. ومن غير هذه القوة التوسّطية والتكيفية التي تتمتع بها الصوفية، من غير المرجّح أن يتمكّن أنصار الإسلام السياسي من النجاح في استيعاب أطراف الإسلام المنزع ضمن النظام الإسلامي «المستعاد» الذي يهفو إليه.



### الطريق الصوفيّة 1389-1146

- مقام علي مؤسس فرقة من أدم الطرق الصوفيّة
- تلاميذ صوفيّة مصرية أو إفريقية شمالية - شمالية من تلاميذ عراقية
- تلاميذ صوفيّة إيرانية وأجنبية من وسط القارة مستمدة من الجبهة والبيسطامي
- تلاميذ صوفيّة عراقية مستمدة من الجبهة

فرقة عليّة رئيسية في تطور مؤسسة الصوفيّة. ويعدّ أسلاف جميع الطرق اللاحقة إلى إحدى هذه الطرق الرئيسية. وقد سادت في مكان تأسسها، الألباني، رغم أنها انتشرت بعد عام 1900 خارج هذه المناطق، بما عدا الطريقة الدروية والقادرية والكنانية

هذه طرق صوفيّة إيرانية ذات أهمية في العام 1900، مشار إلى مؤلفها حيث تكون هي الأمر

الطريقة	الوفاة المؤسس	موقع التأسيس
السيهروردية	شهاب الدين أبو طحان عمر (1146-1234)	بغداد
الرفاعية	أحمد بن علي الرفاعي (1106-1182)	أبو عبيدة
القادرية	عبدالقادر الجيلاني (1077-1106)	بغداد
النشأوية	أبو مدين شهاب (1126-1197)	نكسنس
المدوية	أبو الحسن علي الشاذلي (1196-1258)	عنفا
الكثيرانية	مريد السيد أبي مدين، وعلي أحمد شحات هذه الطريقة الصوفيّة	خيرة
الهابسية	أحمد بن إبراهيم بن علي الهبسي (1146-1221)	تركستان
الغولانية	جلال الدين الرومي (1207-1273)	قروية
الشيخية	محمد بنو عبد الجليل الشيشيدية (1316-1369)	بغداد
النشائية	معين الدين خضر الشافعي (1142-1296)	أندلس



## الأيوبيون والمماليك

مصر بسماعه للعلماء والدارسين من مختلف المذاهب الفقهية بالعمل سوية مع ترك التعلق الشعبي بالمطالبيين (آل علي بن أبي طالب) يأخذ مجراه في مسجد الحسين، حيث يُعتقد أن رأس السبط الشهيد قد نُفِنَ هناك. ومن مصر، انطلق صلاح الدين لإخضاع بلاد الشام وأغالي بلاد الرافدين، فأعاد بذلك الحياة للدولة الموحدة في الشرق للمرة الأولى منذ العصر العباسي الأول. وفي عام 1187، توج صلاح الدين إنجازاته بانتزاع مدينة القدس من أيدي الفرنجة.

غير أن سلالة صلاح الدين، السلالة الأيوبية، لم يُكتب لها البقاء. ففي عام 1250، قُتل آخر سلطان أيوبي على أيدي جنده من المماليك الأتراك، الذين نادوا بإقائهم هم سلطاناً عليهم، مفتحين بذلك حقبة جديدة من الحكم المملوكي دامت أكثر من قرنين ونصف القرن. بعدها بعشر سنوات، أنزل القائد المملوكي اللاحق، بههرس، الهزيمة بالفزاة المغول في موقعة عين جالوت في فلسطين. وبحلول عام 1291، كان خلفاؤه قد وحدوا بلاد الشام، وطردوا الصليبيين، ووسموا حدود دولتهم إلى وادي الفرات الأعلى وأرمينيا. احتفظ المماليك بأسمائهم التركية وبحقهم المصري في ركوب الفيل واتخاذ ممالك آخرين عبيداً لهم. لكنهم كانوا على وجه العموم، لا يتزوجون إلا بمن يجلبون من نساء مسترققات. لأنهم إذا ما اقترنوا بنساء محليات أو تسموا بأسماء عربية - إسلامية، فقد يفقدون اعتبارهم واحترام أبناء جلدتهم لهم. وحين بدأ إمداد العبيد من الأتراك الكيبتشاك (وكانوا يعرفون بالمماليك البحرية) بالتصوب، حل محل المماليك الكيبتشاك الشرقي (الذين عرفوا بالمماليك البرجية). هذا ولتسبب حاول معظم السلاطين المماليك إقامة سلالات حاكمة لهم، إلا أن مساعيهم نادراً ما كان يُكتب لها النجاح، نظراً إلى أن القاصرين منهم أو الضعفاء كانوا يُعزلون على الدوام من قبل منافسين أقوى شكيمة منهم. مهما يكن من أمر، فقد أبدى المماليك إخلاصهم للإسلام بأن رعوا العلم والطرق الصوفية، وكذلك من خلال تلك الصروح المعمارية المهيبة، من مساجد ومدارس وخانات، التي أغدقوها على القاهرة بطرازها الهندسي المميز والمنطق الذي يحمل اسمهم.

أما وقد فرضت نفسها على ذلك الشطر المتشرد من العالم الإسلامي، لم تغفل الممالك الصليبية سوى أنها خلقت استجابة متضامنة ضدها. وبالعوض تتبع آثار هذا النهوض إلى استيلاء أتابك (والي) الموصل السلجوقي، عماد الدين زنكي، على مدينة حلب في العام 1128، وأبنته نور الدين زنكي، الذي حكم دمشق في الفترة 1154-1174، وطد دعائم سلطته في الشام وبلاد ما بين النهرين، وبعث بقائد كردي لديه، يدعى صلاح الدين الأيوبي، إلى مصر في العام 1169 كي يقبض على زمام الأمور هناك. وبالفعل، تولّى صلاح الدين السلطة رمزياً في مصر عندما عزل آخر خلفاء الفاطميين بعد ذلك بستين. وقد وسع صلاح الدين ودينته، الأيوبيون، من جاذبية المذهب السني في

يظهر صلاح الدين الأيوبي، في هذا الرسم لغوستاف دوريه (1884)، بوضعه النموذج الأصل للبطال الساسيني (لشرفي). كان صلاح الدين موضع إعجاب المسلمين وكذلك أعداءه الصليبيين سواء بسواء. نظراً لما كان يتحلى به من حسن رفيع بالشرف والإنسانية، وقد طارت شهرته في الغرب بفضل الرواج الواسع الذي حظيت به رواية وولتر سكوت «الملك» (1825)





## الغزو المغولي

جنكيزخان في إحدى المناسبات الرسمية وقد أحاط به أفراد حاشيته لكن بصرف النظر عما بلغه بلاطه من ترف ورفاهية، كما هو ظاهر من هذه الخيمة المغولية (البورت) ذات الزركشات والتزييفات السخية، فقد بقي هذا العان الأعظم بدويًا حتى نهاية حياته

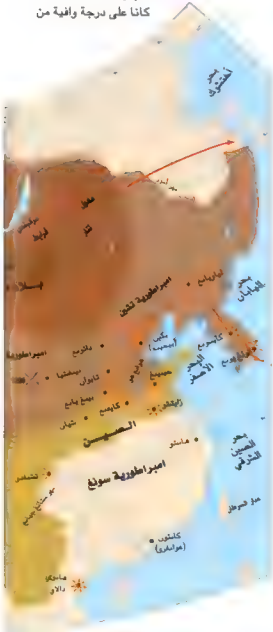


خلافاً للجوادي في الجزيرة العربية، تنصف أراضي السهوب في آسيا الداخلية بقدر كافٍ نسبياً من حاجتها إلى المياه، ومساحات واسعة من المراعي لرعي الخيول. والبدو الغيالة ممن سكنوا تلك المناطق كانوا منظمين اجتماعياً وفق خطوط مماثلة للعرب في تشكيلات قبيلة ذات طابع أبوي. وعلى شاكلة البدو العرب والأتراك أيضاً، تمكن هؤلاء من إنشاء كتلات ضخمة بما يكفي لشحن غارات ناجحة على المدن والمناطق الزراعية، فأسسوا إمبراطوريات لها وزنها بقيادة زعماء مرمعين، لعل أشهرهم أتيل، الذي عاث وجاهله من قبائل الهون نهباً وخراباً في وسط أوروبا إبان القرن الخامس. أدرك أباطرة الصين ما تمثله هذه التشكيلات الضخمة من الغزاة الممولين على سهوات الجهاد من أخطار ومخاطر، واستخدموا قواتهم لكسر شوكة هؤلاء في كل مرة وجدوا أنهم أقوياء بما فيه الكفاية للقيام بذلك. وقد شُهِد «الصور العظيم» بمثابة حاجز دفاعي لصنهم وإتقاء شرهم.

في مطلع القرن الثالث عشر، ظهر تشكيل جديد بين المغول في منطقة نائية محاذية للغابات السيبيرية بزعامة جنكيزخان (ن 1162-1227). تسم جنكيزخان، الذي عُرف بهائه الشديد وقسوته اللامتناهية، قيادة تجمع عريض من القبائل اعتباراً من عام 1206. وحين وافته المنية، كان قد سيطر على معظم أراضي شمال الصين، وبلغت جيوشه سواحل بحر قزوين. تقاسم أبناءه أجزاء إمبراطوريته، لكنها استمرت في التحدّد والتوسّع، متقلبة على ما تبقى من شمال الصين، ومكتسحة شرق أوروبا حتى تخوم ألمانيا. لكن وعلى غرار سائر التشكيلات البدوية، لم تكن هناك قواعد واضحة للوراثة. وعليه، فقد اختلف ورثة جنكيزخان وتنازعوا على «تركتهم» فأقاموا عدة دويلات مستقلة وأحياناً كثيرة متعادية، تذكر منها: منغوليا الحالية، وشمال الصين، ومملكة «القبيلة الذهبية» (المركزة في حوض الغولغا)،

وخانات جغتاي في منطقة أموداريا (جيجون)، والسلالة الإيلخانية التي غزت إيران وقضت على سلطان السلاجقة في بلاد الأناضول.

لم يكن المغول مجرد قبائل بدوية تنصف بالعنف ولا تحرف قلوبها الشفقة، بل إن نظام الاتصالات عندهم، وأطلاعهم على أحدث الأساليب والتقنيات الحربية، كانا على درجة وإفية من

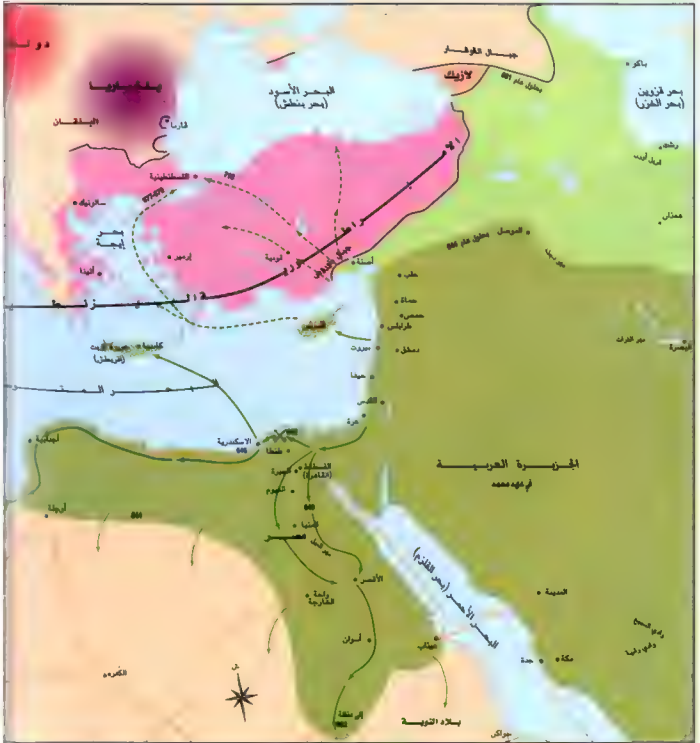


فالمؤرخ السني علاء الدين الجويني، مثلاً، واثق هولاكو في حمله على قلعة الموت، حيث دُمّر آخر معقل للإسماعيليين الذين نجوا بعد سقوط الفاطميين في العام 1256. وفي أعقاب فتح بغداد بعد ذلك بستين، عيّن الجويني والياً عليها. ولم تمض بضعة أجيال حتى دخل المغول الغربيون في الإسلام، فاتحين بذلك عصرًا جديدًا لامعًا في مسار تطوره.

التطور أتاحت لهم إحداهن مستويات غير مسبوقة من التخريب والتدمير. في فتوحاتهم الأولى، أبديت مدن بأكملها عن بكرة أبيها، وسوّيت مبانٍ بالأرض، وارتفعت إهرامات مقرّزة من الرؤوس المقطوعة النقتة. كانت الوحشية المغولية شكلًا من أشكال الحرب النفسية، الغاية منها إيصال رسالة مفادها أن المقاومة عديمة الجدوى. وكإستراتيجية، أُنبت الإرهاب أنه فعّال للغاية: فقد كان الأمراء الحاكمون في الهضاب الإيرانية يتسارعون إلى إظهار ولائهم، والموظفون المحليون والوجهاء من أعيان الأسر يقبلون على إبداء التعاون معهم، لا بل ويشجعونهم على مهاجمة أعدائهم هم من المسلمين لنيل العظوة لدى الغزاة. وقد سما البعض من طبقة العلماء إلى أعلى المراتب من حيث الشهرة والنفوذ



## المضرب وإسبانيا 650 - 1485





القرنين الحادي عشر والثاني عشر، هما: المرابطون (1056-1147)، والموحّدون (1130-1269). وقرب نهاية حكم الموحّدين، تكثّر سائر الأمراء المسيحيين معاً، مدسّنين بذلك حقبة «حروب الاسترداد». وباستثناء حكم بني نصر في غرناطة، الذي مكث حتى عام 1492، كان معظم شبه الجزيرة الإيبيرية قد خرج من قبضة المسلمين.

غداة سقوط غرناطة في العام 1492، سلك معظم المسلمين واليهود طريقهم إلى شمال إفريقيا هرباً من محاكم التفتيش ببعضهم راضح واعتنق المسيحية، فيما سمح لقلّة قليلة منهم بالبقاء على دينهم، ولكن في ظروفٍ تميّزت بالشدّ في تقييد حركتهم. غير أن عملية «التنصير» وطرد المسلمين كانت قد اكتملت أو تكاد بحلول نهاية القرن السادس عشر، ولم يبق من وجود للإسلام في المنطقة سوى ما خلفه وراءه من آثار ثقافية ليس إلا.

ارتبطت الحضارة الناشئة في الأندلس المسلم بالتطورات الأوسع نطاقاً في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، غير أنها تميّزت عنها من عدة وجوه. فالفن والعمارة المقترنان بمدن قرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة، باقياها معالِم حبة ومنازل مشرقة على مرّ الزمن. كما أن التراث الأدبي الذي ازدهر أيما ازدهار في الفترة الأخيرة من الحكم الإسلامي، أصاب امتيازاً هو الآخر بإسهامه العظيم في الأدب الرومانسي. لكن ربما كان

التراث الأبقى على مرّ الدهور هو ذاك التجسّد في كتابات المسلمين واليهود الفلاسفة والعقائدية والقانونية، والتي سيكون لها أعظم الأثر في بروز النزعة السكولانية (المدرسية) اللاتينية لاحقاً في أوروبا. ومن أبرز المرجعيات في هذا الصدد، ابن رشد، المتوفى عام 1198؛ وابن عربي، المتوفى عام 1240،

الأندلس هو الاسم العربي لقسم من الأراضي الواقعة في شبه الجزيرة الإيبيرية، الذي دال لحكم المسلمين ونفوذهم طوال ما يقرب من 800 سنة. أول احتكاك للمسلمين بالمنطقة حدث في عام 711. يومذاك عبر جيش مسلم مضيق جبل طارق من شمال إفريقيا وبحلول عام 716، كان عدّد من المدن والممالك قد سُيّ بالهزيمة. غير أن طبيعة السيطرة الإسلامية ونطاق اتساعها في المنطقة، ارتبط ارتباطاً دراماتيكياً بسقوط الدولة الأموية وعاصمتها دمشق في العام

#### إسبانيا الإسلامية حوالي 1030

- دول مسيحية
- خلافة قرطبة حتى 1081
- مملكة إسلامية بعد 1081
- أندلس
- جبال، بوروب، هيماء
- البحر
- مسيحيون
- غالبية يهودية ومسلمون
- غالبية مسلمة



750، فقد فرّ أحد أفراد البيت الأموي إلى إسبانيا، حيث صار والياً قبل أن يؤسّس سلالة أموية جديدة أعلنت إيبيريا وشمال إفريقيا في نهاية المطاف خلافةً مستقلة.

وثمة حركتان مدفوعتان بنظرة أكثر سلفية إلى الحكم الإسلامي، تولتا السيطرة تبعاً على المنطقة في





## إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى شرقاً

شجرة النسب القرشية؛ وتلك نزعة سوف تتبدى جلياً للمعان بين سواهم من الزعماء الدينيين والقبليين. وفي حين احتفظت العربية، وفي بعض الحالات الفارسية، التي جاء بها البحارة، بمكانتها الاعتبارية واستمراريتها بوصفها لغة «الإسلام الحق»، طُورت اللغات العامية أدباً فظهير ثرية لن تلبث أن اكتسبت آخر الأمر شكلاً مكتوباً. يعود تاريخ أول نصّ كتب باللغة السواحلية إلى عام 1652. والثقافة السواحلية المهمة على الشريط الساحلي الممتد مسافة ألف ميل، من مقديشو إلى كلوة، هي ثمرة قرون عدة من التفاعل بين الأفكار التي حملها معهم التجّار والمستوطنون العرب والفرس، والشعوب الأصلية في الساحل الشرقي لإفريقيا التي تزاجوا معها.

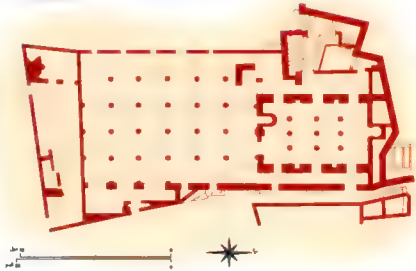
بعدما دار فاسكو داغاما حول رأس الرجاء الصالح في العام 1498، دسّر البرتغاليون وبشكل منتظم المدن السواحلية المزدهرة التي كانت قد نبئت على امتداد الساحل. في عام 1505، تم الاستيلاء على كلوة واستُبعدت مومباسا لأعمال السلب والنهب. وبحلول عام 1530، كان البرتغاليون قد بسطوا سيطرتهم على الساحل برمته، انطلاقاً من حصونهم المنبئة في بعما وزنجبار وغيرهما من الجزر. غير أنه في الخمسينيات من القرن السابع عشر،

استطاع العُثمانيون، وهم من المسلمين الإباضيين، أن يطردوهم من مسقط، ويُعيدوا الشطر الشرقي من المحيط الهندي إلى حظيرة الحُكم الإسلامي، وأقام العُثمانيون شبكة لتجارة الأقمشة والعاج والعبيد بين شرق إفريقيا والهند. وفي القرن التاسع عشر، اتحدت مسقط وزنجبار لفترة وجيزة تحت سلطان واحد، هو السيد سعيد بن سلطان (1804-1856). مما فتح الباب أمام توطن موجات جديدة من المهاجرين المسلمين القادمين من جنوب الجزيرة العربية. وتحوّلت زنجبار في مجملها إلى مركز لإنتاج كيش

منذ زمن الفراعنة القدماء ومناطق أعالي النيل في شرق إفريقيا تنتمي إلى الفضاء الثقافي نفسه الذي تنتمي إليه مصر. فإثيوبيا اعتنقت المسيحية على يد الإرساليات القبطية اعتباراً من القرن الرابع؛ وبحسب أقدم المصادر الإسلامية، فقد وُفّر النجاشي المسيحي الملازم الآمن لمجموعة من المسلمين المضطهدين قدمت من مكّة حتى ما قبل الهجرة الممديّة. وصل الفاتحون العرب لمصر إلى حدود أسوان عام 641، واستمروا لعدة قرون بعدها يزحفون جنوباً، مانحين منطقة أعالي

كلوة، الموقع الجبوبي المتقدم لدار الإسلام حتى الأرملة الحديثة. كان يبلغ تعداد سكانها زهاء عشرة آلاف نسمة عام 1505 حين احتلها البرتغاليون في هجوم كاسح. أوائل المسلمين الذين استوطنوها (حوالي 800 م)، كانوا من البحارة والتجار القادمين إليها من سواحل الخليج

مطلع أرمني للجامع الكبير في كلوة



النيل طابعها العربي الغالب. وقد أسّس سلطنة الفُنج، التي حافظت على احتكارها لتجارة الذهب إلى مطلع القرن الثامن عشر تقريباً، قومٌ من الرُعاة سلّكوا طريقهم جنوباً في موازاة مجرى النيل الأزرق، وعملت تلك السلطنة على توطيد النفوذ العربي باستقدامها فقهاء وأولياء من مصر والمغرب والجزيرة العربية.

وما عَزَّ الطابع العربي للإسلام في شرق إفريقيا، قُرب المناطق الساحلية من الحجاز واليمن. فمنذ زمن مبكر، اكتسب مريّو العواشي الصوماليون أشرف الأنساب الإسلامية جميعاً وذلك بإرجاع أصلهم إلى

القرنفل وغيره من التوابل، باستخدا  
أساليب الزراعة الرقبة شبيهة بتلك التي  
أُقيمت في الولايات المتحدة الأمريكية  
لن تقسيم السلطنة بين أبناء السلطان  
سعيد، تعرضت زنجبار لضغوط متزايدة  
من جانب الإنجليز لحظر تجارة العبيد، وقد  
استخدم هؤلاء أساليبهم العربي لفرض  
قوانين مكافحة تجارة العبيد وعدم  
الصالح التجارية الخاصة. وبعدما  
صارت محمية بريطانية. استقبلت زنجبار  
موجة جديدة من المهاجرين القادمين هذه  
المرة من الهند البريطانية وكان الكثير  
من هؤلاء المهاجرين مسلمين، إنما من  
يُصل صُنف في شانة الأقليات مثل:  
المُؤندين، والفوجية، والإسماعيلية.

## إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى - غرباً

القسيية للإفريقيين جنوبي الصحراء الكبرى، غير أنها كانت نادرة جداً. فقد كانت الأسر المالكية، كما هي العادة، من بين أوائل الداطلين في الدين الجديد، وهي التي طالما استندت إلى الهيبة الدينية لاعتصار الضرائب أو فرض التجنيد على العشائر وأبناء الجاليات الخاضعة لها. وحيث أن التجار المسلمين كانوا قد استقروا في مدن الساحل [بلاد الزنج]، وصار لمعلمهم أحياناًهم الإسلامية الخاصة بهم بحلول القرن العاشر، فقد سعت تلك الأسر المالكية إلى الاستفادة من السعة الثقافية العالية التي حملوها معهم بأن اتخذت الإسلام ديناً للبلاد.

في أغلب الأحوال، استمرت الممالك المحلية بالتشكل وإعادة التشكل في ظل مختلف السلالات القبلية الحاكمة، مع امتزاج الشعائر والممارسات الإسلامية بالمعتقدات والأعراف القبلية. ومع نشوء كل دولة جديدة، كانت عاصمتها تتحول إلى مركز للثروة والتعليم الإسلامي، بحكم سعي حكامها إلى الفوز بالهيبة والاعتبار من خلال بسط رعايتهم على المتعاطين بالعلوم الدينية. ولعلّ المركز الثقافي الأدهى إلى الإعجاب حقاً، كان مدينة تيمكتو الطوارقية الواقعة على نهر النيجر، والطوارقية نشيوية تركب الإبل، وقد ازدادت ثراءً من التجارة العابرة للصحراء الكبرى. كما استخدمت العبيد الأرقاء لاستعمار مناجم الملح، والأقنان المتوطنين من القبائل الإفريقية لزراعة الواحات الواقعة على امتداد الطرق التي يملكونها.

وأشهر حاكم مسلم من إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، هو مانسا موسى، ملك مالي (1307-1332)، الذي حج إلى مكة في العام 1324-1325، محاطاً بأفخم وأعظم أبهة في زمانه، فترك وراءه انطباعاتاً قيّض له أن يدوم طويلاً. وخلافاً للسودان النيلي حيث ضربت اللغة العربية جذوراً مؤتلة فيه، انتشر الإسلام هنا باللغات العامية المحلية منذ المراحل المبكرة نسبياً. فاعتباراً من العام 1700 تقريباً، أو حتى في زمن أبكر من هذا بعد، طوّر الدارسون والمعلمون صيغة معقدة من الأيسيدية العربية لإيصال التعاليم الإسلامية بالفنلدة والهوسا، أو سب اللغات انتشاراً في منطقة غرب الساحل.

كان انتشار الإسلام في غرب إفريقيا سلمياً إلى حد بعيد، قاليده باستخدام الجمال لأغراض النقل عبر الصحراء الكبرى في زمن يرجع إلى ما قبل عام 600 ميلادية، كان قد أرسى شبكة متنامية من مسالك القوافل بين المغرب والساحل، ذلك الحزام الشاسع من السبابس المعشبة الواقعة ما بين الصحراء الكبرى والغابات الاستوائية الغنية. سلعة التصدير الرئيسية من الجنوب، كانت الذهب من بابموكو على ضفة نهر السنغال، التي ظلت لقرنين عديدة المصدر الأول للذهب

المصدر إلى المغرب وغرب آسيا وأوروبا. وإلى جانب الذهب، كانت تجري مقايضة العبيد وجلود الحيوانات والعاج بالنحاس والفضة والمشغولات الحرفية والفاكهة المجففة والأقمشة. لكن ما هو أخطر شأناً من التجارة، كان بث الأفكار فقد تغلغل الإسلام جنوباً بواسطة التجار والمعلمين والمتصوفة، الذين أسماهم الفرنسيون «مراهبوا»، نسبة إلى

المرايطين العرب، وكان الأخيرون في الغالب من الأسر المشهورة بالثقوى والورع وتكتنفها هالة من القداسة، فكانوا يقومون بدور الوسيط والحكم المتوارث بين أبناء القبائل في الأرياف.

في القرن الحادي عشر، أقام المرايطون من قبيلة لمتونة البربرية مركزاً لهم في موريتانيا من أجل نشر الإسلام، ومن هناك خاضوا الجهاد ضد ملوك غانا، حكام أكبر وأغنى دول غرب إفريقيا على الإطلاق. والحاسة الإصلاحية الماثورة عن المرايطين، حملتهم شمالاً إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث أعادوا توحيد إمارات الأندلس الصغيرة لتفادي خطر الفتح المسيحي المضاد. صحيح أنه جرت بعض عمليات «الأسلمة»

تفصيل من خريطة كاتالونية يصور ملكاً متربعاً على العرش وحوله كل الرموز والشعارات الدالة على ملكوته، ربما يكون للرسم للملك مانسا موسى من مالي، الذي بهرت ثروته معاصريه حين سافر إلى مكة عام 1324-1325 لتأدية فريضة الحج









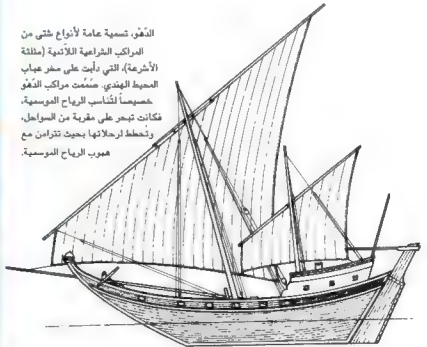
## المحيط الهندي إلى العام 1499

ساحل شرق إفريقيا مروراً بمونوتباس القريبة من جزيرة ممبا إلى أن يبلغ منتهاه في راباطا (التي لم يكتشف موقعها بعد، وإن كان يُظن أنها باغامويو على ساحل تنزانيا الحالية). أما الطريق الثاني، فكان يتحرف نحو السواحل الشمالية الغربية للمهند ليصل

قبل مجيء الإسلام، كان المحيط الهندي جزءاً من شبكة متداخلة ومتراكبة من طرق التجارة المحلية والإقليمية والدولية تمتد من الصين وجنوب شرقي آسيا إلى شرق إفريقيا والبحر المتوسط. كان ثمة دليل للتجار والبحارة وضع باللغة اليونانية في القرن الأول الميلادي بعنوان: «مسالك الإبحار في بحر إريتريا»، يصف اثنين من طرق التجارة البحرية يطلقان من موانئ على البحر الأحمر [بحر القلزم]، مثل: ميوس، وهورموس، ولوك كوميه، وبرنيكه. على هذين الميناءين التجاريين العائدين إلى العالم الإغريقي - الروماني القديم، كانت تنقل سلع ومواد من قبيل الأقمشة والتوابل والعبيد إلى شركاء لهم في المناطق الساحلية في غرب المحيط الهندي. أحد هذين الطريقين كان يتجه نزولاً عبر البحر الأحمر إلى جنوب الجزيرة العربية، ماراً بموزا (المضا) وديوسكوريدس (سقطري)، نحو شمال شرقي إفريقيا (أوليس وأويوني في بلاد أقشوم بالحبيشة)، ثم يحاذي



الدفع، تسمية عامة لأنواع شتى من الدراكب الشراعية اللاتينية (مطللة الأشعة)، التي دأبت على سفر عباب المحيط الهندي. صُنعت مواكب الدفع خصيصاً لتناسب الرياح الموسمية، فكانت تبحر على مقربة من السواحل، وتخطط لرحلاتها بحيث تتزامن مع هبوب الرياح الموسمية.





بقوة المحركات، كانت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية هذه تسمح لمراكب «الدّهوّ» ذات الأشرعة الضخمة المثقّلة الشكل (الأشرعة اللاتينية)، العربية والفارسية والهندية، بالإبحار من عدن إلى كوتشين مثلاً وقد نشرت أشرعتها على نحو يضع المركب أدنى ما يُمكن في اتجاه الرياح، فكانت تتاجر وتتسوّق على

إلى باريغازا (بروانش) ثم يتجه جنوباً نحو موزيريس كراغانور وكومار (رأس فُمرين) كانت تحكم حركة تنقل البشر والبضائع دورة الرياح الموسمية المؤكّدة في المحيط الهندي. تدوم الرياح الشمالية الشرقية المعتدلة، أو الرياح الموسمية الشتوية، قرابة نصف السنة (من شهر تشرين الأول/نوفمبر إلى آذار/مارس). قبل عصر الملاحة



في القرن السابع، كانت العوالم التجارية التي جاء الدليل اليوناني، «مسالك الإبحار»، على وصفها قد اندثرت منذ أمد بعيد، ووقعت المرافئ وطرق التجارة في غرب المحيط الهندي في حمأة التناقص المعتمد بين الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية (الفارسية).

امتداد ساحل مالبار الهندي في عكس اتجاه الريح، قبل أن تعود أدراجها وقد انتفخت أشرعتها عن آخرها. أما الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تحمل معها الأمطار إلى غرب الهند، وتولد طقساً عاصفاً، فكان من المستحسن تجنبها قدر الإمكان

أمير سلجوقي مترع على عرشه، يحكم وجود السلاجقة عند نهاية الطرف الغربي من «طريق الحرير». فقد أدبج لسلطانهم أن يذوقوا طعم الترف ويتنعموا بالكماليات من قوالب أجود أنواع الحرير الصيني والمجوهرات من آسيا الوسطى. مخطوط من القرن الثالث عشر.



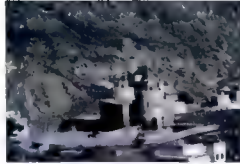
وقد استُكملت السيطرة السياسية والاقتصادية للسلالات الإسلامية الحاكمة في الشرق الأوسط على الطُّرُق التجارية في المحيط الهندي بثنامي الجاليات المسلمة وتكاثر المحطات التجارية وحتى قيام الدويلات المستقلة هنا وهناك على امتداد المناطق الساحلية. وثمة العديد منها تملك تواريخ معقدة ومتشعبة ما زالت بحاجة إلى دروس وتحصيل. فساحل إفريقيا الشرقي بشعوبه الناطقة بالسواحلية، كانت له أواصر متعددة ومتنوعة بالجزيرة العربية والخليج والهند. فالمساجد والمقابر الإسلامية في شانغا تعود زمنياً إلى النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي وهناك شواهد على وجود أسر حاكمة إسلامية محلية وإسكانها جيداً بالمستوطنات المسلمة على جُزُر بمبا وزنجبار ومافيا وكسوة في الفترة 1000-1650. والعديد من هذه المجتمعات كانت مزدهرة حين زار المنطقة الرحالة ابن بطوطة في العام 1331 من طريق مقيديشو.

كذلك يُعدّ ابن بطوطة مصدراً ثرياً للمعلومات بشأن وجود المسلمين على امتداد ساحل الصين الجنوبي، وصولاً إلى قوانزو (زيتون) التي وصلها عام 1347. في قوانزو توجد جبانة ومسجد (يعود تاريخه إلى العام 1009 تقريباً). يدلّان على وجود جالية مسلمة في ذلك المرفأ التجاري. كما يُستدل على تواريخ الجاليات المسلمة في جنوب شرقي آسيا من بيانات التجارة عبر المحيطات. في القرن الخامس عشر، كان المركز التجاري في ملقا على ساحل الملايو قد برز كأهم محطة بحرية في شبكة التجارة الإسلامية الضخمة في المحيط الهندي، حتى إنه برز المراكز التجارية الأخرى في جاوه وسومطرة. كان عدد المسلمين في ملقا كبيراً جداً، وكانت لهم علاقات وارتباطات قوية بالتجار والمرافئ في غرب الهند مثل كامباي (قوجارات). ومن سخرية الأقدار أن ابن ماجد، البحار الذي كان له الفضل الأكبر في إرشاد فاسكو داغاما عبر المحيط الهندي عام 1498، قدّم لنا وصفاً غير مستحب لملقا هذه. سقط المرفأ في أيدي البرتغاليين عام 1511، وذلك أرست أول قوة بحرية أوروبية دعائم وجودها المستتب في المحيط الهندي.

فقد ساند البينزنطيون الغارات الحبشية على جنوب الجزيرة العربية انطلاقاً من موانئ على البحر الأحمر، فيما ضمن الفُرس سيطرتهم على الخليج (البحرين) والساحل الجنوبي للجزيرة العربية (من عدن إلى صُحار إلى دابا). وما بين هاتين الأمباطوريتين، كانت هناك فريش، التي سكن من أوائل المتعاطين بالتجارة البرية من المسلمين في ملائها بمكة. ابتعد المسار المبكر للفتوحات الإسلامية والتوسع الإسلامي عن المحيط الهندي واتجه أكثر نحو البحر المتوسط (بحر الروم). غير أن السلالات الحاكمة الإسلامية المتعاقبة بذلت جهودها للفوز بالهيمنة السياسية والاقتصادية على المحيط الهندي. وكان استيلاء الأمويين على ديول في بلاد السند عام 712، الخطوة الأولى في هذا السبيل. وفيما بعد، عندما أنشأ العبّاسيون عاصمتهم ببلاد عام 762 على نهر دجلة وصار لها بواسطة مجراه منفذ إلى الخليج عبر البصرة، اكتسبت التجارة البحرية الإسلامية زخماً مضاعفاً. وكذلك عمليات الاستيطان من سواحل شرق إفريقيا إلى جنوب الصين. ومشاهدات البحارة التي جُمعت في كتاب «أخبار السند والهند» (حوالي 850)، تعطينا لمحة عما كانت عليه رحلة تجارية بحرية نموذجية ذهاباً وإياباً من «سراف» (جنوبي شيراز) إلى كانتون في الصين أيام العبّاسيين. ولنا شاهد حيّ على مجريات النشاط البحري آنذاك في الجنوب الغربي للمحيط الهندي، المعتمد من الجزيرة العربية إلى شرق إفريقيا، في كتاب «مروج الذهب» للمسعودي (ت 928). في عام 909، استولى الفاطميون على مصر وأسسوا مدينة القاهرة، فتكلّوا بذلك تحدياً سياسياً وتجارياً خطيراً للعبّاسيين. نجح الفاطميون في تحويل وجهة التجارة في غرب المحيط الهندي من بغداد والخليج إلى الفسطاط والبحر الأحمر وقد صان من خلف الفاطميين، الأيوبيون أولاً ثم المماليك، الأهمية التجارية لمصر وحافظوا على الطرق التجارية الممتد من البحر الأحمر إلى غرب المحيط الهندي، هذا وتسوق لنا مجموعة «الجنيزة» القاهرة أدلة بيّنة تظهر مدى تعدّد شبكة التجار المتخذين من الفسطاط قاعدة لهم، التي تصل شمال إفريقيا بالهند عبر المحيط الهندي، في الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر.

## المحيط الهندي 1500 - 1900

الحصن القائم عند مدخل المرفأ في مدينة مسقط، بناء في الأصل البرتغاليون خلال القرن السادس عشر في نفس الموقع لحصن أقدم عهدا استطاعت حامية الحصن البرتغالية أن تصمد في وجه هجمات العثمانيين، لكنها اضطرت إلى الاستسلام للإمام العثماني سلطان بن سيف عام 1850



كانت رحلة فاسكو داغاما حول رأس الرجاء الصالح عام 1498 حدثاً فاتحاً لعصر جديد: حدثاً مدوياً وضع نهاية لاحتكار المسلمين التجارة في المحيط الهندي، وفتح الباب على مصراعيه لدخول الأمورايطوريتين البريطانية والهولندية إلى جنوب آسيا وجنر الهند الشرقية. وقد استهلكت حقبة الاستعمار الأوروبي بإنشاء التجار المغامرين محطات تجارية لهم في

البحار الجنوبية، ومنها انطلقوا إلى مزيد من التوسع. كان البرتغاليون في البداية، فاستولوا على كلوة واستباحوا مومباسا عام 1505، قبل أن يقيموا قواعد لهم في زنجبار وبمبا. في العام 1509، هزم البرتغاليون أسطولاً مصرية - هندياً مشتركاً لاحتلال غوا على ساحل مالبار الهندي. وفي عام 1515، استولوا على ملقا، وفي العام نفسه انتزعوا هرمز المطقة على الخليج. غير أن الهيمنة البرتغالية ما لبثت أن انحسرت لصالح هيمنة الهولنديين، الذي سبق وأن حاول البرتغاليون استبعادهم من تجارة الفلفل والتوابل المربحة تغلب الهولنديون على البرتغاليين في أمبوينا عام 1605، وهكذا انتزعوا منهم باندا عام 1621، وسيلان (سرانديب) أو سري لانكا حالياً عام 1640، وملقا عام





المحيط الهندي. حوالي 1660

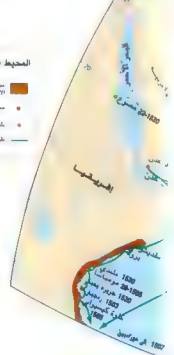
- ممتلكات هولندية
- ممتلكات برتغالية
- ممتلكات إسبانية
- ممتلكات بريطانية
- ممتلكات فرنسية
- ممتلكات أخرى

1641. وقبل ذلك في العام 1619، تأسست باتافيا (جاكارتا الحالية)، لتصبح منذ ذلك الحين فصاعداً عاصمة جزر الهند الشرقية.

ولكن اتسم التدخل البرتغالي بالتدرج البطيء، إلا أنه تخفّض عن تحولات وتغيرات في أنماط التجارة السائدة، وكذلك في الاقتصاد السياسي للدول الإسلامية في المنطقة. ففي نهاية القرن السابع عشر، كانت إنجلترا وهولندا، البلدان الصغرى القابحان عند الطرف الغربي للقارة الأوراسية، قد صارتا (سوية مع فرنسا) القوى المهيمنة على مقدرات التجارة العالمية. فاختفت التجارة التقليدية بالسلع الكمالية لتحل محلها حمولات السفن من المواد الخام كالأخشاب والحبوب والأسماك والملح. وهذا التحول في طبيعة الحمولات أذن حتى يحدث انقلاب أبعد أثراً انتقم العالم بموجبه إلى مستعمرات تنتج المواد الأولية، ومراكز صناعية وتجارية تنتج سلعاً وخدمات ذات قيمة عالية. وإذا ما نظرنا إليها من منظور القرن

المحيط الهندي حوالي 1580

- ممتلكات برتغالية والبرتغالية
- ممتلكات برتغالية
- ممتلكات برتغالية
- طرق تجارية برتغالية

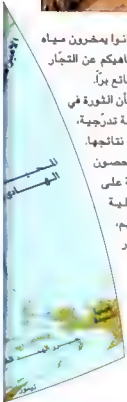


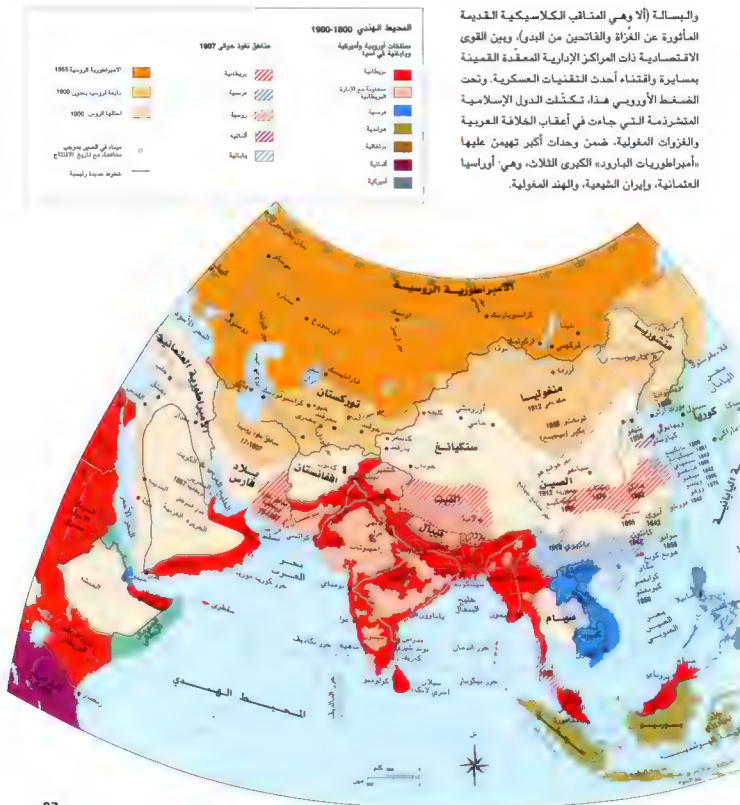


عندما أخذ البريطانيون يرسون  
أقدامهم في الهند، شرعوا  
باستحضار طرزهم المعمارية  
العاصمة، كما تزيننا هذه اللوحة  
بالألوان المائية لإحدى الدور  
المشيقة في شابرنا عام 1706

الحادي والعشرين، نستطيع القول إن رحلة فاسكو دا  
غاما تمثل عملية بلغت ذروتها في «العولمة»  
ثمة عاملان تقنيان دفعا بقوة كل تلك التحولات،  
وهما: أشرعة أفضل وملح البارود. إن وجود  
البرتغاليين على الساحل الشرقي للمحيط الأطلسي قد  
حدا بهم إلى تطوير مراكب بحرية متينة بما يكفي  
للمصود في وجه الأنواء الأطلسية العاتية، والإبحار  
على مسافة أدنى من مهبط الرياح من مراكب الدهر  
العربية ذات الأشرعة الأثنية. كانت السفن البرتغالية  
أضخم بدمناً وأكثر ثباتاً من مثيلاتها العربية أو  
الفارسية، وهكذا تسنى لها أن تنقل حمولات أكبر  
وتبحر لمسافات أطول بعد. وقد جنّب المرور بالطريق  
الجديد الذي يدور حول جنوب إفريقيا قاصداً جُزء  
الهند، المرور بالمسالك التجارية المعهودة في غرب  
آسيا. فكانت البضائع تُنقل من جنوب آسيا وجُزء  
الهند، بما فيها التوابل والأقمشة والسلع النفيسة، إلى  
ليشبوننة رأساً. وهذا ما عاد بالثراء على التجار  
البرتغاليين، نظراً لتقليصه عدد المستفيدين المباشرين  
من التبادل التجاري بين أوروبا وآسيا؛ ومن هؤلاء

تجار البندقية وجنوى ممن كانوا يمضون مياه  
المتوسط الشرقية جيئةً وذهاباً، ناهيك عن التجار  
المسلمين الذين كانوا ينقلون البضائع برّاً.  
أما ثورة البارود فكانت، شأن الثورة في  
تقنيات الملاحة الشراعية، عملية تدرجية،  
وكانت مثلها بعدة الأثر من حيث نتائجها.  
فمع تطوير المدافع، لم تعد الحصون  
الحجرية منيعة كفاية أو عصية على  
السقوط. وهذا ما أعطى الأفضلية  
العسكرية للقوى الحسنة التنظيم،  
القادرة على تحمل أعباء الاستعمار  
المكلف في مضمار المدفعية  
والأسلحة النارية. ومع استمرار  
التقدم في مجال التكنولوجيا  
العسكرية، طرأ تحول على ميزان  
القوى بين الطبقات الحاربة  
التقليدية، التي ترتدي البراعة  
الحربية عندها رداء التلاحم  
القبلي والشرف والسمة





## صمود العثمانيين حتى 1650

لا جدال في أن الأمبراطورية العثمانية كانت الأوسع نطاقاً والأبعد نفوذاً من بين سائر الدول الإسلامية جميعاً. فقد بدأت توسعها المذهل كإمارة حدودية تش غارات على الأراضي البيزنطية من يثفنها بالقرب من بحر مرمرة في وقت مبكر من القرن الثالث عشر في العام 1242-1243، أنزل المغول الهزيمة بالسلاجقة، وجعلوا منهم مقطعين تابعين لهم، وهذا ما دفع بأعداد متزايدة من البدو الأتراك إلى أسيا الصغرى بحثاً عن الكلأ والغنمة. وأدى انهيار الدولة السلجوقية إلى نشوء عدة دويلات تحت سلطان المغول الفضفاض،

حدثت الطفرة الكبرى في التوسع العثماني إبان حكم السلطان سليمان الأول، الملقب بـ«المظهم» اللوحة أدناه تصور الأسطول البحري العثماني يهاجم مدينة طرلون الفرنسية عام 1545



ومنها دولة الأتراك العثمانيين، الذين انقلبوا بعد استيلائهم على بورصة واتخاذها عاصمة لهم في العام 1326، لابعين أساسيين في المباحثات الطائفية التي أُنمت بالأمبراطورية البيزنطية في آخر أيامها فمقاتلتهم قوات أجنبية في خدمة الأطراف البيزنطية المختلفة. اجتاز العثمانيون المضائق بادية ذي بدء واحتلوا أراضي بيزنطة في أوروبا. وهكذا احتلوا اليونان، ومقدونيا، وبلغاريا، وأخيراً بسطوا سيطرتهم على غرب البلقان بعد أن كسروا شوكة الصرب في معركة كوسوفو في العام 1389. وقد فضلت حملات







لكنها شديدة التأثير بالثقافة اليونانية. صمبح أنها خلفت السلاجقة، إلا أنها كانت كذلك وريثة الأعراف والبنس العائدة إلى الأمبراطورية الرومانية - البيزنطية التي حلت محلها وبحكم امتدادها بين البلقان المسيحي والتقوم الغربية لدار الإسلام، فقد عملت الدولة العثمانية كجسر بين حضارات متنافسة ونظراً لقربها من القسطنطينية، التي طالما كانت هدفاً للفتح الإسلامي، اجتذبت السلطنة التي تحكمها أسرة «العثماني» العديد من الفُزَي (مفرداً غازي، وهم المحاربون الصالحاء) الساعين إلى المجد السامري في جهاد النصاري. هؤلاء الوافدون والرعويون الأتراك اتصفوا بالتحامل على القرى والبلدات المسيحية في الأناضول، وربما يكون بعضها قد لجأ إلى الدخول في الدين الإسلامي تماشياً للاضطهاد. غير أنه كان من بين الوافدين أيضاً دراويش وأعضاء من الطُرق الصوفية من أسس الدائخية، مثل حاجي بكطاش (ت 1297)، الذي كان يُنادي بصيغة خاصة به من الإسلام تحول إلى مزج المعتقدات الإسلامية، السُنية والشيعية كليهما، بالمعتقدات والممارسات المسيحية، مما سهّل على الشعوب الناطقة باليونانية والأرمنية عملية الدخول في الدين الإسلامي. وقد دعم السُلالة العثمانية هذه العملية بإبعادهم الأساقفة والمطارنة عن أبرشياتهم، الأمر الذي ترك المسيحيين بلا قادة عملياً، وكذلك باستبدالهم المؤسسات الأرثوذكسية من مستشفيات ومدارس ومهائم وأديرة بمؤسسات أخرى إسلامية يقوم على تسويرها علماء عرب وفُرس. ولم ينتقض القرن الخامس عشر إلا وكان أكثر من 90 بالمئة من سكّان الأناضول قد صاروا مسلمين، وإن بقيت ثمة أقليات لا بأس بها من النصاري واليهود في المدن. وإذا كان الفلاحون هم من تأسلم في الأغلب الأعم، فإن طبقة النبلاء والموظفين المدنيين المعانة إلى النظام الأمبراطوري القديم اندمجت في الجيوش والإدارات العثمانية، مما أضفى على الدولة طابعاً بهزناً مؤزراً. صمبح أن قدرّاً من الاستقلال الديني كان سموحاً به عبر تطبيق النظام المُلّي، الذي تحكم الأقليات الدينية بموجه نفسها بنفسها، إلا أن الأمبراطورية العثمانية كانت على درجة فائقة من المركزية. وفي المناطق الإسلامية الأخرى (بما فيها بعض الولايات والسناجق

متعاقبة قامت بها أحلاف شتى بين دول لاتينية وأرثوذكسية، ومنها نابولي، والبندقية، وترانسلفانيا، وصربيا، وجنوى، في صدّ التقدم العثماني داخل أوروبا. في عام 1453، سقطت القسطنطينية في أيدي قوات محمد الفاتح، مما ألهم التطلعات الأمبراطورية لدى العثمانيين ووفّر لهم الأرضية لمزيد من التوسع في عام 1521، انتزع العثمانيون بلغراد من المجرين، وبحلول عام 1529، كانوا قد وصلوا إلى أبواب فيينا، عاصمة آل هابسبورغ. ولدى وفاة سليمان العظيم (سليمان القانوني)، كان العثمانيون قد أحكموا قبضتهم على مساحة شاسعة من التراب الأوروبي تمتد من شبه جزيرة القرم إلى جنوب اليونان. لكن انتصارات العثمانيين كانت أشدّ دويّاً بعد في ديار الإسلام منها في أوروبا. فبعد أن هزموا الصغوبيين في كالدبران عام 1514، عمداً إلى ضم شرق الأناضول وشمال بلاد الرافدين، مما أتاح لهم التحكم بطرق التجارة في آسيا الوسطى ما بين تبريز وبورصة. في العام 1516-1517، تمت للعثمانيين الغلبة على الدولة المملوكية في سورية ومصر، الأمر الذي منحهم مفاتيح السيطرة على الأماكن المقدسة في الحجاز. ويتطورهم الفنون الملاحية اليونانية التي اكتسبوها من أسلافهم الروم، تنمّح العثمانيون لمقارعة قوة المندقية في شرق المتوسط وتحدي سلطان إسبانيا الهابسبورغية في غرب المتوسط، واستولوا تباعاً على الجزائر (1529)، وتونس (1534-1535)، وجدة (1560)، وجزيرة مالطا الاستراتيجية، آخر معقل للصليبيين (1565)، فضلاً عن جزيرة قبرص (1570). هذه السلسلة من الانتصارات البحرية، أثارت في آخر الأمر هجوماً مضاداً ناجحاً. وبالفعل، استقبلت هزيمة العثمانيين البحرية في معركة ليبانت عام 1571 بخفاوة بوصفها نصراً مؤزراً للعالم المسيحي. هذا ولئن أعاد العثمانيون تجديد أسطولهم البحري وانتزعوا تونس مجدداً عام 1574، إلا أن توازناً في القوى ساد المتوسط. ارتسمت معه الحدود التي بقيت تفصل الأراضي الإسلامية في الجنوب عن الأراضي المسيحية في الشمال. ووجه المفارقة هنا أن السلطنة العثمانية في بواكير أيامها كانت إسلامية من الوجهة النضالية،



العربية التي كانت خاضعة لأشكال أقل إككاماً من السيادة العثمانية، كان تطبيق الإسلام على صعيد القانون والمجتمع تطبيقاً ذاتياً في واقع الأمر كان الولاية يُعيّن القضاة، لكنهم في معظم مناهج الحياة الأخرى، كانوا يدعون المؤسسات والمرافق الدينية تنمو وتزدهر على نحو مستقل، ومنها المساجد والمدارس حيث يتم إعداد رجال الدين، وشبكات الزوايا والتكايا الصوفية، ونقابات الحرفيين التي غالباً ما كانت على صلة وثيقة بها. على أية حال، إن العثمانيين، وخلافاً لأنظمة الحكم الإسلامية الأخرى، كانوا يشرفون على المجتمعات التي يحكمونها ويضبطونها ويقولون عنها. فإذا كان السلاطين خاضعين نظرياً للشرعية الإسلامية، غير أنهم كانوا يردفون الشرائع السماوية بالفرمانات الهمايونية التي تتلاعب بمكانة وأجبات جميع الرعايا، بما في ذلك أحكام النجاس، لقد أخضعوا العلماء والزوايا الصوفية والنقابات الحرفية لسلطة الدولة بإملائهم التعيينات والتصنيفات والأدوات إملاء. كان المجتمع ينقسم إلى طبقتين: طبقة الحكام وطبقة المحكومين، والفارق الرئيسي بينهما هو حق الحكم في استغلال ثروات المحكومين عبر فرض المكوس والضرائب عليهم. نظرياً، كانت الأرض كلها ملكاً شخصياً للسultan (جفتك). والشُعب الحاكمة لم تكن محصورة فقط بالباشوات والبكوات والأعيان الذين يقتضون على مقاليد السلطة في الولايات، بل كانت تضم كذلك عائلات يونانية أرستقراطية، وسلطات كنسية، ورجال مصارف بارزين من اليهود والأرمن، فضلاً عن أسر أميرية من البلقان

فُصد من هذا الرسم للشخصي للسultan سليمان، تقديمه إلى أناده من ملوك أوروبا. إذ لم يحدد سلاطين بني عثمان أن يعرضوا رسومهم الشخصية على رعاياهم إلا في زمن متأخر من القرن التاسع عشر.

## الأمبراطورية العثمانية 1650 - 1920

حين وصل النظام العثماني إلى أوجه في القرن السادس عشر، كان نظاماً فعالاً وغاية في النجاعة إنما كانت تشوبه كذلك نقطة ضعف كبرى، ألا وهي نظام الوراثة. في المجتمعات التي تغلب عليها البداءة، يكون لخياط نمط محدّد للوراثة منطقة الدارويني

عبد الحميد الثاني هو السلطان العثماني الأخير الذي تسوّى له أن يمارس سلطة فعلية على الأمبراطورية كان ملكاً مستبدّاً وعدواً للحرريات السياسية. إلّا أنه شجّع مع ذلك الإصلاحات التعليمية والصناعية والاقتصادية



الثابت: بعد صراع بين الأنداء، يخرج زعيم يكون هو الأقدر والأصلح لقيادة القبيلة. لكن انتقال هذا المنطق إلى صُنْب نظام أمبراطوري معناه احتراقاً داخلياً وهكذا بعد سلسلة من التنازعات الدامية بين الإخوة، حسم العثمانيون معضلة الوراثة لديهم بأن قيّدوا حركة أقرباء السلطان من الذكور وجعلوهم حبيسي أفنية القصر الداخلية أو أجنحة الحرم، وهذا ما كان يحول دون السلطان العتيد واكتسابه أية دراية حيوية بالشؤون العسكرية والمدنية. وهكذا، بدءاً بالقرن السابع عشر، كان السلاطين العثمانيون ممّن وصلوا إلى سدة السلطة عن طريق المناورات «البيرنطية» ومكائد الحرم، يفتقرون إلى الخبرة في الميدان العسكري، وعلى غير دراية كافية بحقائق السياسة وقد تعطلت سلطة الدولة والجيش لفترة وجيزة بوجود





وتمكن الروس بفضل جيشهم الذي جرى تحديثه مؤخرًا في عهد بطرس الأكبر، ولئن استطاع العثمانيون استعادة شبه جزيرة القرم، ولئن استطاع العثمانيون استعادة بعض من هذه الأراضي المفقودة خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، إلا أنهم كانوا عاجزين على المدى الأبعد عن إيقاف مدّ التقدم الروسي. في عام 1768، شرع الروس بحملة جديدة، فاحتلوا مولدافيا ولأشبا (شمال رومانيا) والقرم. وبموجب الشروط المهيئة لمعاهدة «كوتشوك كينارك» المبرمة عام 1774، أجبر العثمانيون على منح روسيا موطئ قدم على البحر الأسود، والسماح لها بحرية الملاحة والتجارة فيه مع إمكانية الوصول إلى البحر المتوسط، فضلًا عن فتح أبواب التجارة البرية أمامها في ولايات السلطنة جميعًا، الأسبوية منها والأوروبية. وفي حين ظلت مولدافيا ولأشبا تحت السلطة العثمانية من الناحية التقنية، إلا أن ما حازته من حكم ذاتي متزايد جعلها شرعية للتلاعب الروسي بهما. ولسوف يتحوّل بنذ شرطي أدخل تحت ضغط روسي يقضي ببناء كنيسة روسية في استنبول إلى حق عام في أن تتدخل روسيا لصالح جميع رعايا السلطان من المسيحيين الأرثوذكس.

بعد أن تدفّق الأفكار الذي جاء في أعقاب الانتصارات الأوروبية كان، في حقيقة الأمر، أشدّ وقعًا وإعصارًا من الهزائم العربية. فاحتلال نابليون بوناپرت القصور الأمد لصر عام 1798، جاء ليبدؤ بذور الفكر العلمي والتحول الجديد في أفعين ولايات السلطنة، لكن أكثرها تعرّضًا للإهمال. لقد فتح نابليون بإنزاله الهزيمة في أمراء المماليك الجدد، الذين يحكمون مصر تحت جناح السلطنة العثمانية، الطريق أمام تغلغل الأفكار الغربية في ظل أسرة حاكمة تأخذ بأسباب التحديث وطرائق العصرية، هي أسرة محمد علي (ح 1805-1848). الضابط الألباني الذي استولى على السلطة عام 1806، جاعلاً من نفسه حاكمًا مستقلًا في كل شيء إلا بالاسم، والمطامع الاستعمارية لفرنسا بعد عودة الملكية إليها، أفضى إلى خسارة العثمانيين الجزائر اعتبارًا من عام 1830، وإنشاء محمية في تونس عام 1881. ورياح النزعة القومية التي عصفت بأوروبا غب الثورة الفرنسية، وصلت إلى الجباليات المسيحية في البلقان، بدءًا بثورة

وزراء اتعدمت في قلوبهم الرحمة، أمثال محمد كوربولو (ح 1661-1666)، وكان ابنًا لرجل نصراني من ألبانيا، وابنه أحمد (ح 1661-1676)، مما أتاح التوسّع أكثر إلى الشمال من شبه جزيرة القرم، لا بل وضرب حصار ثانٍ (بعد موت أحمد) على فيينا عام 1683. لكن تبين أن سيطرة الانحطاط عملياً لا رجعة فيها. فتدفقت الفضة الإسبانية من الأمريكتين خلق تضخمًا هائلًا ألحق الأذى بالطبقات ذات العلاقة بالتجارة، وكذلك بقدرة الحكومة على الصرف على الجنود الذين كان سلاحهم الحديث من بنادق وبارود يتطلب مبالغ تقديراً لا غنائم حرب. وهكذا كسب ولاء المقاطعات والإيالات المحليين سلطات على حساب المركز. فاحتكروا جيوشًا خاصة لهم وضاعفوا الضرائب لجيوشهم. والإنكشارية الذين كانوا قد شكّلوا كيانًا يمنع بالامتيازات داخل الدولة ذاتها، انغمسوا من جانبهم في إساءة التصرف ومحاربة الأقارب على نطاق واسع. وتنازل الحكومة عن الأراضي الذي كان من المفروض أن ينشئ الزراعة، تتحوّل إلى مزارع خارجية لا تعتمد الضرائب ليس إلا، مما دفع بالمزارعين إلى التخلي عن أراضيهم وتكوينهم عصابات من قطاع الطرق الريفيين أو من المهجرين إلى المدن المكتظة أصلاً بسكانها والمعرضة لتفشي المجاعة والأوبئة واضطراب حبل الأمن. وجاء تطبيق النظام المالي الذي يتيح للجالياتين المسيحية واليهودية (وللشيعة في العراق) درجة عالية من الاستقلال الإداري، ليقوّض شرعية الدولة من خلال منحه التجار الغربيين امتيازات، وتشجيعه المسيحيين في اليونان والبلقان على التطلع نحو أعداء السلطنة – روسيا وأوروبا الغربية – طلباً للمساندة والحماية.

وبانحلال مركزيتها على الصعيد الداخلي، أثبتت السلطنة العثمانية أنها ليست صنواً لدول أوروبا الصاعدة، التي كان نظامها العسكري والاقتصادي قد بدأ يجني الفوائد من الثورة في مضمار الفكر العلمي. وخلال العقود الأخيرة من القرن السابع عشر، قطعت الدول الأوروبية أشواطاً بالغة الشأن على حساب الامبراطورية العثمانية. فما بين عامي 1684 و1687، انتزعت أسرة هابسبورغ معظم أراضي المجر الواقعة شمالي الدانوب وأتبعها ببلاد الصرب عام 1689؛ واستولى البنادقة على الساحل الدالماسي وجنوب اليونان (المورة)؛ وغزت بولندا بروسيا؛

على البلقان في صورة حرب كونية، اصطفت فيها السلطنة العثمانية إلى جانب النمسا وألمانيا في وجه بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا. وجاءت هزيمة دول المحور في العام 1918، وخلع السلطان عام 1922، وإلغاء الخلافة الإسلامية عام 1924، ناهيك عن تبادل السكّان بين تركيا واليونان في العام 1921، لتسدل ستار النهاية على الأمبراطورية العثمانية.

قصر «هولمة بهجة» في إسطنبول. إن واجهة هذا القصر المعني على الطراز الهندسي الكلاسيكي، شأن باقي القصور التي شُيّدت للسلطين العثمانيين في القرن التاسع عشر، لتتّمت عن حدوث تحوّل كبير في التوجّه الثقافي، إذ راحوا يتخلّون عن نزعتهم السابقة إلى الخُزلة ويُجاهرون بما يملكون من جاه وسلطة على غرار ملوك أوروبا

الصرب (1804-1813)، فحرب الاستقلال اليونانية (1821-1829)، وبلغت ذروتها في معاهدة سان ستيفانو لعام 1878، التي أُجبر العثمانيون بمقتضاها على منح الاستقلال لبلغاريا وصربيا ورومانيا والجرمانيون. ولم يتأجل الفصل الأخير من تقطيع أوصال السلطنة إلا بسبب التنافس بين القوى الأوروبية، وقيام بريطانيا وفرنسا بمساندة «رجل أوروبا المريض» ضد روسيا في القرن (1854-1856)، فيما راحت النمسا تتنافس وروسيا على البلقان. في عام 1911، غزت إيطاليا ولاهوتي طرابلس وبرقة، مكرهة العثمانيين على التنازل عنهما لها. وفي عام 1912، انتزعت القوى البلقانية مجتمعة، وهي صربيا وبلغاريا واليونان والجرمانيون، ما تبقى من أراض عثمانية في أوروبا، باستثناء قطاع من الأرض حول إسطنبول، وذلك قبل أن يدب الخلاف بينها. وفي شهر آب/أغسطس 1914، انفجر النزاع بين الدول الأوروبية



## إيران 1500 - 2000

اليهود والزرادشتيون لعمليات «أسلمة» قسرية. وجرى نفي الناس عن الحج إلى مكة والاستعاضة عنه بـ «زيارة» مزارات الأئمة الشيعة التي تُغفد عليها الأموال بلا حساب. وفي القرن الثامن عشر، وإثر تفكك الدولة الصفوية، مزّت إيران بفترّة من الاضطرابات كان فيها العثمانيون والروس يسيطرون على الشمال، وزعماء القبائل الأفغان والأفشار والزند والقاجار يتنافسون على السلطة في الجنوب. ولكنّ قام نادر شاه، الزعيم القبلي الأفشاري الذي أعلن نفسه شاهاً عام 1736، بكبح جماح العلماء الشيعة، إلا أن القلاقل التي عمّت القرن التاسع عشر سمحت لأولئك العلماء بحياةٍ قدر أكبر من الاستقلال المؤسسيّ بالمقارنة مع نظرائهم السُنة.

وفي عهد السلالة القاجارية (1779-1925)، تعرّضت قدرات العلماء الشيعة بفضل الزكاة والضّمس التي كانت تُدفع إليهم مباشرة، في حين منحهم رعايتهم للمزارات والأوقاف عائدات إضافية من إيجار الأراضي والمساكن. إن وجود اثنين من أهمّ المزارات في كربلاء والنجف بالعراق الخاضع للسيطرة العثمانية، وفرّ لهم قاعدة لممارسة السلطة خارج نطاق الدولة. فشنعائير الجواد التي تحيي ذكرى استشهاد الإمام الحسين في كربلاء ومجالس العزاء المقرّنة بها، أضحت معالم مُهمّة للتّدينّ الشيعة، وجعلت من العقيدة الشيعية مكوّنًا أساسيًا من مكوّنات الهوية القومية الإيرانية.

ولمّا بدأت الضغوط تشدّد على إيران من جانب روسيا وبريطانيا في القرن التاسع عشر، سارع العلماء إلى تصدّر الصفوف في المقاومة الوطنية. ففي العام 1873، أجبر العلماء الشاه على إلغاء امتيازات اقتصادية ومالية بعيدة الأثر كان قد منحها ل مواطن بريطاني يدعى البارون دو رويتر. وفي تصميحيات القرن التاسع عشر، قادوا حركة إضراب عمت البلاد بأسرها ضدّ منح بريطاني آخر، هو الميجور تالبوت، حق احتكار التبغ. والزعم السياسي المتولّد عن إضراب التبغ بلغ ذروته في الثورة الدستورية لعام 1906، حين أُجبر تحالف من العلماء الليبراليين والتجار وأفراد من الشريحة المثقفة المتفريضة الشاه على الدعوة لعقد جمعية وطنية والقبول بشكل من أشكال الحكم

بدأ تاريخ إيران الجديد مع السلالة الصفوية (1501-1722)، التي اتخذت من المذهب الشيعي الاثني عشري ديناً للدولة. ومؤسّس الأسرة الصفوية هو الشيخ صفّي الدين (1252-1334) الذي كان شيخاً صوفيّاً ومجدداً للولاء السنيّ. وقد استهلّ حركة من الإصلاحات بين القبائل شرق الأناضول وشمال غربي إيران. أما خلفه الشاه إسماعيل (1487-1524)، فقد أحيا الآمال الأخروية الشيعية في فترة الفوضى التي سادت عقب انهيار الدولة التيمورية بأن أعلن نفسه «الإمام المستور»، أو المخلص المنتظر لدى الشيعة. أتاحت هذه الحركة، وفي مقدمتها عصبية مُرعبة من المحاربين يعرفون بـ «القراباشي»، أي أصحاب الرؤوس الصهباء (نسبة إلى العمامة الحمراء التي



كانوا يعتمرونها)، أتاحت للشاه إسماعيل، الذي كان أعلن نفسه ملكاً في تبريز عام 1501، بأن يخضع لأمره معظم الأراضي الإيرانية في غضون العقد التالي. بالرغم من أن سلطان الدولة الصفوية من عاصمتها الجديدة الرانّة أصفهان التي بناها الشاه عباس الأول (1588-1629)، لم يكن مطلقاً لاعتمادها في ممارسته على شبكة من «الأوقاف» (شيوخ القبائل الصغاري، وعلى نظام الإقطاع التقليدي في الزراعة الخراجية، فإن استراتيجية الاندماج الديني التي اعتمدها الصفويون منحت إيران طابعها الشيعي المميّز الذي ما برحت تحتفظ به إلى يومنا هذا. ما إن أدّى القراباشي المهمة المنوطة بهم حتى خفّت نبرة التشديد على مزاعم إسماعيل «المهدوية»، واستقّدم فقهاء شيعة من العراق والبحرين والإحساء لإعلاء شأن الصيغة «الرسمية» من الشيعة الاثني عشرية، ومؤدّها أن عودة الإمام المهدي المنتظر مؤجّلة إلى أجل غير مسمى. فقّع المذهب السنيّ، وتبسّست أضرحة الأولياء الصوفيّين، وأُفردت الخانقانات لاستعمال الشباب الشيعة. كذلك تعرّض

الشاه سلمان وبعض هاشمته، فضلاً عن شيوخ غربيين، يظهرن هنا على خلفية منظر طبيعي من النمط الأوروبي الشاعري. كان الحكام الصفويون يسنّدون السجاد والحبر إلى أوروبا، وكذلك الأتية الغزفية من تصمهم حرفيين مهنيين إلى أسواق الغرب. لقد أفلتوا عن إهداء ذلك العزاء الديني المعهود بحال تصوير الأشخاص بالزعم أن الإمام عليّ، الذي يعبّله الشيعة، كان هو نفسه رسماً وخلفاً أيضاً



المذكور عمل على تنفير رجال الدين، والعديد منهم كانوا هم أنفسهم ملاك أراضٍ أثرياء أو قُبيحين على مساحات شاسعة من أراضي الوقف. والارتفاع المفاجيء في أسعار النفط بعد عام 1973، ضاعف من ثروة القطاع الاقتصادي الحضري الصغير، إنما أُنز سلباً على قطاع الأعمال الصغيرة المتركة في مجتمع «البازار»، الوثيق الصلة برجال الدين. كذلك، فإن فساد أسرة بهلوي والقمع الوحشي الذي كان يُمارسه البوليس السري (السافاك)، أسهما في تعميق اغتراب الطبقة الوسطى المتعلمة، ولا سيما جيل الطلاب الشباب المتأثرين بالماركسية أو بالنسخة الهسارية من الأيديولوجيا الإسلامية كما كان يروج لها الدكتور علي شريعتي، وجمال علي أحمد صاحب الكرسي بالغ التأثير الذي يحمل عنوان: «التصميم الغربي». لقد شكّل النازحون من الريف إلى المدن مادة لثورة سريعة الالتهاب.

بمقتضى صليقة توصل إليها الشاه مع صدّام حسين، طرد العراق رجل الدين المنطق آية الله روح الله الخميني من الحوزة الشيعية في النجف، حيث كان يدعو في دروسه إلى إحياء الحكم الإسلامي تحت إشراف العلماء، فقلقى محاضراته أذاناً صاغية من رجال الدين والطلاب على حد سواء. ومن منغاه في إحدى ضواحي باريس، وجد الخميني منفذاً إلى وسائل الإعلام العالمية، فيما كانت الأشرطة المسجلة بصوته لغزاقوه وخطبه المنددة بالشاه تُورب إلى داخل إيران. في سبتمبر عام 1979، وقعت سلسلة من المظاهرات الحاشدة تزامنت مع إحياء ذكرى عاشوراء، اضطُر معها الشاه إلى مغادرة البلاد إلى المنفى، فعاد عندئذ الخميني إلى دياره ليُسبّط استقبلاً صامحاً. ولمدة عشر سنوات، أي إلى حين وفاته عام 1989، حكم الخميني الجمهورية الإسلامية بوصفه المرشد الديني الأعلى. وإنّا كان آية الله الخميني، خلف الخميني كأعلى سلطة دينية في البلاد، يفتقر إلى الجاذبية الزعامية التي كان يتمتع بها سلفه، فإن الحق المخوّل إلى «مجمع تشخيص مصلحة النظام» الذي يسيطر عليه في فحص واختيار المرشحين لعضوية البرلمان، قد أعاق إلى حد بعيد قدرة هذا الأخير على إدخال إصلاحات تعتبرها المؤسسة الدينية مُناقضة لمصالحها.

البرلماني. تلت ذلك فترة وجيزة من الحكم الدستوري، برزت خلالها إلى السطح حالة من التوتر بين العلماء المحافظين والعلماء الليبراليين، ولم تنتهِ إلا على أيدي الروس عام 1911 حين تدخلوا لإعادة حكم الشاه الأوتوقراطي ثانية.

في عام 1925، وصل إلى السلطة ضابط من كتية فرسان القوزاق، هو رضا خان بهلوي، وذلك بعد فترة من عدم الاستقرار أعقبت الثورة الروسية. أقام رضا شاه نظام حكم يتميز بنزعة التحديثية الجذرية، وقد سعى ذلك النظام إلى تحطيم سلطة زعماء القبائل والحد من استقلالية رجال الدين عن طريق إدخال التعليم المدني العلماني وفرض إشراف الدولة على المدارس الدينية. كذلك أقيمت المحاكم المدنية التي جردت العلماء من احتكازهم للشؤون القضائية، بما في ذلك معاملات تسجيل وانتقال ملكية الأراضي التي كانت تدّر عليهم أموالاً طائلة. وخلال الحرب العالمية الثانية، احتاجت بريطانيا وروسيا إلى حكومة إيرانية طيعة لتسهيل أمر وصول الإمدادات الحربية إلى الجبهة الشرقية، فأجبرتها رضا شاه على التنحي ونصبنا مكانه ابنه الشاب محمد رضا بهلوي.

وبعد الحرب العالمية الثانية، صار النفط، الذي اكتُشف لأول مرة في العام 1908، وتمّ تسجيّره للبريطانيين بموجب الامتيازات السفية الممنوحة لهم، محل نزاع وتنافس حين حاول رئيس وزراء إيران الوطني، محمد مصدّق، تأميم شركة النفط الإنطونية - الإيرانية. وفي خضم الأزمة الناجمة عن مقاطعة شركات النفط الغربية للبترول الإيراني، تدخلت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (سي آي إيه) لمساعدة الجيش في إعادة أسرة بهلوي إلى سدة الحكم الأوتوقراطي من جديد.

كان انهيار نظام حكم الشاه في العام 1979 وقيام الثورة الإسلامية بعيد ذلك، حصيلة مجموعة مركبة ومعقّدة من العوامل الاقتصادية والثقافية والسياسية. فبدلاً من أن يعود برنامج الإصلاح الزراعي الطموح الذي نفّذه الشاه في ستينيات القرن العشرين بالفائدة على صغار الفلاحين ممن يستأجرون الأرض أو ممن لا يملكون أية أرض بالمرّة، جاء محابياً للشركات الكبرى ومشاريع الأعمال في قطاع الزراعة التي كان للعائلة المالكة مصالح أكيدة فيها. زد على ذلك أن البرنامج

## آسيا الوسطى إلى العام 1700

بذلك أمبراطورية سوف تمتد في أوجها من غرب الهند (بما في ذلك دلهي) إلى سواحل البحر الأسود. وقد طبقت شهرته الآفاق في أوروبا عندما هزم العثمانيين في أنقرة عام 1402، حيث أسر السلطان بايزيد الأول (ح 1389-1402). وهذا الخلل الذي اعتور قوة العثمانيين في الأناضول خفف من الضغط على القسطنطينية، التي ستجود لمدة نصف قرن آخر، وأعاد فتح طريق التجارة إلى الصين، في حين ساعدت الهزيمة التي أنزلها تيمورلنك بالقبيلة الذهبية في صعود نجم روسيا المسيحية في عهد تيمورلنك وخلفه أولنغ بك (ح 1404-

على غرار تاريخ الهلال الخصيب حيث ظهر الإسلام، حكمت تاريخ آسيا الداخلية العلاقة ما بين الأقوام الرومية البدوية والأقوام الحضرية المستقرة. في تلك السهوب الرحبة شبه القاحلة، الواقعة إلى الشمال من البحر الأسود وبحر قزوين، عاشت شعوب تعتمد في معاشها بالدرجة الأولى على الأبقار والخيول والماعز والغنم والإبل والياك. كانت تلك الشعوب منظمة في جماعات قروابية أبوية أساسها الحوامل والأفخاذ والبطون والعشائر وما ينجم عن اتحاديها من قبائل، كذلك التي انضوت أكبرها تحت لواء جنكيزخان وخلفائه. فيقيادة ابن جنكيزخان، باتو (ح 1227-1255)، اتخذت «القبيلة الذهبية»، المشكلة من أقوام مغولية - تركية عرفت بالتناثر في روسيا، قاعدة لها من سرايتين (مفردها سراي، وتعني مقر البلاط) على نهر الفولغا، ومن هناك فتحت أوكرانيا وجنوب بولندا والمجر وبيلاروسيا وروسيا، حيث أقامت أمبراطورية مترامية الأطراف كان فيها الحاكم في موسكو بمثابة دافع الجزية الرنمسي. دخلت الأسر التركية البارزة في الإسلام منذ منتصف القرن الثالث عشر بعد اتصالها بالشعوب المستقرة في إيران وخوارزم وبلاد ما وراء النهر. والإسلام الذي حملته التجار والدراويش الصوفيون المتنقلون على طريق الحرير إلى مناطق آسيا الداخلية، اكتسب هناك طابعاً غريباً وتعديداً بفعل احتكاكه بالزرادشتية والبوذية والمسيحية النسطورية والديانات الشامانية الأقدم عهداً. كان لدخول ترمارشيرين في الإسلام، وهو الذي حكم مدة ثماني سنوات (1326-1334) بلاد ما وراء النهر التي كان أوّلها جنكيزخان لابنه جغتاي، عاقبة تمثّلت بانشقاق أصصاب عشيرته. وقد عرف تيمورلنك، وهو فرد حاز على احترام عشيرة التركمان الفقيرة، كيف يستثمر هذا الانشقاق بنجاح. بالرغم من أنه وُلد أعرج، فقد كان تيمور (أو تيمورلنك كما يُعرف في الغرب) استراتيجياً سياسياً لمعياً وقائداً عسكرياً قذاً طوال فترة حكمه (1370-1405). فبتوحيده بلاد ما وراء النهر وإيران (التي كانت محكومة فيما سلف من قبل الإيلخانيين، أحفاد هولاكو)، أعاد تيمورلنك السلطة التركية - المغولية إلى آسيا الوسطى، خالفاً

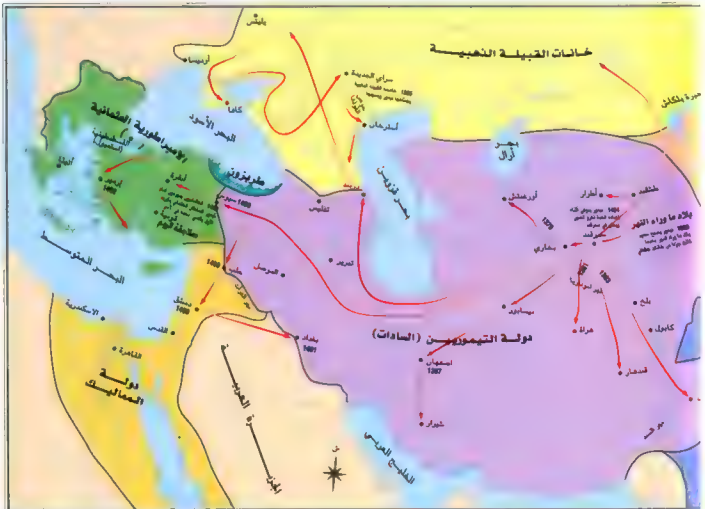


مسجد الشاه (مسجد الإمام حالياً) في أصفهان بإيران، وقد حملت منذئذته اسمي «الله» و«محمد» بأحرف هندسية بارزة كان بناء المسجد في الفترة 1612-1830، وتُلمّس زخرفته الرائعة بالقشاني الأزرق في حد ذاتها أسلوب الشاه عباس والأبهة التي كان عليها



العالية الإسلامية، تلك الثقافة المعترضة التي سيقدها من جاء بعده وإن بمزيد من الصقل والإثقان. كما عرّف عنه تسامحه وسعة صدره في الأمور الدينية. صحيح أنه كان مسلماً سنيّاً قام بفتحاته باسم الشريعة ويذريه أن أعداء زنادقة ومرتبون عن الإسلام، غير أنه حمى الشيعة من كل أنى. كما كان مشايخ الصوفية يُسدونه النصائح الروحية. وفي تلك الفترة بالذات، خرجت إلى حيز الوجود الطريقة الصوفية النقشبندية، التي سُميت كذلك نسبة إلى بهاء الدين النقشبند المتوفى عام 1389، والمدفون بالقرب من مدينة بخارى، لتعبر من ثم جذورها عميقاً في عموم آسيا الداخلية.

1449)، وتحت حكم الشهبانيين الأوّليّ (1500 - 1700) الذين ورثوا سلطة التيموريين في آسيا الداخلية، تحوّلت مدن هرات وسمرقند وبخارى إلى حواضر من الطبقة العالمية. فقد ازدهرت تلك المدن بالغنائم وأرباح ما أبدعه الحرفيون والفنانون الذين استقدمهم تيمورلنك وخلفاؤه من بلاد فارس والهند والعراق وسورية. لكن تيمورلنك، وبالرغم مما عرّف عنه من قسوة ووحشية فائقة (حتى إنه أمر بقتل أسرته بأكملها له بالإجهاز على آلاف الأسرى الذكور كي لا يتسنى لهم الالتحاق بأعدائه)، لم يكن بذلك المهمل الجاهل البتة. فقد كان يجيد الفارسية، ويحيط نفسه بكوكبة من أئمة العلماء والدارسين والفنانين والمؤرخين والشعراء في عصره؛ واضعاً المواصفات للثقافة

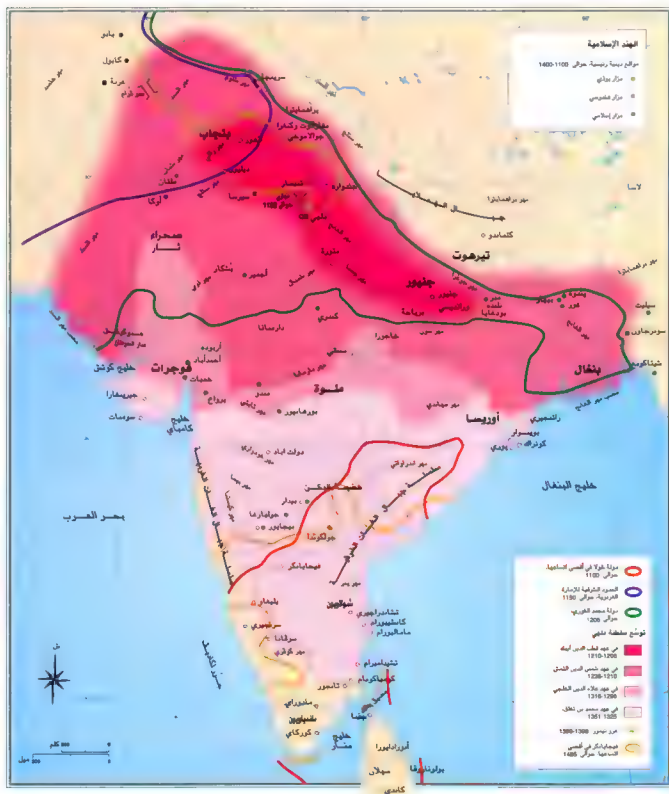


## الهند 711 - 1971

المسلمين في المناصب العسكرية والإدارية، وشارك شخصياً في المهرجانات والاحتفالات المحلية، كما سمح بتشجيع المعابد. وإذا كانت هناك فترة أولى تميّزت بهجرة إسلامية واسعة إلى الهند من أفغانستان وآسيا الوسطى عقب الفتوحات، إلا أن دخول السكان المحليين في الإسلام كان بطيئاً ومحدوداً نوعاً ما. فمن المشكوك فيه أن يكون أكثر من 20-25 بالمائة من سكان الهند تحولوا إلى الإسلام، مع تركيز تجمعات المسلمين في وادي السند ومنطقة الحدود الشمالية الغربية والبنغال. وفي حين كانت الطبقات الحاكمة من أحفاد المحاربين القادمين من أفغانستان وإيران وآسيا الداخلية، كان المسلمون في معظمهم من الطبقات الهندوسية الدنيا أو من الفئات القبلية والريفية التي شهدت حياتها تحسناً بانضمامها إلى طائفة الحكام الدينية هذا وقد انعكس التنوع الضخم في العقائد والعبادات والتقاليد الإسلامية بين المسلمين الهنود، سنة وشيعة ومتصوفة، بعدد وافر من الأشكال المختلفة. فالطابع التعديدي للإسلام الهندي انعكس في التراث المعماري المهيّب حيث امتزجت «الموتيفات» البلدية، الإسلامية والهندوسية، معاً في توليفة جديدة خلّاقة. وحتى الأدب التقوي الإسلامي، بما فيه الشعر، كتبت تجده في عدد كبير من اللغات الهندية، بالإضافة إلى العربية والفارسية، وهما اللغتان اللتان كانت تدرّسان في معاهد التعليم العالي إلى جانب علوم الشريعة وعلم العقائد والتصوف. وفي حين غلب على الطبقات الحاكمة النمط المدني من الحياة الإسلامية، الذي لا يختلف كثيراً عن الثقافة الكوزموبوليتانية في المناطق الإسلامية الأخرى كإيران وآسيا الوسطى، احتفظ المسلمون في الأرياف بتراث بلدي قوي، كثيراً ما كانت تختلط فيه الطوقس الهندوسية بالمعتقدات والعبادات الإسلامية. وقد اضططعت الطُرق الصوفية ومشايخها بدور بالغ الأهمية على وجه الخصوص في نشر الإسلام في جنوب آسيا. ومن بين أعظم هذه الطُرق شأنًا، نذكر: الطريقة السهروردية والطريقة الششتية. وإذا كانت هاتان الطريقتان تقيمان في تنطهيهما تراتبية تتماشى وطبيعة المجتمع الهندي، إلا أن أدوارهما الاجتماعية لم تكن متماثلة على الإطلاق. ففي حين أبقي السهرورديون على صلات وثيقة لهم بسلاطين

ظهر الإسلام أول ما ظهر في شبه القارة الهندية مع فتح العرب لبلاد السند في الفترة 711-713. وفي القرن العاشر، تمكن الدعاة الفاطميون الآتون من القاهرة من إقناع أمراء محليين في مَلتان باعتراف المذهب الإسماعيلي. غير أن هؤلاء استبدلوا بولاة من السَنَّة عِنْدَهم الغوريون في أعقاب اكتساح البنجاب من قبل محمود الغزنوي الذي انتهب لاهور وعاث في شمال الهند خراباً ودماراً في العام 1030. بدأت عملية الاستيلاء المنتظم على شبه القارة الهندية مع الغوريين الذين احتلوا مَلتان ولاهور ودلهي في الفترة 1175-1192، قبل أن يعمد أحد قوّادهم، قطب الدين أيبك، إلى تأسيس أول سلطنة من عدة سلطات مستقلة في دلهي. وقد دامت هذه السلطنات من عام 1206 إلى عام 1526 في ظل سلسلة متعاقبة من مختلف السلالات الحاكمة أسهمت سلطنات دلهي في إرساء الطابع المميّز للإسلام الهندي، وهو إرث تميّزته بالرعاية إمبراطورية المغول التيموريين التي تأسست على يد حفيد تيمورلنك، بابر، عام 1526. وقد امتد الزمن بهذه الأخيرة ما يتوفى على ثلاثة قرون، إلى أن حلّها الإنجليز عقب «الثمره» أو العصيان الكبير الذي اندلع عام 1858. اشتملت إمبراطورية المغول (أو المَغُل) في الهند على عدد من السلالات الحاكمة الإسلامية المستقلة التي قامت في البنغال (1356-1576)، وكشمير (1346-1589)، وقوجارات (1407-1572)، والدكن (1347-1601). وكان أقصى اتساع لهذه الإمبراطورية في عهد أورانجزيب (ح 1658-1707)، حيث كان اسم هذا الإمبراطور يتردد من على منابر المساجد من كابول وحتى ميسور.

البعض من أوائل الحكام المسلمين كان يتلقّى حماسة ضد «عبدة الأوثان» وهووساً بتحطيم التماثيل الدينية، فدمّر المعابد الهندوسية، مستبدلاً إياها بمساجد بالغة الضخامة يزد منها أن ترمز إلى السيطرة الإسلامية. غير أن سلالة آل تغلق (1320-1413) استهلت نمطاً من التسامح ساهم في إرساء رؤية تعددية للإسلام في الهند تختلف عن الأنماط الأشد صرامة وتزمتاً التي عرفتها الأُسنة الأولى فلكي يحذ من التفوذ السياسي للأمر الإسلامية المستتبّة، عمد مؤسس السلالة الحاكمة التغلقية، السلطان محمد تغلق (ح 1325-1351) إلى توظيف أناس من غير

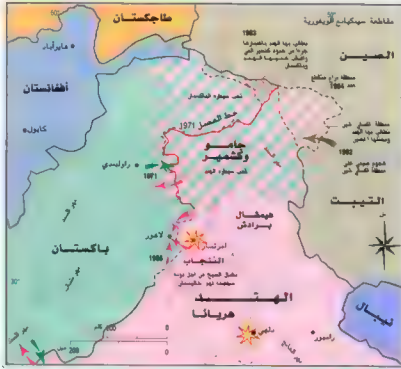












النزاع على كشمير  
1971-1949

→ مهاد باكستاني

→ خدمات مدنية

✱ اضطراب واضع حتمي

موقع يعود إلى معبد إله الأبطال رامنا، وأقدم المتعصبين الهندوس على هدمه عام 1991، ما برح مثار تنازع وخصاص شديدين بين الهندوس والمسلمين في الهند. وخلال الاضطرابات الطائفية التي أعقبت هدم المسجد، قُتل آلاف المسلمين. ثم عادت وتكررت القصة بصورة مأساوية عام 2003، عندما هاجم مسلمون في قوجرات حجاجاً هنوداً كانوا عائدتين من أيوديا، مما تسبب باندلاع نزاع طائفي واسع النطاق في المنطقة.



الأخر

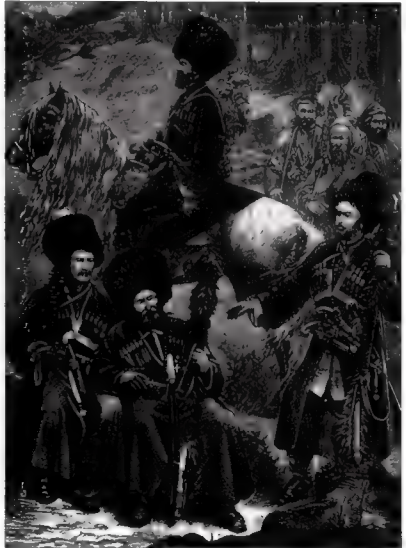
أعطيت الهند استقلالها عام 1947، من تشكيلة متباينة ومتفاوتة من التجمعات السكانية المسلمة المتواجدة في السند، وبلوشستان، والمقاطعة الحدودية الشمالية الغربية، والنصف الغربي من البنجاب، وشرق من البنغال؛ وهذا الأخير منطقة إسلامية بالأساس، ويقع على بُعد ألف ميل أو أكثر إلى الشرق، وتفصله عن سائر المناطق الباكستانية أراضي الهند. في باكستان الغربية، أكثر من نصف سكانها كانوا من أهالي البنجاب، وزهاء 20 بالمائة من أهالي السند، و13 بالمائة من البشتون، و3-4 بالمائة من البلوش، والبقية من «المهاجرين»، أي النازحين من الهند، دع عنك أقليتين صغيرتين، إحداهما هندوسية والأخرى مسيحية. وقد نجم عن تبادل السكان الذي تلا التقسيم، حمام دم مروع قتل فيه مئات الألوف في أعمال شغب طائفية وعرقية. وتسبب النزاع العالق حول كشمير، التي احتار حاكمها الهندي الانضمام إلى الاتحاد الهندي خلافاً لرغبة السكان المسلمين، في نشوب ثلاث حروب بين الهند وباكستان في الأعوام 1949 و 1965 و 1971، ناهيك عن حلقة لا تنتهي من التمرد والقمع. هذا وقد تجلّت هشاشة باكستان السياسية في تناوب سلسلة متعاقبة من الحكومات العسكرية مع فترات من الحكم الديمقراطي المتقلقل ثلّوها أحزاب متهمّة بالفساد وفقدان الشرعية الإسلامية. وفي النهاية، تبين أن الجيش، الذي تُمسك بزمامه طبقة من الضباط البنجابيين المدربين على أيدي البريطانيين، هو المؤسسة الوحيدة القادرة بالمصفاة على وحدة البلاد في عام 1971، وبمساعدة عسكرية من الهند، انفصلت باكستان الشرقية عن نظيرتها الغربية لتشكل دولة بنغلاديش الإسلامية المستقلة. والعلاقة القائمة على المناكفة والمشاكسة بين الهند وباكستان، وكلتيهما الآن دولتان نووكتان، ما برحت تتقطر التسوية والطمح. إن تآكل الثقافة العلمانية في الهند من جراء الانبعاث السياسي الهندوسي والرهاب الرسمي من الإسلام الذي تتسامح به من وقت لآخر بعض الولايات، وبالأخص ولاية قوجرات، قد جعل وضعها الأقلية المسلمة المتبقية في الهند - ويبلغ تعدادها زهاء 120 مليون نسمة، أي حوالي 10 بالمائة من مجموع السكان - وضعية شديدة العطب أكثر من أي وقت مضى منذ التقسيم. إلى الآن، والوعي الشعبي الهندي لم يستوعب تماماً الإرث الثقيل للفتوحات الإسلامية ومصادق كلامنا أن مسجداً في أيوديا، يُقال إن بابر بنده في

## التوسُّع الروسي في ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى

القتار. ففي خمسينيات القرن السادس عشر، تأتى لموسكو أن تستوعب دولتي قازان وأستراخان الإسلاميتين المتمتعتين بالحكم الذاتي، الأمر الذي منحها السيطرة على حوض الفولغا والسواحل الشمالية لبحر قزوين، وفتح أمامها السبيل إلى اكتساح السهوب الكازاخية. كان الكازاخيون قد خرجوا من اتحاد القبائل التركية - المغولية الذي أوجد الدولة التيمورية والدول اللاحقة، وبقي «القازاق» (أي الطوائف بحرية) سادة للسهوب. فأقام الروس سلسلة من الحصون ما بين نهري أورال وإرطيش. وهكذا تسنى لهم أن يخضعوا المنطقة بكاملها للسيطرة الروسية؛ ومن أبرز معالم هذه العملية، إلغاء خانات الكازاخيين في عشرينيات القرن التاسع عشر، إلّا أن المقاومة الكازاخية المدفوعة إسلامياً سوف تتواصل حتى العقد السادس من القرن عينه.

اتسم الحكم الروسي للسكان المسلمين في مراحله الأولى بمنتهى القسوة والبطش. فقد تعرّضت طبقة الأشراف القترية للتفتيش القسري، ولُحِدت من المدن المهمة، وسُمت أراضيها إلى النبلاء الروس والأديرة الروسية، الذين قاموا على استغلالها بواسطة الأفنان والرهبان الأرثوذكس. وقد جرى تلطيف هذه السياسة شيئاً ما في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية (الكبيرة)، التي نظرت إلى الإسلام على أنه ذو أثر تديني أكبر من المسيحية. فكفّلت للمسلمين حريةهم الدينية، وشهدت المساجد برعاية الدولة، وأنشئت المؤسسات التي تتمتع بسلطات واسعة على السكان المسلمين. غير أن هذا الوضع ما كان ليدوم طويلاً. ففي شبه جزيرة القرم، التي انتزعتها روسيا من قبضة العثمانيين في العام 1783، وضع الروس أيديهم على أراضي القتار وصادروا الأوقاف لصالح المستوطنين الأوروبيين. وإلى مسافة أبعد شرقاً، سقطت الشعوب الرعوية بالأساس في أسيا الداخلية فريسة الأطماع الاستعمارية للجفرالات الروس ورغبة القيابصرة في تأمين المصالح التجارية مع إيران والهند والصين، رداً لأي تناقص بريطاني محتمل. احتكّت طشقند عام

إن التوسُّع الروسي في بلاد ما وراء النهر والقوقاز، هذا الذي سبيلج ذروته بإدماج ما يربو على خمسين مليون مسلم ضمن الاتحاد السوفييتي، إنما بدأ أول الأمر في القرن الخامس عشر حين تخلص حكام موسكو من نهر



رسم بصوِّر الإمام شامل الداغستاني (حوالي 1797-1871) محتلياً صورة جواده؛ من مطبوعة روسية تعود إلى العام 1860. خاض شامل غمار حرب بطولية ضد الروس ما بين عامي 1834 و 1860، مشغولاً برعاية حميه الروحي، شيخ الطريقة النقشبندية. صمّح أنه هُزم في نهاية المطاف ونفي خارج بلاده، إلّا أن ذكره بقيت حيّة في دافستان والشهبان، تلهب العواطف وتثير لاسئلة لا تنقطع من الثورات ضد روسيا و ضد السوفييت حتى يومنا هذا

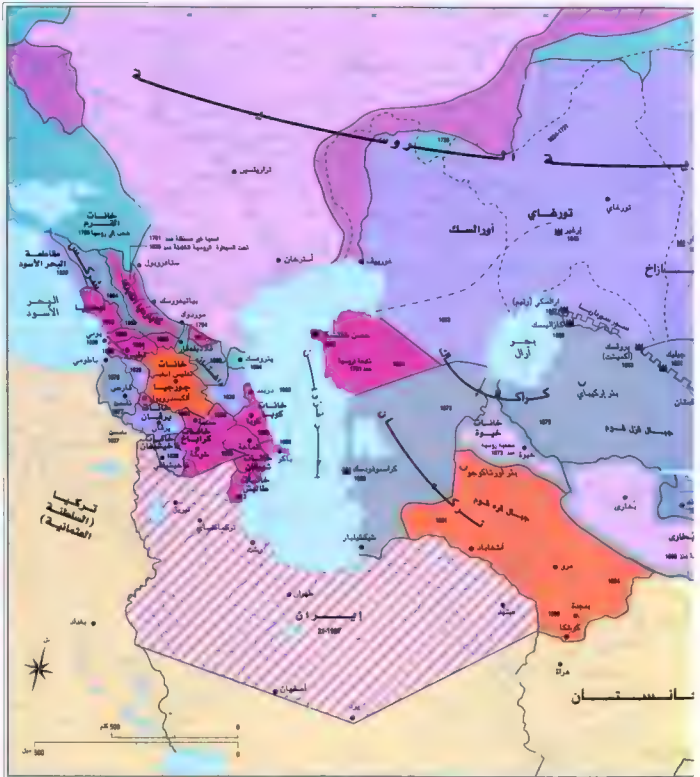
لقد جرى التصدي لأية إمكانية بقهاض تضامن سياسي بين المسلمين السوفيت باتت سياسة «فرق تسد» عن سابق تصوّر وتصميم. ودول آسيا الوسطى الحالية إنما تدبّ بحدودها الإقليمية لستالين؛ فقد ردّ على خطر القومية التركية الشاملة والقومية الإسلامية الجامعة بتقسيم أراضي تركستان الروسية إلى خمس جمهوريات هي: أوزبكستان، وتركمانستان، وكازاخستان، وقيرغيزستان، وطاجيكستان، وقسم وادي فرغانة المزدهر، الواقع في قلب المنطقة الذي طالما شكّل وحدة اقتصادية واحدة، ما بين الأوزبك والطاجيك والقيرغيز. وقد استلزمت السياسة التي انتهجها ستالين أن يُصار إلى التشديد على الفوارق الطيفية في اللغة والتاريخ والثقافة بين هذه الشعوب التركية في غالبيتها، وذلك بغية الوفاء بالمعيار اللينيني للقومية الذي ينصّ على وجوب أن تكون هناك لغة واحدة، وأرض موحدة، وحياة اقتصادية وثقافية مشتركة. وعلاوة على الترتيبات الجديدة المتخذة في تقسيم الأراضي بين الجمهوريات، جاء تطويق مبادئ الجماعة والزراعة الأحادية ليقيد حركتها إلى أبعد الحدود. فتمقتضى مخطط خروتشيف الفاص بالأراضي البكر، جرى تخصيص مساحات شاسعة من كازاخستان لإنتاج الحبوب. وحين قاوم الكازاخيون - وغالبيتهم من الرعاة - هذا المشروع، جيء بالسلافيين وأقوام أخرى للقيام بالعمل. وفي أوزبكستان، أصبحت حصة القطن من إجمالي الناتج المحلي أكثر من 80 بالمئة، وهذا ما خدم مصالح النخب العزبية الحاكمة، التي صار بعض من أفرادها ضالعين في عمليات احتيال ضخمة أسسها القزوين المتعمد والمنظم لأرقام الإنتاج. كما ترك ذلك ذبلاً بئيتة وخيمة لأنه حرم المعاصيل غير القطنية من مياه الري، وجفف الأنهار والبحيرات، بما فيها بحيرة آرال.

وبداعي الارتباب بولاء المسلمين خلال الحرب العالمية الثانية، لأن البعض منهم أبدى تعاوناً مع الألمان، قام ستالين بترحيل سكان الشيشان وأنغوشيا عن بكرة أبيهم، ومعهم جميع التتار القاطنين في القرم، إلى آسيا الوسطى.

1885، وسمرقند عام 1888، وأجبرت بخارى على فتح حدودها للتجار الروس. وفي شمال القوقاز، أخذ الروس ثوران المقاومة التي أنهيتها الطريقتان الصوفيتان النقشبندية والقادرية، فأطاحوا بالدولة الإسلامية التي أعلنها الإمام شامل عام 1859. ولم يزرغ فجر القرن العشرين إلا وكان الفتح القيصري لما وراء القوقاز وآسيا الوسطى قد اكتمل عملياً.

وبدلاً من أن تؤدّي الثورة البلشفية (1917-1918) إلى تفكيك الأباطورية القيصريّة، عملت بالأحرى على توسيعها وزيادة تماسكها. وأثر المثقفون المناهضون بالإصلاح الإسلامي، الذين عرفوا باسم «التجديدين»، الانضمام إلى الحزب الشيوعي في نضالهم ضد المؤسسة الدينية المحافظة، يحدوهم في ذلك الأمل في أن يتحكّموا من تعديل السياسة الروسية بما يلبي حاجات السكّان المسلمين، وبطريقة صهيغة من القومية الإسلامية من خلال التحالف مع روسيا السوفيتية. لكن ستالين ودعاة المركزية في الحزب أحبطوا مساهم هذا بشايرتهم ومكائدهم. فألقى القبض على الشخصية البارزة بينهم، وهو مير سعيد سلطان غاليف (م 1880)، في العام 1928 واختفت آثاره بعد ذلك بفترة وجيزة. مهما يكن من أمر، فإن الشعور بوجود قيم مشتركة بين الإسلام والشوعية، كالعندالة الاجتماعية، وتقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة وأولوية المجتمع على الفرد... الخ، حدت بهم إلى العمل من أجل قضيتهم ضمن صفوف الحزب باتتبع أسلوب «التيقّة». لكن سرعان ما تمّ الانقضاض على الإسلام الرسمي إبّان الثلاثينيات من القرن العشرين عندما أطلق ستالين «ثورته الثانية» من فوق. فسُكّمت المساجد إلى «اتحاد الملحدين» كي يُصار إلى تحويلها إلى متاحف أو إلى مقاصف للهو، فحما طال التحريم الفعلي ركنين من أركان الدين الإسلامي، وهما: الحج والزكاة. أما حظر استعمال الحروف العربية واستبدالها بالحروف اللاتينية، ولاحقاً بالحروف السيريلية، فقد ضمنا صعوبة وصول الأجيال السوفيتية في المستقبل، قياساً بما كانت عليه الحال في الماضي، إلى نصوص الإسلام المتعارف عليها.







القول، بوجه عام، أن التراث الإسلامي في أندونيسيا متبلور في تيارين عريضين: التيار «الأينغاني» الريفى، الذي يتحيز قدرًا من التسامح مع الأعراف المتضاربة وأحكام الشريعة الإسلامية، كإنساق التوريت الأمومية الطابع مثلًا؛ والتيار «السانتري» الأكثر تزمًا القائم في المدن. هذا ولئن كان الإسلاميون المحدثون في ماليزيا وإندونيسيا يعارضون على العموم التعددية والتمازج الثقافي، إلا أن الحقيقة تبقى ماثلة أمامنا، وهي أن كلا البلدين قد عرفا الثورة الصناعية التي وضعتهما في موقع متقدم بأشواط بعيدة على إيران وباكستان والبلدان العربية – الإسلامية من حيث التنمية الاقتصادية على الأقل.

التاريخ الإسلامي في آسيا الوسطى والغربية في بعض الحالات، كانت موجات المد الإسلامي الآتية من الهند أو الجزيرة العربية تخلف وراءها بقية من طقوسات وعبادات تدخل فيها تقاليد أقدم زمنياً، في جاوه على سبيل المثال، كان القرويون يصفون أنفسهم بالمسلمين، لكن ثقافتهم الفعلية كانت خليطاً من العناصر الإسلامية والهندوسية والإرواحية. وفي أماكن أخرى، كما في مينانغو مثلاً، حدث بعد فترة من الانتعاش الاقتصادي في القرن الثاني عشر، أن سيطرت تيارات إصلاحية تدعو إلى المزيد من التمسك بالشريعة الإسلامية، نجت عنها مشاحنات ومنازعات اجتماعية انتهت بتوسط الهولنديين فيها ومن ثم وضع بهم على المنطقة (1839-1845)، يمكن



## الأمبراطوريات البريطانية والفرنسية والهولندية والروسية

كانت التجربة الجديدة سريعة بصورة استثنائية إذ لم يحل عام 1920، حتى كانت القوى الأوروبية قد طوّقت كوكب الأرض عملياً من أقصاه إلى أقصاه، فيما خلا تلك المناطق التي عُدَّتْ غير مأهولة، أو فقيرة، أو نائية أكثر من اللازم بحيث لا تستأهل إدراجها ضمن المآرب الامبريالية.

وقف قادة المسلمين، وروحيين وزمنويين على السواء، في صدارة الصفوف المُقاومة للاكتساح الأوروبي للعالم. ففي جابو، تزعم الأمير دهبانغارا، وكان ينتمي إلى إحدى الأُسَر الحاكمة التي استكانت للنفوذ الهولندي وأذعنت لضغوط المزارعين الأوروبيين، ثورة ضمت فلاحين مهجرين وزعماء دينيين دامت من عام 1825 إلى عام 1830. وفي البنغال، حيث كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تتعاطى التجارة منذ أوائل القرن السابع عشر، فتحت الهزيمة التي نزلت بحاكم محلي، هو نواب سراج الدولة، حاول تحميم الشركة الهندوكورية، في معركة بلاسي عام 1757، الباب واسعاً للغزو البريطاني. وإثر هزيمة أخرى في بوكسار عام 1784، انتقلت السيادة الإسلامية إلى مملكة ميسور الهندوسية سابقاً، المترامية الأطراف، حيث نظم حيدر علي، وهو جندي من البنجاب، قوة مقاتلة منضبطة على النمط الأوروبي بمساعدة فرنسية. وقد تمكن ابنه ووريثه، تيبو سلطان (1750-1799) من إحراز انتصار باهر على الجيش البريطاني في معركة كونيغرام، بالقرب من مدراس، قبل أن يلقى حتفه في آخر المطاف عام 1799 في سرينغابتم، وهي المعركة التي أنهت فعلياً كل مقاومة للحكم البريطاني في جنوب الهند. وبعد ذلك انتقل مسرح المقاومة إلى منطقة الحدود الشمالية الغربية، أو إلى داخل صفوف الجيش الهندي ذي القيادة البريطانية. ففي أواخر العشرينيات من القرن التاسع عشر، حاول سيد أحمد بارلوي (1786-1831)، الواعظ والمبشر بالتعاليم التبشيرية الإصلاحية، وكان أمضى قرابة ثلاث سنوات في مكة، أن يعييه البشتون «الجوسفزاي» في مقاطعة الحدود الشمالية الغربية كجزء من حملة أوسع نطاقاً لإصلاح الإسلام الهندي. لكن هدفه المتمثل بإقامة دولة إسلامية على

إثر الزيادة الهائلة في قُدرة واقتدار البلدان الأوروبية التي أخذت تتق لها القلعة على العالم الإسلامي منذ بدايات القرن التاسع عشر، إنما تعود بأسبابها إلى الثورة العلمية التي شهدتها القرن السابع عشر، وإلى الثورة الصناعية المتولدة عنها. قبل منتصف القرن السابع عشر، كانت الحضارتان الغربية والإسلامية على قدم المساواة نسبياً، عسكرياً واقتصادياً. لكن بحلول العام 1800، كان الميزان قد مال على نحو حاسم ودائم لصالح ما صار يُنظر إليه على أنه «الغرب». إن حملة نابليون المشؤمة على مصر، لم يوقفها المعارك الجدد الذين أذلقهم طعم الهزيمة في معركة الإهرامات، بل أنهتها الأميرال البريطاني تلسون، الذي حطم الأسطول الفرنسي في خليج أبو قير. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، سيكون التفافس، العسكري والاقتصادي، بين دول أوروبا نفسها، وليس النزاع بين العالم الإسلامي والغرب، هو من سيقرر الأجندة التاريخية للشعوب المسلمة.

عديدة هي التفسيرات التي سبقت للأسباب الكامنة وراء ذلك التعاطف التصاعدي في قوة أوروبا ومنعتها. وهي تتراوح ما بين روح الرأسمالية المتأنتة عن الإصلاح الديني البروتستانتي، إلى المطالبة عن غير انتظار للثروات المجلوبة من الأميركيتين، إلى المنهجية الجزرية في إخضاع كل شيء دونما استثناء للمساءلة، تلك التي نادى بها الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، السلف الأكبر للثورة العلمية. وأياً تكن الأسباب، فإن النتائج كانت بعيدة الأثر حقاً، وغير قابلة للرجعة. فقد راحت الرسائل الأوروبية تستثمر بانتظام، والعمرة تلو الأخرى، في تمويل الابتكارات والتجديدات التقنية في طرق الإنتاج الصناعية، كغزل القطن مثلاً، التي من شأنها أن تقضي بالمنافسة على طرق الإنتاج التقليدية. هذا بينما نشرت القوة العسكرية الأوروبية، المستفيدة من التحسينات التقنية المتواصلة، لحماية الأسواق المعدة لتصرف المنتجات المصنّعة وتوسيعها بكل السبل الممكنة، الأمر الذي أفضى إلى انهيار الاقتصادات المحلية، وتداعي قُدرة البلدان غير الأوروبية على المقاومة. ومن منظور التجارب السابقة، تجربة الدويلات الصليبية مثلاً، وتجربة فقدان الأندلس تدريجياً لصالح المسيحيين،



من جهة أخرى، واجه البريطانيون والفرنسيون بدورهم حركات مقاومة مشابهة في جميع أرجاء إفريقيا المسلمة. فقد قاد الأمير عبد القادر أحد مشايخ الطريقة القادرية، المقاومة ضد الحكم الفرنسي بعد استيلائه على الجزائر في العام 1830. وليس ذلك فحسب، بل إنه أقام دولة إسلامية في غرب الصحراء الكبرى، وقد دامت حتى عام 1847، حين تغلب الفرنسيون عليها آخر الأمر، وأرسلوا عبد القادر إلى المنفى. وفي العام 1881، أعلن محمد أحمد، وهو من مشايخ الفرقة السنانية من الطريقة الصوفية الخلواتية، أنه المهدي المنتظر في منطقة أعالي النيل،

تراب حرٍّ من كل سيطرة بريطانية، أجهض على أيدي السيخ الذين هزموه في موقعة بالاكوت عام 1831. بهد أن منطقة الحدود الشمالية الغربية بقيت بؤرة لمقاومة الحكم البريطاني زمنًا طويلاً بعد رحيل بارلوي. فما بين عامي 1847 و 1908، اندلع ما لا يقل عن 60 تمرداً ضد البريطانيين. والكثير منها كان ذا نبرة «ألفية» واضحة، وجميعها تقريباً اكتسبت شرعية دينية بوصفها جهاداً ضد حكم الكفار. إن العديد من هذه الحركات المناهضة للإمبريالية الأوروبية قادها رجالٌ نشأوا وتمرسوا ضمن قواعد سلوك الطُرق الصوفية وتراتبيتها الهرمية. ففي



وشرَّ جهاداً ضد الحكومة المصرية ومن يدعمها من الأجانب، بعدما دأبت على التغلغل في المنطقة بإمرة ضباط عسكريين أوروبيين. هذا وقد لقيت الهزيمة التي حلت بخليفة المهدي في أم درمان عام 1898، تهليلاً وترحيباً من ونستون تشرتشل، الذي شهد المعركة، بوصفها «أروع انتصار يُحرزه في أيما وقت سلاح العلم على البرابرة». «وسلاح العلم» في تلك المناسبة كان المدافع الرشاشة البريطانية. لقد كانت هذه أسلحة مألوفة استخدمت في الحملات التأديبية الصغيرة في معظم أنحاء إفريقيا خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، غير أنها استعملت هنا لأول مرة ضد جيش يروي على خمسين ألف رجل.

القوزاق، مثلاً، خاض الإمام شامل، وكان من زعماء الطريقة النقشبندية، نصلاً مسلحاً ضد التغلغل الروسي في بلاده دام من عام 1834 إلى عام 1839. وإذا كانت الدولة الإسلامية التي أقامها شامل قد ضُمت في النهاية إلى حظيرة الأمباطورية القيصرية، فإن ذكرها بقيت حية في وجدان أهالي داغستان والشيشان، الذين قاموا بثورات متعاقبة ضد الروس في الأعوام 1863، 1877، 1917-1919، وكذلك إبَّان الحرب العالمية الثانية، ثم ضد إدارتي بوريس يلتسين وفلاديمير بوتين ما بعد الحقبة الشيوعية. وفي ولاية برقة، أضحت الطريقة السنوسية التي قبلت سلطان العثمانيين، مصدراً للمقاومة المنظمة عقب الغزو الإيطالي لليبيا عام 1911.

## الحركات الإصلاحية في القرن التاسع عشر

أريد للإسلام أن يحيا ويذهب في أحوال عصرنا هذا، فعلى المسلمين لزماً أن يقتنوا العلم الحديث ويأخذوا بأسباب التعليم المصري. وهكذا، أسس السهر سيد أحمد خان (1817-1898) جامعة في علكرة، الغرض منها بناء جيل عصري من الموظفين والمحامين والصحافيين المسلمين - ومن هؤلاء من سيتزعم عندما يحين الوقت الحركة الباكستانية. وثمة مجموعة أكثر محافظة من العلماء الهنود أنشأت أكاديمية في ديويند عام 1867، جمعت ما بين تدريس العلوم الدينية من قرآن وحديث نبوي وشريعة إسلامية، والعلوم العقلية كالمنطق والفلسفة والعلم. وقد استطاع الديوينديون هؤلاء من الوصول إلى كل ركن وزاوية من الهند الإسلامية، عن طريق الإفادة من شبكة السكك الحديدية الوليدة لتوزيع المطبوعات باللغة الأردية. وهذا ما جعل من ديويند مركزاً لمنهج جديد من الوعي الإسلامي الذي سرعان ما امتد إلى سائر البلدان، مع تقاطر العديد من الطلاب عليها آتين من أفغانستان وآسيا الوسطى واليمن، وحتى من الجزيرة العربية. وفي عام 1827، قام أحد خريجي أكاديمية ديويند، ويدعى مولانا محمد إلياس، بتأسيس «جماعة التبليغ» الإصلاحية. أريد من الجماعة في الأصل أن تدلي بسهمها في هداية المواطنين، وهم جالية فلاحية تظن بالقرب من دلهي، إلى شعيرة إسلامية شديدة التزمّت تجمع ما بين الالتزام بالشريعة والتأصل الصوفي في روح النبي محمد كما تُمارس الطريقة الششتية التي ينتسب إليها إلياس نفسه. وتعتبر «جماعة التبليغ» التي تتحاشى رسمياً التعاطي بأمور السياسة، واحدة من أسرار الحركات الإسلامية نوفا في العالم، حيث تتواجد لها فروع في أكثر من تسعين بلداً. ولعلّ أوسع المصلحين نفوذاً وأعظمهم تأثيراً في مصر، هو الشيخ محمد عبده (1849-1905)، الذي كان في الأصل من أتباع داعية الوحدة الإسلامية الجامعة المعادي لبريطانيا، السيد جمال الدين الأفغاني (1839-1897). لقد رافق عبده الأفغاني إلى منفاه في باريس بعد الاحتلال البريطاني لمصر، حيث أصدر أصدراً سوية مجلة «العروة الوثقى» باللغة العربية، التي وإن لم تعمّر طويلاً إلا أنها كانت ذات نفوذ لا يُنكر في عام 1885، تحلّ عبده من عداء مُرشده للأمبريالية، وقرّر لدى عودته إلى مصر عن طريق سورية، العمل على

كان لحركات التجديد، أو الإصلاح، التي هيمنت على الفكر الإسلامي والممارسة الإسلامية منذ القرن الثامن عشر، بُعْمان: داخلي وخارجي. داخلياً، إن مثال النبي محمد في مهاجمة عبدة الأوثان في مكة باسم دين التوحيد «الأصلي» الذي علّمه الله لآدم، ومن ثم لإبراهيم وإسماعيل، وما تلا ذلك من هجرته إلى المدينة وبناؤه مجتمعاً جديداً، وتطهيره مكة من كل مظاهر الكفر والشرك يُعيد عودته مظفراً إليها، ليعُدّ بعد ذاته نموذجاً إرشادياً وإطاراً مرجعياً للإصلاح الديني المنشود. وقد أرينا، على امتداد التاريخ الإسلامي، أناساً يتفهمون بالعلم والصلاح يتبنون هذا المعطى النبوي، فيتصدّون لحكام فاسدين أو يستبدلونهم باسم العودة إلى الإسلام الحقّ. إسلام محمد وأبنائه جيله، لقد ظهرت العديد من هذه الحركات في بحر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: بعضها كان بمثابة ردة فعل دينية على ممارسات محلية، من قبيل عادة زيارة أضرحة الأولياء ومشايخ الصوفية التي أدانها الوهابيون العرب؛ وثمة غيرها، كالحركات الإصلاحية في منطقة السنغال - غامبيا في غرب إفريقيا، اشتملت على مقاومة محلية ضد الشعب السياسية غير المسلمة. فيها كانت الكثرة منها، كالحركات الجهادية في منطقة الحدود الشمالية الغربية للهند أو المهديّة في السودان النيلي، مجرد ردة فعل ضد التغلغل الأوروبي.

بيد أن معظم الحركات الانفصالية للمقاومة والإصلاح أبصرت النور بين أقوام قبلية تعيش على أطراف العالم الإسلامي. وحتى لو كان على رأسها رجال علم من أمثال المهدي محمد أحمد أو عثمان دان فودي، ما كان ليكتب لها النجاح ما لم تستند قوة عسكرية - قبلية، وما إن لنضج أن الطول العسكرية مألها الفضل بسبب القدرة الكاسحة التي يتمتع بها الغرب، حتى بدأ المفكرين المسلمون بمقاربة السيناريو الإصلاحية بطريقة عقلانية. ففهما كانت الحركات ذات المساعدة القبلية تميز ما بين الممارسات الدينية السلمية والبدع غير المقبولة بالمرّة، كان المصلحون العقلانيون يعملون على تجديد الإسلام من خلال التمييز بين «أصول» الإسلام التي لا تقدر بزمن معين وقابلة للتكيف في كل آن، وبين «الفروع» التي تنطبق على ظروف بعينها. لقد أدرك المصلحون جميعاً أنه إذا



قارطة بخارية تُجرّ وإمامها عربات  
القطار المكتظة بالركّاب على سكة  
دارجلينغ الضيقة (حوالي العام  
1900). استغلت حركة دهباندي  
الإصلاحية شبكة السكك الحديدية  
لنشر أدبيات الإسلام في أرجاء  
الهلال، مما عزّز شعور المسلمين  
بكونهم جالية متموّزة في الهند

هذا المصلح الكبير من خلال أحكامه الشرعية وكتابهاته ومحاضراته، وبعد وفاته من خلال دورية «النار» لنشرها مريدوه السوري محمد رشيد رضا، المنتمي إلى الطريقة النقشبندية الإصلاحية، التي استمرت في الصدور من عام 1897 إلى عام 1935. إن تأثير محمد عبده كمجدّد للإسلام الحديث، لا يُمكن الاستهانة به على الإطلاق. لنأخذ على سبيل المثال، حركة «المصمديّة» التبشيرية التي تأسّست على يد أحمد دحلان وتتخذ من جاوه في جنوب شرقي آسيا قاعدة لها، والتي تضم حالياً ملايين المنتسبين من كلا الجنسين. إنها تدين بالكثير الكثير لأفكار محمد عبده بالذات. في العالم العربي، يُعزّ دحلان، إلى جانب الأفغاني، المؤسّس للحركة السلفية التي تستلهم مثال «السلف الصالح»، المتعارف عليه كلاسيكياً بأنه الأجيال الثلاثة الأولى من المسلمين الذين تلقوا رسالة الإسلام في سياقها الأصلي. والسلفيون المحدثون الذين يستطيعون الانتماء بأنهم جزءٌ من تراث عبده الفكري، يترأّون ما بين النشطاء المكافحين لإقانة دول إسلامية حديثة بوسائل العنف إذا لزم الأمر، والقوميين العلمانيين الذين يفسرون أفكار عبده بأنها تتطلّب فصلاً تاماً بين المجالين السياسي والديني.

وفاق مع السلطات البريطانية، التي رأى فيها قوة ضرورية لعملية التحديث. ويعدّ ما ترقى في مدارج القضاء ليُصبح المفتي الأكبر لمصر، سعى عبده إلى تحديث الشرع الإسلامي، وإلى إدراج مواد تعليمية مثل التاريخ الحديث والجغرافيا في مناهج الأضر، أبرز مؤسسة تعليمية للإسلام السنّي. وقد أبدى عبده عناية استثنائية بمبدأ «المصلحة» كي يتسنى له تعديل القوانين بما يتماشى واحتياجات العصر، قائلاً بما معناه: «إذا أصبح حكمٌ من الأحكام مبعثاً لفسدة أو ضرر لم يكن له في السابق، فحقٌ علينا أن نذهكه تبعاً للظروف الراهنة». آمن عبده بأن الوحي، إذا ما فهم على الوجه الصحيح، لا يتضارب أبداً مع العقل، لأن الإسلام «دين طبيعي»، خلقه الله ليلائم الشرط الإنساني. وعلى غرار أحمد خان، سعى عبده إلى التمييز بين ما هو جوهري وما هو غير جوهري في الوحي، بحيث تُصان الجوانب الجوهرية، وتُنبذ الجوانب التي كانت من الوجهة التاريخية عارضةً أو محدّدة بزمانٍ معين. فعارض دونما كللٍ ما كان يرى فيها نزعة مُحافظة ضيقة الأفق لدى رجال الدين والعلماء التقليديين. ومثل أحمد خان كذلك، شدّد عبده على الحاجة الماسّة إلى تطبيقات جديدة لمبدأ الاجتهاد بما ينسجم وظروف العصر الراهن. هذا وقد انتشرت آراء

## تحديث تركيا

ساندة في فرنسا أو بروسيا ما قبل الثورة، وإصلها خلفاؤه في سلسلة من البرامج عُرفت بـ «تنظيماتي خيرية» (أي التنظيمات الميمونة) ودامت قرابة أربعة عقود من عام 1839 إلى 1876. فأدخلت بمقتضاها الخدمات البريدية والهرفقية الحديثة، وكذلك السفن البخارية والسكك الحديدية، إلى جانب إصلاح النظام القضائي إصلاحاً جذرياً من خلال استحداث محاكم على النمط الغربي ونشر المدونات الحقوقية. كذلك اعتمدت مدونة جديدة للحقوق المدنية، عُرفت بـ «المجلة»، التي وإن أخذت بأحكام الشريعة الإسلامية من حيث المضمون، إلا أنها اختلفت عن العرف المتبع بأنها كانت تطبق من قبل محاكم الدولة.

وفي عام 1855، جرى استبدال «الجزية»، وهي الضريبة الرسمية على أتباع الأديان الأخرى، بضريبة تُستوفى مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية. وهكذا قامت الحكومة المركزية الجديدة، التي كانت في طور التكوين آنذاك، على قاعدة اجتماعية قوامها موظفون بهروقراطيون جدد مدربين تدريباً مهنياً رفيعاً. فتمتعت الطبقة الوسطى المدنية الصغيرة بوضع اقتصادي ناهض، أتاح لها أن تتحدى البنية السلطوية

يعود تحديث تركيا إلى قرنين من الزمن خلتها، حين حاول السلطان العثماني سليم الثالث (1789-1807) إدخال سلسلة من الإصلاحات التعليمية والعسكرية في البلاد. وقد هدّدت مساعيه هذه بالخطر مصالح رجال الدين والإنكشارية، فأقدموا على عزله لكن بعد هزائم متكررة منحت بها السلطنة في القوقاز واليونان، بذل خلفه محمود الثاني (1807-1839) جهوداً متجددة للإصلاح بإزشائه مدارس جديدة ذات توجه غربي، وقضائه على الإنكشارية، وحلّه الطريقة الصوفية البكتاشية المرتبطة بهم. وقد ضعفت استقلالية العلماء كثيراً بوضع الدولة يدها على الأوقاف والمحاكم الشرعية والمدارس الدينية. وحدث انفصال رمزي ما بين الدين والدولة بصدر مرسوم يحظر بموجبه اعتماد العماسة: هذه العماسة التي غالباً ما كانت علامة فارقة تدل على انتساب صاحبها إلى إحدى الطُرق الصوفية. ففوما عدا تلك التي يعتمرها العلماء الرسميون، جرى استبدال العماسة بالطربوش. تلك القبعة الأسطوانية الشكل المصنوعة من المخمل الأحمر والمستوردة من المغرب وتطلّعات محمود إلى خلق دولة ذات حكم مطلق ومركز، على النهج الذي كان

صورة اللقطات للقوات البريطانية التي نزلت، سوية مع قوات الطغاة الأخرى، في شبه جزيرة غالابوغي ما بين 25 نيسان/أبريل 1915 و كانون الثاني/يناير 1916. كان الهدف من تلك الحملة تهديد إستنبول، وفتح طريق للإمدادات المرسل إلى روسيا عبر البحر الأسود. أما القوات التركية، فكانت يومئذ بقيادة المقدم مصطفى كمال، الذي أجهض بجرأته وحيويته حملة الطغاة وكان لنجاحه هذا أكبر الأثر في وصوله إلى سدة الرئاسة فيما بعد





بموجبه صلاحيات «شيخ الإسلام» (المرجع الديني الأكبر في البلاد)، وفرض الإشراف الحكومي على المحاكم الشرعية والمعاهد الإسلامية. وعلى الرغم من التوجه القومي الذي صيغ حركة «تركيا الفتاة»، إلا أن هدفها كان الاحتفاظ بالشطر الشرقي من الإمبراطورية العثمانية. وهكذا بمساعدة ألمانيا، التي كان مستشاروها العسكريون يقومون بتنفيذ جملة إصلاحات داخل القوات المسلحة، مدّ خط سكة حديد برلين - بغداد. كذلك شهد العقد الأول من القرن العشرين بناء «خط الحجاز» الشهير الذي يربط دمشق بالمدينة، علماً بأن وصلة الخط إلى مكة لم تتجزأ قط. لقد أريد من شبكة السكك الحديدية، علاوة على تسهيلها حركة انتقال الحجاج إلى الديار المقدسة الإسلامية، أن تضمن كذلك سرعة وصول القوات والإمدادات إلى داخل البلاد لإخماد التمردات القبلية في سورية والحجاز العربية. ومع ذلك، فقد تواصل خروج المناطق من أيدي العثمانيين خلال العقد الثاني من القرن العشرين، بفقدانهم لليبيا وألبانيا ومعظم ممتلكاتهم الأوروبية في حروب البلقان. وجاءت الضربة القاصمة مع الحرب العالمية الأولى (1914-1918): فبانضمامها إلى دول المحور (ألمانيا وفرنسا) ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا، خسرت الإمبراطورية العثمانية ما تبقى لها من ولايات عربية أمام هجوم مثلث الشعب شنّه بريطانيا في العراق وفلسطين، وأمام هجوم القبائل العربية بقيادة الأمير فيصل، ابن شريف مكة، وبمعاونة المغامر الإنجليزي توماس إدوارد لورانس، الشهير بـ«لورانس العرب».

لكن تركيا، وبالرغم من خسارتها ولاياتها العربية، احتفظت باستقلالها كبلد مسلم بعد الحرب العالمية الأولى بفضل جهود مصطفى كمال (لقب فيما بعد بـ«أتاتورك»، أي أبو الأتراك). كان مصطفى كمال، الضابط المنتمي إلى «تركيا الفتاة»، قد أنقذ استنبول بدفاعه المستميت عن شبه جزيرة غاليبولي في وجه إنزال القوات الإمبراطورية البريطانية في العام 1915. وبعد تشكيله حكومة قومية مؤقتة، حشد أتاتورك الشعب التركي ضد سلخ قلب الأناضول عن البلاد، أو التنازل عن أية مناطق لسورية المسيطر عليها من قبل الفرنسيين، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اليونان والأكراد والأرمن (الذين قُسمت دولتهم المقترحة في الشمال الشرقي من السلطنة عملياً ما بين تركيا والجمهورية السوفيتية الناشئة حديثاً). وبعدما هزم اليونانيين، الذين سبق وكوّفوا بمنحهم المنطقة ذات الغالبية اليونانية حول إزمير بموجب شروط معاهدة سيفر

ذات الأساس الديني للجماعات المتعربة براء الدين. لقد غيّرت الإصلاحات التي جاءت بها «التنظيمات» الأساس السابق للمجتمع العثماني بتجريدتها المؤسسات التعليمية والقضائية الإسلامية من استقلاليتها ووضعها تحت إشراف الدولة المباشر. وكانت هذه الإصلاحات حافزاً على ظهور حركة «تركيا الفتاة» في أوساط المثقفين الراقعين في السير على النهج الأوروبي. وبالفعل، وصلت طلبية هذه الحركة، وهي «لجنة الاتحاد والترقي»، التي سبق لها أن اندست في صفوف الجيش، إلى سدة السلطة عبر



مصطفى كمال أتاتورك (1881-1938)، مؤسس دولة تركيا العثمانية الحديثة

انقلاب عسكري قامت به عام 1908. فأجبر السلطان على إعادة العمل بالدستور، الذي كان قد عُلّق عام 1876. صحيح أنه كانت هناك بعد الانقلاب حكومة برلمانية، لكنها كانت بمثابة واجهة فقط، إذ بقيت السلطة الفعلية في يد الجيش و«لجنة الاتحاد والترقي» التي شرعت بتطبيق برنامج للعلمنة الجذرية، خفّضت



## العالم الإسلامي تحت السيطرة الاستعمارية حوالى العام 1920

أعقاب نجاح كيتشر في القضاء على الدولة الإسلامية التي أقامها المهدي محمد أحمد عام 1898، بسطت بريطانيا سيطرتها على السودان الأنجلو - مصري، الذي يمتد مجاله القرايبي في الوقت الحاضر عميقاً داخل إفريقيا الاستوائية. وسانتازعها تنجانيقا من ألمانيا، أصبحت بريطانيا تتحكم بمعظم الساحل السواحلي فيما عدا ذلك القسم الذي يشكل جزءاً من الصومال الإيطالي. ومن عدن، دخلت بريطانيا في صراع مع إيطاليا المتحكمة باريتريا للسيطرة على باب المندب - الهوابة الاستراتيجية للبحر الأحمر - مع إحكام قبضتها في الوقت نفسه على المنطقة الساحلية من الجزيرة العربية الممتدة من عدن إلى البصرة: هذا بعدما قوّت المنشغاة القائمة في جنوب الجزيرة العربية والخليج بمعاهدات قاطعة مانعة تضمنن لبريطانيا الإشراف المطلق على سياساتها الدفاعية وسياستها الخارجية.

ألت الهزيمة التي حلت بالأمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى، إلى وقوع الغالبية العظمى من المجتمعات الإسلامية تحت السيطرة المباشرة أو غير المباشرة لقوى الاستعمار الغربية. فلم يبق مستقلاً من الأقطار الإسلامية بحلول عام 1920 سوى تركيا، التي أعاد إليها كمال أتاتورك الحياة من جديد؛ وبلاد فارس (إيران)، التي استحل فيها أسرة بهلوي محل السلالة القاجارية (1923)؛ وأفغانستان، المتأعامة بنظام الحكم العصري للملك أمان الله (1919-1929)؛ وشمال اليمن، الذي أحكم الإمام الزيدي يحى سيطرته عليه بعد انكسار العثمانيين؛ ونجد، قلب الجزيرة العربية؛ والحجاز أو الديار المقدسة الإسلامية التي تضم مكة والمدينة، وكان لا يزال تحت حكم الأسرة الهاشمية. أما ما تبقى من «دار الإسلام»، فكان إما خاضعاً للحكم الاستعماري المباشر أو راجعاً تحت شكل من أشكال «الحماية» الأوروبية المعترف بها دولياً. هذا وقد تم إرساء مبدئين جديدين أدخلت بموجبهما المستعمرات أو أشباه المستعمرات السابقة حظيرة النظام الدولي: الأول، ترسيم الحدود بينها، وهذا ما كان يهصر إليه في العادة بما يلائم مصالح الدول الأوروبية؛ والثاني، يتعلق بالمنشغاة المرتبطة ببريطانيا بمعاهدات ملزمة، ويقضي بـ «تجميد» الأسر الحاكمة لضمان استمرارية الحكم، وإن ليس بالضرورة على النسخ الأوروبي، أي حق الابن البكر في الوراثة. فمن شأن شرعية الوراثة أن تحول دون نشوب منازعات تمزيقية كذلك التي كثيراً ما تلي موت حاكم تقليدي، وأن تترن من خلفه، كائناً من كان، بمعاهدة سارية المفعول.

لم يتقصر العقد الثاني من القرن العشرين إلا وكانت فرنسا قد أحكمت قبضتها على إفريقيا برمتها، فيما عدا قطاعات ساحلية من الصحراء الإسبانية ومرتكزات الإسبانية كذلك كانت إيطاليا آنذاك ماضية قدماً في توسيع نطاق سيطرتها إلى ما وراء مقاطعتي طرابلس وورقة الساحليتين، وإن لم تحقق ذلك إلا في عام 1934. أما بريطانيا، التي احتلت مصر، المركز النقابي للعالم الإسلامي، منذ العام 1882، فقد سمحت للدولة العثمانية السابقة بأن تمارس استقلالاً صورياً في ظل ملكية دستورية، إلا أنها احتفظت لنفسها بالإشراف الاستراتيجي العام عليها. وهذا ما خلق لاحقاً مفارقة صارخة: بلد محايد من الناحية الرسمية يستضيف على أرضه آلاف الجنود من بريطانيا وتوابع الأمبراطورية الأخرى خلال الحرب العالمية الثانية؛ في







سورية ولبنان. لقد أراد الأمير فيصل، ابن الحسين شريف مكة، الذي حرّر دمشق من تركيا العثمانية بدعم بريطاني، أن يجعل من سورية دولة عربية مستقلة وفقاً لتعهد غامض نوعاً ما كان قد تلقاه من السير هنري مكماهون، المفوض السامي البريطاني في مصر، عام 1915. لكن تبهين حالما وضعت الحرب أوزارها أن المصالح الإمبريالية سوف تنتهك حق الأمم في تقرير مصيرها الذي أعلنه الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون كأساس للتصوية ما بعد الحرب في أوروبا. والاحتجاج على هذه المعايير المزبوجة التي سمحت بالاعتراف مجدداً بالحقوق القومية لرعايا الدول المسيحية في أوروبا (بمن فيهم التشيك والسلوفاك والمجريون واليهود والإيرلنديون، ناهيك عن رعايا الدولة العثمانية السابقين في البلقان)، وإنكار تلك الحقوق على المسلمين دون سواهم في الوقت عينه، كان لا بد من أن يلهب ويؤجج مشاعر السخط على الاستعمار التي سرعان ما ستخرج إلى العلن في سائر ممتلكات السلطنة العثمانية السابقة.

وفي شبه القارة الهندية، احتبس البريطانيون زهاء 580 حاكماً أميرياً - بعضهم مسلمون - داخل فسيفساء من المعاهدات والاتفاقيات المختلفة التي وضعتهم ورعاياهم المسلمين تحت مظلة العرش البريطاني. وفي جنوب شرق آسيا، سيطرت بريطانيا على دويلات الملايو، فيما وسّعت هولندا نطاق سيطرتها إلى ما وراء مستعمراتها الأصلية في جاوه وسومطرة. وفي آسيا الوسطى المسلمة ومنطقة القوقاز، عثت الثورة الشيوعية والحرب الأهلية التي تلتها على ترسيخ أقدام موسكو هناك، في إطار نظام إقليمي جديد.

وفي قلب المشرق بالذات، شرّعت فلسطين أمام الاستيطان اليهودي بموجب شروط الانتداب الذي منح لبريطانيا من قبل عصبة الأمم. وتبعاً لنبوءات اتفاقية سايكس - بيكو السرية التي توصلت إليها بريطانيا مع فرنسا عام 1916، بسطت الأولى انتدابها (وهذا تعبير ملطف عن الاستعمار) على شرقي الأردن والعراق، فيما فازت الثانية بالانتداب على كل من



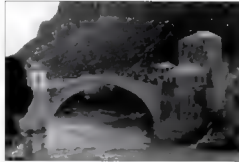
## البلقان، وقبرص، وكريت 1500 - 2000

السود الأعظم من السكّان في البلقان بفضل الدعم العثماني الرسمي للمذهب الأرثوذكسي، هو ما سيجعلهم قبل غيرهم، وأكثر من رعايا السلطنة المسلمين، عرضة لمؤثرات الأفكار القومية والأفكار الثورية التي اكتسحت غرب أوروبا في القرن التاسع عشر طبقاً لإحصاء أجري ما بين عامي 1520 و1530، كان 19 بالمئة من سكّان البلقان مسلمين، و81 بالمئة مسيحيين، وكان ثمة أقلية يهودية صغيرة جداً. كان أكبر تمركز للمسلمين في البوسنة (حوالي 45 بالمئة من السكان): ومعظم المسلمين كانوا يعيشون في المدن فصولياً (عاصمة بلغاريا الحالية) مثلاً، كانت تغطنها أغلبية مسلمة تناهز الـ 66,4 بالمئة.

ومع انحسار مدّ الفتوحات عن بلاد المجر الكاثوليكية، وتصادم النزعات القومية الأرثوذكسية في كل من اليونان وصربيا ورومانيا وبلغاريا، وتقطع أوصال الأمبراطورية العثمانية في أوروبا، فقد المسلمون حمايتهم السياسية، فالعديد ممّن فاتهم الانسحاب مع الجيوش العثمانية، تعرّضوا للمذابح أو أجبروا على اعتناق الديانة المسيحية. كما أنهم نزحوا بأعداد غفيرة بعد الحرب الروسية - التركية عام 1878، وحروب البلقان في الأعوام 1912-1914، ويُعدّ الحرب العالمية الأولى عندما جرى تبادل رسمي للسكّان ما بين الأتراك المسلمين القاطنين في اليونان (بما في ذلك جزيرة كريت وجُزر الدوديكانيز)، واليونانيين المتواجدين على بر الأناضول أمراً قبرص التي انتزعتها العثمانيون مثل جزيرة كريت من البنادقة في العام 1571، فقد صارت جزءاً من الأمبراطورية البريطانية بعد مؤتمر برلين عام 1878، وهذا ما حال دون الأغلبية الأرثوذكسية فيها واختيار الاتحاد مع اليونان (مطلما فعلت كريت عام 1913)، وهكذا استبعدت من عملية تبادل السكان التي تمت في العام 1920. إن الجزيرة منقسمة إلى شطرين منذ عام 1972، حين تدخلت تركيا عسكرياً لحلحلة دون حكومة عسكرية ذات مبول قومية وتوحيد الجزيرة مع اليونان.

لا تزال ألبانيا بلداً مسلماً إلى حد بعيد (70 بالمئة من سكانها مسلمون)، إنما هي كذلك بفعل الثقافة قُبعت حملة طويلة الأمد لمكافحة الدين شنتها الحكومة

خلف الفتح السلجوقي، ولاحقاً الفتوحات العثمانية في البلقان، بغية من جالياتها مسلمة في أوروبا، ممّن وصل أفرادها إلى هناك كمستوطنين أو ممّن اعتنقوا الإسلام عن طريق الهداية. ويعكس ما حصل عند غزو الأناضول حيث جرى التخليك بالمؤسّسات الكنسية



جسر «ستاري موست» في موستار بالبوينة والهرسك، قول أن تدمره نهران مدفوعة كروات البوسنة عام 1993. كان الجسر آية من أروع آيات الهندسة المعمارية العثمانية التي كُتبت لها البقاء اكتمل بناء الجسر عام 1596 على يد خير الدين، تلميذ المعماري العثماني العظيم سنان. يبلغ باع الجسر 30 متراً ويرتفع 27 متراً فوق مياه نهر نرّقا. وقد صان بناء الجسر من جديد رمزاً لفرهم العلاقات المزدوّبة بين طوائف البوسنة المختلفة

الجزنطية باعتبارها مزاحماً أمبراطورياً، مُنحت الكنيسة الأرثوذكسية في البلقان سلطات حقيقية وفَعّالة على الجاليات المسيحية هناك، وبسبب هذا العامل تحديداً، ربما لم تجر سوى عمليات «أسلمة» محدودة في البلقان المسيحية مقارئة بما تمّ في بلاد الأناضول

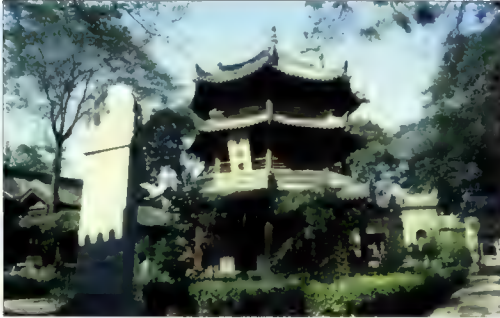
يعود تأسيس الوجود الإسلامي الدائم في أوروبا إلى المهاجرين الأتراك الذين قصدوا شمال اليونان وبلغاريا وألبانيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ولعبت الدور الرئيسي في ذلك «التكايا» التي أقامها مشايخ من الصوفية، والتي صارت في حالات كثيرة نواةً لتشكل المجتمعات القروية. وقد سهّلت الطُرُق الصوفية، كالمولوية والبكتاشية، على الناس في المناطق الريفية اعتناقهم الدين الإسلامي. إذ وجدت السبل الآيلة إلى إيصال الأفكار الإسلامية إلى عقول الفلاحين من ذوي المعتقدات المسيحية أو «الهرطوقية»، كذلك التي كان يحملها البوغوميليون، وهم أصحاب بدعة غنوصية بدائية عمّ تأثيرها الجنوب الأوروبي الكاثوليكي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. كان اعتناق الإسلام أكبر ما يكون في ألبانيا والبوسنة والهرسك وبلغاريا، ولاسيما بين البوماكيون في جبال رودوس، الذين تمتد أراضيهم الجبلية إلى داخل دولتي اليونان ومقدونيا الحاليتين، دح عنك جزيرة كريت. لكن بقاء المسيحيين يشكلون







## الأقليات المسلمة في الصين



هذه المئذنة الصينية مثال حي على قابلية العمارة الإسلامية للتكيف مع الأشكال البلدية المحلية. وخلافا لما هي عليه الحال بالمسببة للكاندراوية أو الكنيسة، ليس هناك شكل معماري مفروض مبدئياً للمسجد سوى المحراب، الذي يُحدد اتجاه القبلة أو وجهة الصلاة

حياة مميزة لهم كإقلية مسلمة تعيش خارج حدود «دار الإسلام»، إلا أنهم ليسوا بأي حال معزولين عن التيارات الروحية التي تهب من قلب العالم الإسلامي. فالصوفية، مثلاً، وجدت منافذ لها إلى داخل الصين مع مشايخ الطرق النقشبندية والقادرية والكرامية، التي أنشأت شبكات لها من الفروع والجمعيات في كل أنحاء البر الصيني. وخلال فترات الاضطراب التي دامت من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، ساهمت الطرق الصوفية آنفة الذكر في تنظيم سلسلة من الثورات والعصيان التي تزعمها مسلمون في مناطق يونان وشانغتشى وكانسو وسينكيانغ ومعظم هذه الاضطرابات كان وليد غفيرة بين المسلمين أنفسهم سببه وقع الأفكار الإصلاحية الوافدة من الجزيرة العربية على مجتمعات الـ«هوي» المحلية. ففي عام 1781، مثلاً، سبق أحد مشايخ الطريقة النقشبندية، ويدعى ما مينغشين (م 1719)، وكان قد درس في الجزيرة العربية واليمن طوال ست عشرة سنة، إلى منصة الإعدام لتزعمه حركة عُرفت بالـ«الذهب الجديد» أو «الطائفة الجديدة»، وتصدت في ذلك الوقت لبعده تقديس الأولياء. وخلال الستينيات والسبعينيات من

تحتدر الجاليات الإسلامية الموجودة في الصين من التجار العرب والفرس والآسيويين (من آسيا الوسطى تحديدًا) والمغول، الذين تزوجوا من صينيات وعاشوا في الأغلب ضمن جاليات صغيرة متجمعة حول مسجد مركزي. وأحفاد هؤلاء، بالإضافة إلى الوافدين الآخرين من منغوليا وآسيا الوسطى على مر الزمن، يُعرفون في الصين بأبناء قومية «هوي». يُشكل الـ«هوي» نصف مسلمي الصين تقريباً البالغ عددهم عشرين مليون نسمة. وخلافاً للمجموعات الإسلامية الأخرى التي تميل إلى التركز في مناطق محاذية لجمهوريات آسيا الوسطى، ينتشر أبناء قومية «هوي» في كل أرجاء الصين، وإن كان هناك تركيز خاص لهم في منطقة «نينغشيا هوي» ذات الحكم الذاتي. تعترف الدولة بالـ«هوي» كإقلية قومية، وهي ثالث أكبر أقلية في الصين، ولعلها الأقلية الوحيدة التي تتحدث بعامل الانتماء الديني. والأقليات الإسلامية الأخرى المعترف بها رسمياً تشمل اللوغوري في منطقة سينكيانغ، والغازاق والقرغيز والأوزبك والتتار والطاجيك الذين تقع أوطانهم الأصلية في أراضي الاتحاد السوفيتي السابق

صحيح أن أبناء قومية الـ«هوي» استنوا طريقة



## المشرق 1500 - 2000

هؤلاء رسمياً رعايا للسُلطان العثماني حتى القرن العشرين، حين تقاسمت فرنسا وبريطانيا المنطقة وحولتها إلى دول تابعة ذات هويات قومية مهزوزة. لقد ظلَّ المشرق عُرضَةً لتأثير الغرب الثقافي زحناً طويلاً بعد رحيل الصليبيين عنه؛ وحسبنا أن نذكر هنا

بخلاف مصر التي حكمها العثمانيون، أو وكلاؤهم، كدولة أو ولاية واحدة، بقي المشرق، الذي يضم سورية وجبل لبنان وفلسطين، خليطاً من الجاليات والطوائف المكبَّلة بتشكيلة مكوَّنة من الانتماءات القبلية والعرقية والدينية تحت قيادة زعماء محليين. وقد كان





بين الموارنة والدروز متكافئاً إلى حد ما، وكان الولاة الأتراك حريصين على الموازنة بين مصالح كلتا الفئتين. غير أن تراجع السلطة العثمانية منذ القرن الثامن عشر اقترن بتقاسم الدروز، وتؤججها المنافسة الطائفية بين الموارنة والدروز، توججها المنافسة الحادة التي كانت محتدمة بين فرنسا وبريطانيا. وهذا ما أدى إلى وقوع سلسلة من المذابح والعروب الطائفية

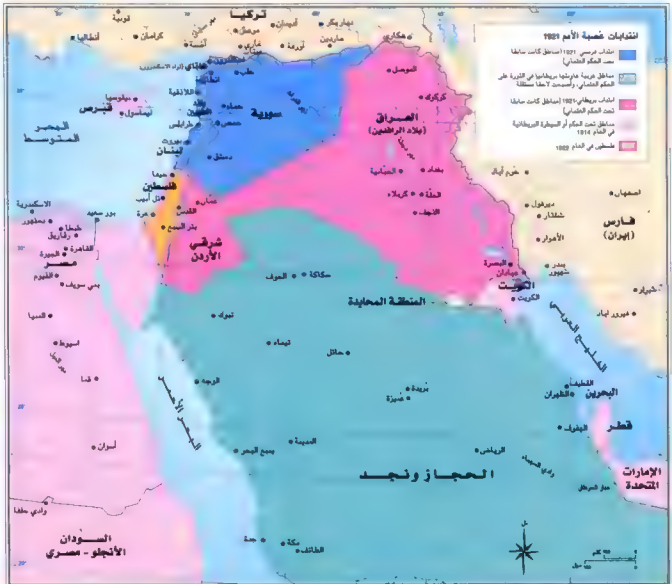
أن الكنيسة المارونية، التي تتخذ من جبال لبنان الشمالية قاعدة لها، قد ثبتت الطقوس اللاتينية واعتبرت بالسيادة الباباوية. أما المرتفعات الجنوبية المطلة على سهول الجليل، فهي موطن الدروز، وهم نحلة منمنحة عن الشيعة الإسماعيلية. في ظل الأسرة الممننة (1544-1697)، والأسرة الشهابية (1697-1840) التي حلت محلها، كان تقاسم السلطة والنفوذ



المريرة ما بين عامي 1838 و 1860.

ولبنان، فيما شرعت بريطانيا فلسطين للهجرة اليهودية واستيطان يهود أوروبا فيها، وأقامت نظاماً ملكياً تابعاً لها في كلٍّ من شرقي الأردن والعراق. لكن وفيما أوجد الفرنسيون إدارة حديثة في سورية، وبناو بمعية تحية من الطرقات وشبكات الاتصال والمواصلات، فإنهم علّوا على تقويض دعائم الدولة الوطنية بتقسيمهم البلاد إلى دوائر إدارية من شأنها منافسة الانقسامات العرقية والذهنية. وقد شجّعوا بنوع خاص تطوع أبناء الطائفة العلوية (وهم فئة من

وفي أعقاب هزيمة العثمانيين في العام 1918، جرى تقسيم الشرق إلى مناطق نفوذ بين الفرنسيين والبريطانيين، وقام الحلفاء المنتصرون في الحرب بخلق أربعة بلدان تابعة - هي العراق وسورية ولبنان وفلسطين - من الولايات العثمانية السابقة. طرد الفرنسيون الأmericains من أشراف مكة وقائد الثورة العربية عبد الله، الذي أقام حكومة مؤقتة في دمشق، ليهبطوا ثم سيطرتهم المباشرة على سورية.



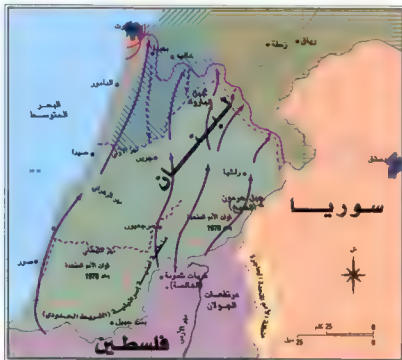
دعائم الحكم بعد الاستقلال. أصبح أن هذا النظام أمّن قدراً لا بأس به من السلام الاجتماعي، إلا أنه وقف حجر عثرة في وجه تقدم الوطن وتطوّره. وحين استخدم الفلسطينيون الأراضي اللبنانية لشن هجمات على إسرائيل في السبعينيات من القرن العشرين، أعادت العمليات الانتقامية الإسرائيلية إحياء الانقسامات والحزائت الطائفية القديمة، ما أدّى إلى وقوع حرب أهلية واسعة النطاق (1975-1982)، وإلى تشطي لبنان مناطق تسيطر عليها الميليشيات المسيحية والشيعية والسنية والدرزية. ولعلّ ما فاقم حالة الفوضى هذه، قيام الإسرائيليين باجتياح لبنان في عام 1982، بهدف طرد منظمة التحرير الفلسطينية من قواعدها في لبنان. وكانت الحصيلة الرئيسية لهذا الاجتياح، فرض سورية هيمنتها على البلاد بحكم الأمر الواقع، وبرز «حزب الله» الشيعي المدعوم من سورية وإيران، كعدو لإسرائيل أقوى ساعداً وأشدّ فاعليّة من الفلسطينيين. وقد تجوّن أن الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان مكلف وغر مجرّ البتة، مما حمل الحكومة الإسرائيلية على الانسحاب من لبنان من طرف واحد في العام 2000.

اجتياح لبنان  
حزيران 1982 - أيلول 1983  
هجوم إسرائيل  
إسقاط إسرائيل  
خط الأساس الإسرائيلي  
8 حزيران 1982  
خط الأساس الإسرائيلي  
1 أيلول 1983  
قوات سورية  
قوات مارونية  
قوات درزية  
قوات لبنانية  
قوات الأمم المتحدة



الشيعية القاطنين في الجبال المطلّة على مدينة (اللاذقية)، في صفوف الجيش. وبعد الاستقلال، تمكّن العلويون من إحكام سيطرتهم على حزب البعث، الحزب ذي التوجّه القومي، وذلك أقاموا في البلاد نظاماً بعثياً يجمع ما بين الفكرة الاشتراكية المستوردة من أوروبا الشرقية والزرعة العصبية العربية الموغلة في القدم

كذلك عمد الفرنسيون إلى تكبير حجم لبنان بضمتهم أفضية طرابلس وصيدا وسهل البقاع وجنوب لبنان إلى الولاية العثمانية الصغيرة السابقة، الأمر الذي أدّى إلى زيادة كبيرة في نسبة المسلمين من الطوائف السنية والشيعية. وبناءً على سوابق عثمانية، اشترع الفرنسيون دستوراً تنقسم بمقتضاه الطوائف الدينية الرئيسية السلطة، على أن يحتفظ الموارنة بالسلطة العليا من خلال احتلالهم منصب رئاسة الجمهورية وقيادة الجيش بصرف النظر عما يطرا من تغييرات ديمغرافية على تركيبة السكّان. وقد أعيد تثبيت نظام تنقسم السلطة هذا القائم على أسس طائفية، في الميثاق الوطني لعام 1943، الذي أرسى



## مشاهير الرخالة المسلمين

الذي ارتحل إلى القاهرة عن طريق نيسابور والري وبحيرة وان وحلب والقدس. ومن القاهرة قام برحلتين حجاً إلى مكة قبل أن يقفل راجعاً إلى آسيا الوسطى بصفته الداعي الإسماعيلي الأكبر للخليفة والإمام الفاطمي المستنصر بالله (ح 1036-1094). ولما هُوجم خسرو على دعوته هذه من جانب جمهرة من المسلمين السنة في مدينة بلخ، بتحرير من الأمراء السلاجقة على أرجح الظن، لجأ إلى بدخشان في غرب جبال البامير، حيث عاش بقية حياته في حماية أمير إسماعيلي هناك. والإسماعيليون في البامير، التي تقع في شرق أفغانستان وأراضي جمهورية طاجيكستان السوفيتية السابقة، يُحظون شأنه ويحيطونه بالتبجيل بوصفه وليهم المؤسس. وفي الأساطير المحلية أنه لم يهر الناس إلى العقيدة الإسماعيلية فحسب، بل هو من أعطى قراهم وبلداتهم جميعاً أسماءها أيضاً. وفي حين تعكس أشعار ناصري خسرو حالة الوحشة التي كان يعيشها في المنفى، فإن السجية العقلانية التي تسم كتاباته الفلسفية جعلته مقبولا لدى الشيوعيين الذين استولوا على المنطقة في العام 1920، فاستبقوه معزراً مكرماً باعتباره بطل طاجيكستان القومي.

والقاهرة بحسب وصف خسرو لها في كتابه أنف الذكر، تعدّ قذوة تحظى في الإدارة الحكيم والعدالة. فالخريجون هناك يتقاضون أجوراً مقبولة، الأمر الذي يمدوهم إلى تحسين نوعية منتجاتهم باستمرار. والجنود يتسلمون معاشهم بانتظام، وهذا ما يجعلهم أقل ميلا إلى التمرد بالفلاحين ومضايقتهم. والقضاة يحصلون على رواتب عالية، وبذلك تضمن نزاهتهم ويوقرون على الرعية عاقبة الفساد والجور. وإذا ما ضُبط تاجر يفتن زبونه، فإنه «يوضع على ظهر جمل ويهدى جرس، فيُدار به في طرقات المدينة وهو يرن الجرس صائحا: اقتربت إصفاً كبيراً وما أنذا ألقى جزءا ما صنعت. وكل من يستغويه الفتن، يُجله العار على رؤس الأشهاد».

الصفة العربية من رواية الحج أو السفر تُعرف

كان الحج إلى مكة باعاً على ولادة جنس أدبي غني، هو أدب الرحلات. فقد كان بعض الحجاج يدونون يوميات عن رحلاتهم أو يملكون مروياتهم على كتبه مختصين، آتين على ذكر تفاصيل مذهبة تتناول كل شيء تقريباً، من أصناف الطعام إلى صروح العمارة. ولعل أكثر الروايات استدعاءً للعجب والإعجاب في هذا النوع من الأدب، كتاب «سفرنامه» للشاعر والفيلسوف الفارسي ناصري خسرو (1003-1088)،

أمضى الرحالة ابن بطوطة سنة كاملة أو أكثر في جزر المالديف، حيث قبل بعد شيء من التردد منصب قاضي القضاة المعروف عليه كان رأي في الناس هناك أنهم يتصرفون بالاستقامة والورع، لكنه استهان بخروج النساء على الملاء عاريات الصدور.



والوقوف على الظروف السياسية والاجتماعية السائدة في ذلك العصر. إنها بحق نموذج حيّ للعديد من الروايات الأخرى، لعل أهمها طراً للرحلة التي قام بها أعظم الرحالة المسلمين على الإطلاق، المغربي ابن بطوطة (1304- ن 1370)، وأخذته من موطنه طنجة إلى الصين، فبالى إفريقيا جنوبى الصحراء الكبرى (بلاد الزنج)، أدّى ابن بطوطة فريضة الحج ست مرّات على الأقل في سياق رحلاته وأسفاره، والفصول الأولى مما حكاه عنها يستوفي تماساً مواصفات أدب الرحلات، لكن حيث إن رحلاته أخذت تستطيل بشكل مطّرد سواء في الزمن أم في المدى، فقد صارت روايته أكثر شمولاً وأوسع إحاطة، فجاء كتابه متضمناً وصفاً منقطع النظير للعالم المعروف آنذاك، وعلى غرار رواية

«الرحلة». وهذا الجنس الأدبي هو من ابتداع ابن جُبَيْر الأندلسي (1146-1217)، الذي دون وقائع رحلة شهيرة له دامت سنتين، انطلق فيها من غرناطة في شهر شباط/فبراير 1183 قاصداً مكة. وهناك أقام ابن جُبَيْر تسعة أشهر قبل أن يعود من الديار المقدسة الإسلامية عن طريق العراق وعكا، حيث صعد على متن سفينة جنوبية متّجهة إلى صقلية. وبعد أن كتبت له النجاة إثر غرق السفينة في مضائق مَسِينَا، استقلّ مركباً آخر في تراباني ووصل سالماً إلى غرناطة في نيسان/إبريل 1185. تسوق لنا رواية ابن جُبَيْر فيضاً من المعلومات والحقائق عن الأقطار والأمصار التي مرّ بها، وتُشكّل مرجعاً لا يُقدّر بثمن لمعرفة أحوال الصليبيين ووضع الملاحة في البحر المتوسط.



يُمكنها أن تنال من سعة ابن بطوطة بوصفه واحداً من أعظم الرحالة في كل العصور. إن الثروة من المعلومات التي تركها للأجيال القادمة جميعاً عن العالم في عصره، ليس لها نظير في الواقع. فمثل الرحالة العظيم كافة، تُخبرنا ملاحظاته ومشاهداته الشيء الكثير عن عالمه الاجتماعي بقدر ما تُخبرنا عن البلاد التي زارها وسافر في أرجائها. كانت له عين ثاقبة تلتقط أدق التفاصيل. وفصوله يأخذ قارئة إلى ما وراء مظاهر الحياة المألوفة، وكل جملة من جملة تنطوي على قدر غير يسير من التساؤل والاستفهام كهذه الجملة: «وكفار الصين يأكلون لحوم الفنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم، وهم أهل رفاهة وسعة عيش. إلا أنهم لا يحتفلون في مطعم ولا مجلس، وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة عليه جبة قطن خشنة». والتباين هنا تام مع ما كان

ماركو بولو التي لا تقل عن روايته شهيرة، لم يدونها ابن بطوطة بقلمه هو، بل أملاها إملاءً على معاون له. هو الكاتب والدارس الغرناطي ابن جزي (1321-1356). فقد سجل ابن جزي مروييات ابن بطوطة في كتاب بناءً على إيعاز من أمير فاس، أبو عيان (ح 1349-1358). وفي الوقت الذي كان فيه الكتاب قيد التدوين، كان الجنس الأدبي، أدب الرحلات، قد استتبّ فعلاً بين صفوف المتعلمين، فنارت التساؤلات هنا، كما بشأن مجمل روايات الأسفار الأخرى، حول بعض ما جاء في وصف ابن بطوطة، وهل يُمكن التوكل إليه. يُلحّ باحث عصري إلى أن ابن جزي ربما يكون قد «اشتط كثيراً في الميل إلى الخرافية، بينما العمل الأصلي كان بالتأكيد أكثر اعتدالاً»، فتصرف من عنده في بعض ما حكاه ابن بطوطة لأسباب ربما لها علاقة بالأسلوب. غير أن مرواغات الكتّبة وألغابهم لا





## بريطانيا في مصر والسودان خلال القرن التاسع عشر

إقامة السدود وخزانات المياه لتحكم بعضضان النيل، وتوسيع شبكة السكك الحديدية. فقتضت كميات القطن الخام المزروع لأغراض التصدير، لكن البريطانيين حرصوا على تقييد عملية التصنيع خوفاً من تشجيع المنافسة.

بدأ الاختراق المصري للسودان في عشرينيات القرن التاسع عشر، حين أطاح محمد علي بسلطنة الفنجي كجزء من رهنه على إقامة إمبراطورية مصرية في إفريقيا. في عام 1830، أنشئت الخرطوم على النيل الأبيض كمحطة مصحّنة جديدة، وباستخدامهم ضباطاً أوروبيين لقيادة القوات المجنّدة المحلية والقوات المصرية، تمكن خلفاء محمد علي من توسيع نطاق سيطرتهم إلى أعالي النيل والأقاليم الاستوائية. وعملًا بمبادئ الإصلاح الإداري التي كانت رهن التطبيق آنذاك في مصر والأمبراطورية العثمانية، فرض المصريون نظام احتكار الدولة للتجارة - حتى الغارات لامتصها العبيد صارت من أعمال الدولة - في الوقت الذي وحدوا فيه معايير الإجراءات القضائية وفقاً للمذهب الشافعي المعمول به رسمياً في الأمبراطورية العثمانية. وهذا ما انتقص من سلطة العلماء المحليين، وهم من المذهب المالكي، كما أضعف من جهة أخرى كافة البعء الصوفية المحلية. ومن المفارقة بكان، إن هذا التدبير جاء مُساعداً في نشر الطُرق ذات التوجّه الإصلاح، كالطريقة السُنيّة والطريقة الختية، اللتين طلع بهما حُجّاج عائدون من الحجاز، حيث كانت الروح الإصلاحية على أشدها منذ القرن الثامن عشر، وحين ألغيت احتكارات الدولة المصرية في الخمسينيات من القرن التاسع عشر، شرع الأوروبيون بدخول السودان لتسلّم مقدرات التجارة في موارد مثل الصُغم العربي وريش النعام والماعز، الأمر الذي ألحق ضرراً فادحاً بمشاريع الأعمال المحلية. وبضغط من بريطانيا، وقعت الحكومة عام 1877 ميثاقاً تحظر بموجبه كل أشكال النخاسة. وقد تفجّرت مشاعر الاستياء من هذا الإجراء في ثورة كبرى أشعل فتيلها وتولى زمامها محمد أحمد. كان هذا الأخير شيخاً من مشايخ الطريقة السُنيّة، وكان يتمتع بسمعة عظيمة لشهده لبلاتقوى والصالح في تشرين الثاني/نوفمبر 1882.

بدأت هيمنة بريطانيا على مصر مع النظام التحديثي لمحمد علي، الذي كان بالاسم واليا عثمانياً على مصر، بينما هو في الواقع حاكم مستقلّ فعلاً: وكذلك مع سليله الصديوي إسماعيل (ح 1863-1879)، الذي كان مفتوناً إلى حد الهوس بأوروبا. فمخططات إسماعيل باشا الطموحة للتنمية الاقتصادية، ومن ضمنها مد السكك الحديدية وخطوط البرق وشق قناة السويس (افتتحت عام 1869)، أدّت إلى إفلاس البلاد وفرض إدارة مالية أجنبية عليها. فاعلنت مجموعة من ضباط الجيش المصري من أبناء البلاد الأصليين، يُساندها رجال الدين وملوك الأراضي والصحفيون ودعاة الوحدة الإسلامية الجامعة جمال الدين الأفغاني، عن معارضتها لنظام إدارة الدين، واستولت على وزارة الحربية حيث شكلت حكومة برلمانية برئاسة الوزير «الثاني» عُرابي باشا، عندئذٍ عمد وليام غلادستون، رئيس الوزراء البريطاني، إلى قصف الإسكندرية، وقام بإنزاع قوات على الأراضي المصرية، فألقت الهزيمة بجيش عُرابي في معركة «التل الكبير». وفي ظل المقيم البريطاني، السير إيفلين بارينغ (لاحقاً: اللورد كرومر)، الذي تولى الشؤون المالية في الحكومة، جرت إدارة الاقتصاد المصري بنجاحة، إنما لما فيه مصلحة الأمبراطورية. وشهد الإنتاج الزراعي تحسّناً من جراء



للقى الجنرال تشارلز جورج غوردون، الملقب بـ«العملي» (1833-1885)، حلقه على أيدي قوات المهدي فوق الدرج المؤدي إلى مقر الحاكم في الخرطوم بعد حصار دام خمسة أشهر، اعتوره الجمهور البريطاني شهيداً مسجحاً، ولذلك دار كيشتر لمقته بأن أعاد الرسم بريشة الرسّام الفكتوري لويس بيكنسون يحمل عنوان «مناوئة غوردون الأخيرة»







مما فتح الباب لمجيء الحكم العسكري، أولاً بقيادة اللواء إبراهيم عبّود (ح 1954-1964)، ولاحقاً بقيادة الفريق جعفر النميري (ح 1969-1985). حاول النميري في البدء رأب الصدع ما بين الشمال المسلم والجنوب غير المسلم بمعظمه (غالبية من المسيحيين والإرواحيين)، وذلك بمنح حكم ذاتي محدود لمديرية بحر الغزال والمديرية الاستوائية ومديرية أمالي النيل. غير أن النميري بذل اتجاهه على نحو جذري في العام 1983، وشنّ حملة لأسلمة البلاد أسلمة تامة. وقد ساندته في ذلك حسن الترابي، زعيم الجبهة القومية الإسلامية (النسبة السودانية من حركة الإخوان المسلمين) في مصر) - صمّيح أنه جرت الإطاحة بالنميري في عام 1985 بعدما أقصى شخصاً غريب الأطوار وغير متزن على نحو متزايد، إلا أن عمر البشير الذي استولى على مقاليد السلطة بمساعدة الترابي في انقلاب عسكري عام 1989، مضى قدماً في تطبيق برنامج الأسلمة إياه. أثار إصرار الترابي على تعريب وأسلمة السكان من غير المسلمين، إلى حد تطبيق العقوبات الإسلامية عليهم، أثار مقاومة متنامية في صفوف أبناء الجنوب. فاضم عدد غير مهم، أو قدّموا المساندة، إلى الحركة الشعبية لتحرير السودان بقيادة العقيد جون قرنق. وهذا الصراع ما بين الشمال والجنوب، وهو بالمناسبة أطول حرب أهلية متواصلة في إفريقيا، يصفه أحد المؤرخين المرموقين بأنه «حرب أهلية ذات أبعاد تقارب الإبادة الجماعية... ليبدأ فيها إلى استخدام تكتيكات من ضمنها تجويع السكان المدنيين وإجبارهم قسراً على النزوح عن منازلهم». إن الأقوام التي تعتنق الديانات الإفريقية، مثل النوير والدينكا، تعرّضت ولا تزال لمحاولات إبادة في الدين الإسلامي عنوة. وقد استخدم عمر البشير برنامج الجبهة القومية الإسلامية، القاضي بتطهير صفوف الجيش العليا ودوائر الخدمة المدنية من غير الإسلاميين لا بل وإعدامهم، للقضاء على قوة الأحزاب السياسية التقليدية التي تهيم عليها الجماعات الصوفية. وبعد مضي عشرين سنة على الحكم الديكتاتوري، كان الترابي قد أدّى «خلافها كل ما هو مطلوب منه، قام اللواء البشير بانقلاب «داخلي» عزل فيه الترابي عن الحكم في كانون الأول/ديسمبر 1999.

أعلن محمد أحمد على الملاً أنه هو المهدي (أي «المسيح» المسلم الذي كان ظهوره منتظراً على نطاق واسع في نهاية القرن الثالث عشر للهجرة). ومن ثم استنسخ قبائل البقارة الرعوية للتصديق على الحكومة التركية - المصرية «الكافرة». وبعد أن أباد قوة من ثمانمائة آلاف مجنّد محليّ بقيادة هيكس باشا في شيخان، انتقل المهدي للاستيلاء على أم درمان والخرطوم. وهناك لقي الجنرال غوردون مصرعه على درج دار الحاكم بعدما رفض الامتثال للتعليقات المعطاة له بوجوب إخلاء الحامية. وهذا ما أورد الجمهور الفيكتوري في بريطانيا عتساً شديداً للنار. وقد مات المهدي بعد ذلك بسنة أشهر (بعض التوفيق على الأوج) إثر دخوله الخرطوم دخول الظافرين. وبقيادة خليفة عبدالله الطائشي، الذي خلفه في زعامة الحركة، استمرت تلك الحركة في الازدياد والتوسع جنوباً نحو جبال النوبة ومنطقة بحر الغزال. وهذا ما أدخل العديد من أقوام الإرواحيين غير المسلمين، ومنهم النوير والدينكا وسواهما، في مدارها مما بذر البذور لنزاعات وصراعات ستتفجر مستقبلاً. لقد كان قدر الدولة المهدية الهلاك، لأنها تحدت وأذلت قوة بريطانيا في منطقة حساسة استراتيجياً لفرنسا فيها، هي الأهرى، أطعماها ومأربها الأميرالية. ففي عام 1898، تعرّض جيش خليفة البالغ عدده 50 ألف رجل لمذبحة مروعة على يد قوة إنجليزية - مصرية مشتركة بقيادة الجنرال هيربرت هوراشيو كيتشنر. فما كانت حراة خليفة ولا بنادقه العتيقة لأضاهي بأي حار رشاشات «غاتلينغ» الحديثة التي كان أعضاها كيتشنر عبر مجرى النيل في أسطوله الصغير من المراكب البخارية المصفحة. ألت هزيمة المهدي إلى نصف قرن أو أكثر من الحكم البريطاني في ظل السلطة الإنجليزية - المصرية المشتركة. وهذا اعتمد أتباع المهدي السابقون - وكانوا يعرفون بـ «الأصنام» تيمناً بأصنام الرسول محمد في المدينة - مبدأ الجهاد «السلامي»، موسعين نطاق نفوذهم ليشمل المناطق المدنية. في عام 1944، شكّل زعيمهم سيد عبد الرحمن، ابن المهدي، «حزب الأمة»، الذي أبقى على تعاونته مع البريطانيين حتى وهو يعمل من أجل الاستقلال. في حين شكّل أتباع الختمية «حزب الاتحاد الوطني»، المحبّ للاتحاد مع مصر، لمواجهة نفوذ الأصنام. ولئن لقيت فكرة الاتحاد هذه رفضاً باتاً بعد الثورة المصرية عام 1952، فإن المنافسة المريرة بين الحزبين الدينين ظلت قائمة،



## فرنسا في شمال إفريقيا وغربها

استمر استيطان الأراضي المنتجة في الشريط الساحلي الجزائري حتى إلى ما بعد حلول القرن العشرين. ففي عام 1940، كان المستوطنون الأوروبيون يملكون زهاء 2,7 مليون هكتار، أي ما يُعادل 35 إلى 40 بالمئة من الأراضي الصالحة للزراعة، تشكل الأبنية (المحرم شريها على المسلمين) أهم مصادراتها.

والتخريب الثقافي كان هائلاً هو الآخر. فقد خُطرت المعاهد الإسلامية التقليدية أو حُجّرت مواردها المالية. وكان من المفترض أن تُستبدل بمدارس فرنسية، إلا أن أقلية صغيرة جداً من المسلمين الجزائريين استفادت من ذلك، وعلى عكس بريطانيا التي كانت تؤثر حكم أمپراطوريتها من خلال وكلاء مطويعين لها، رأت فرنسا أن تنتج سياسة الاستيعاب. ولئن كان تطبيقها لهذه السياسة محدوداً، إلا أنها خلقت نخبةً فرانكفونية صغيرة تنتمى مع الحضارة الفرنسية. في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، برزت حركة قومية تضم مصلحين إسلاميين يتحلقون حول عبد الحميد بن باديس، وقوميين عرباً يستلهمون أفكار مصالي الحاج، وقد أصابت تلك الحركة نهجاً بذورها البذور لقيام حرب استقلالية ناجحة الشروط، وهي التي اندلعت فعلاً في أواخر الخمسينيات من ذلك القرن بدعم من الكتلة السوفييتية ومصر والبلدان العربية الأخرى. في عام 1958، استطاعت حركة مضادة قام بها مستوطنون فرنسيون بحارزون استقلال الجزائر، أن تطيح بحكومة الجمهورية الرابعة وتأتي بالجنرال ديغول إلى الحكم في فرنسا. لكن ديغول، وخلافاً لتوقعات المستوطنين، أقر باستقلال الجزائر. وبعد مفاوضات مديدة في إيفيان، اعترفت فرنسا بالسيادة الجزائرية في عام 1962. مهما يكن من أمر، فقد بقيت الروابط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بين فرنسا والجزائر وثيقة للغاية، حتى بعدما حلت جبهة التحرير الوطني - الحزب القومي الذي فاض على الاستقلال - محل الإدارة الفرنسية، تلك الأقلية الفرانكفونية شبه الاستعمارية التي كانت تسيطر على الأغلبية من الناطقين باللغتين العربية والبربرية (الأمازيغية). وفي كانون الأول/ديسمبر 1991، تدخل الجيش لمنع الجبهة الإسلامية للإنقاذ من الوصول إلى السلطة عبر انتخابات وطنية. وقد فقد أكثر من مئة ألف جزائري أرواحهم في غمرة الحرب الأهلية التي تلت ذلك، تلك الحرب التي عكست في جزء

الفتح الفرنسي لشمال غربي إفريقيا لم يبدأ جدياً إلا في العام 1930، حين أقدمت حكومة الملك البربروني المستعبد عرشه، شارل العاشر، مستنوبة من تجار مارسيليا، أصحاب المصالح القديمة في تجارة الصوف، على غزو الجزائر. وفي حين احتل الفرنسيون مدينة الجزائر وغيرها من المدن الساحلية، أثار حلول الأوروبيين محل العثمانيين في المناطق الداخلية من البلاد حركة

مقاومة تزعمها الأمير عبد القادر الجزائري، ابن شيخ مشايخ الطريقة القادرية، بالتحالف مع

سلطان المغرب. وبعد انكسار الجيش المغربي على يد الجنرال توماس - دوبر

بوغو في معركة إيسلي عام 1844، زالت كل الحواجز من أمام الاستيطان الفرنسي هناك. أقدم بوغو على تخریب البساتين والمحاصيل الزراعية، وعلى تدمير قرى بأكملها، مُرهقاً أرواح أعداد غفيرة من الناس، وتاركاً عشرات الآلاف منهم يموتون جوعاً. تمت مصادرة مساحات شاسعة من الأراضي، وجرى تهجير عشائري برمتها، عربية وبربرية على السواء، إفساحاً في المجال أمام توطئن المستوطنين الفرنسيين والأوروبيين. شهد القرن الثامن عشر قيام حركات تمرد وعمليات عديدة ضد الفرنسيين، بلغت ذروتها في انتفاضة كبرى سرعان ما سُقّفت في عام 1871. وقد



- إفريقيا حوالي 1890**
- ممتلكات بريطانية
  - ممتلكات فرنسية
  - ممتلكات عثمانية وصليحية
  - ممتلكات برتغالية
  - ممتلكات إسبانية
  - دول إفريقية
  - ممتلكات فرنسية فرنسية
  - مع تذكّر أن الجزائر كانت جزءاً من فرنسا

«ازدواجية السيادة». وإثر وقوع مظاهرات حاشدة وأعمال عنف، سمح الفرنسيون للملك بالعودة، مسلمين باستقلال المغرب في عام 1956. وما زالت الأسرة الحاكمة في السلطة إلى يومنا هذا، ممثلة بحفيد محمد الخامس، الملك محمد السادس.

وهذا النموذج من القفح الاستعماري الذي تتبعه ثورة وطنية، عاد وتكرر، وإن بوضوح وشدة أقل، في أجزاء أخرى من الإمبراطورية الفرنسية في إفريقيا، حيث كانت للفرنسيين مطامع اقتصادية لكن مصلحة قليلة في الاستيطان.

تمثلت مصالحهم الاقتصادية الأولى في توفير إنتاج المحاصيل النفعية، مثل الفول السوداني والأخشاب وزيت النخيل. عمل الفرنسيون على جباية الضرائب نقداً، واستخدموا الأيدي العاملة بالسفيرة في مزارع العوز والسكر والبن. ومهدوا خطوط السكك الحديدية لنقل البضائع من مناطق الداخل إلى المحيط الأطلسي، فدمروا بذلك أسلوب النقل القديم والعريق.

وتقرّضت أسس التجارة الإفريقية باستيلاء العرب المشاركة واليونانيين والأسبوعيين من جنوب القارة على تجارة المُرَقَّر في المستعمرات الفرنسية. وأهمل التعليم الإفريقي، بحيث لم يتح سوى لـ 3 بالمئة فقط من الأفارقة في الإمبراطورية الفرنسية أن يتأثروا نصيباً من التعليم المدرسي. مع ذلك، فقد نبئت نخبة فرانسفونية صغيرة هي من سيرتقي سدة الحكم بعد الاستقلال. وفي عام 1958، عرض ديغول على مستعمرات فرنسا في إفريقيا الاختيار بين الاستقلال الفوري أو الحكم الذاتي ضمن الأسرة الاقتصادية الفرنسية. وحدها غينينا اختارت الاستقلال الفوري، وكان اختصارها هذا مكلفاً إذ أضرَّ ضرراً فادحاً ببنائها الاقتصادي. أما ما تبقى من بلدان تابعة لفرنسا في غرب إفريقيا، فقد نالت استقلالها الناجز في غضون الستينيات من القرن العشرين.

منها صراعاً بين النخبة الفرانكفونية الملتزمة بالقيم الغربية وبين الإسلاميين الذين يعتقدون بأنهم يمتلكون شرعية ثقافية أرفع شأنًا.

ولم تقف المطامع الاستعمارية الفرنسية عند حدود الجزائر فقط، بل تعدّتها إلى جاراتها تونس أيضاً. كانت تونس ولاية عثمانية ذات حكم ذاتي، فأخذت فرنسا بالاستيلاء عليها تدريجياً اعتباراً من العام 1881. وبحلول عام 1945، كان نحو من 144 ألف مستوطن أوروبي يحتلون خمس مساحة الأراضي القابلة للزراعة. إلا أن هؤلاء المستوطنين لم يشكلوا في أي يوم مجموعة ضغط محلية قوية كُنُظرائهم في الجزائر. لذلك ما إن مُنيت فرنسا بالهزيمة في الهند الصينية بعد الحرب العالمية الثانية، حتى سلمت باستقلال تونس في العام 1956. والنشع عينه من التخلخل الاقتصادي الفرنسي المستتبع بالسيطرة الإدارية والاستيطان الأوروبي، حصل في المغرب أيضاً، إنما مع فارق رئيسي هو أن البلد احتفظ بوضعته ككيان مسلم في ظل الأسرة الشريفة (المستفزة من سلالة الرسول) التي وصلت إلى السلطة في القرن السابع عشر. كان سلطان المغرب، مثل حكام إيران في زمانه، يفتقر إلى الأموال اللازمة لدفع رواتب جنوده. وكان هذا وضعه بنوع أخصّ بعدما انتقل إنتاج السلعة الأعلى قيمة مالمية لديه، ألا وهي السكر، إلى أيدي الأوروبيين واسمها مع تطور زراعة السكر في جُزُر الكناري والأميركيتين. وغبة الحفاظ على هيمنته على القنائل المعاصية، رهن السلطان عائداته الجمركية واستلف دونما حساب من المصارف الفرنسية. وحين أثار ذلك ثورة في صفوف العلماء، تدخل الفرنسيون بصورة مباشرة، فارضين الحماية على البلاد (إلى جانب محمية أصغر حجماً أعطيت لإسبانيا) في العام 1912. وهكذا طرحت أراضي المغرب للبيع على الأوروبيين، الذين بلغت ممتلكاتهم منها بحلول عام 1953 زهاء مليون هكتار، أو ما يوازي 10 بالمئة من مساحة الأراضي التي تفلّ محاصيل زراعية، فضلاً عن 25 بالمئة من مجموع بساتين الفاكهة وكروم العنب، مع أن الأوروبيين بالكاد كانوا يشكلون واحداً بالمئة من مجمل عدد السكان. غير أن الأسرة الشريفة استطاعت على عكس الحال في الجزائر وتونس، أن تضع نفسها في مقدمة الحركة المطالبة بالاستقلال. ففي عام 1953، جعل الفرنسيون من الملك محمد الخامس بطلاً قومياً وذلك عندما نفوه من البلاد بعدما رفض الموافقة على نظام



شمال غربي إفريقيا  
حتى 1914

- ممتلكات برطانية
- ممتلكات فرنسية
- ممتلكات ألمانية
- ممتلكات برتغالية
- ممتلكات بلجيكية
- ممتلكات ألمانية
- ممتلكات ألمانية
- ممتلكات ألمانية
- ممتلكات ألمانية
- ممتلكات ألمانية

## نمو الحج وتطور المشاعر المقدسة

### تروب الحج في الجزيرة العربية



داخل المملكة العربية السعودية من المواطنين السعوديين والمقيميين الأجانب على حد سواء.

قبل وفاة النبي محمد في العام 932 م، تناول شعائر الحج التي كانت سارية قبلًا داخل مكة وما حولها وعمل على إصلاحها. وهذه الشعائر المُصلَّحة التي تستغرق تأديتها عدة أيام، تشتمل على الطواف حول الكعبة، البناء المكعب الشكل القائم وسط المُشعر الحرام في مكة؛ والسعي أثناء التلبية بين الصفا والمروة؛ والوقوف يومًا كاملًا على جبل عرفات؛ والنفرة (وهي اليوم سهل هائل من البشر والمركبات) عبر المزدلفة؛ وهي الجمرات (وهي كناية عن أعمدة ترمز إلى إبلوس) في منى. إن الحجر الأسود «حجر سماوي» تكتنفه الأسرار إنه مصود في الركن الجنوبي الغربي للكعبة، وموجه نحو عبادة الله دون سواه كما تجلّي لأبي الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل، الجد القديم للعرب. والفصل الأخير من الحج، ألا وهو تقديم الأضاحي إحياء لذكرى الشاة التي تقبلها الله بدلًا من ولد إبراهيم، يحتفل فيه في جميع أنحاء العالم الإسلامي تحت اسم «عيد الأضحية»، حينما يذبح المسلمون بضمة رؤوس من ماشيتهم أو يتناولون لحوم حيوانات ذُبحت في منازلهم. أما العمرة، أو «الحج الأصغر»، فهي مقصورة على الحرم المكي المحيط بالكعبة، وباستطاعة المرء أن يؤديها في أي وقت من السنة، أو في التزامن مع الحج نفسه.

فيما قبل الأزمنة الحديثة، كان يُمكن لرحلة الحج أن تكون شاقة للغاية، ولاسيما للقادمين من مناطق الأطراف القصية، كان من الجائز جدًا أن تستغرق



الحج أحد أركان الإسلام الخمسة، وهو فريضة دينية يتوجب على كل مسلم أن يؤديها مرة واحدة على الأقل في حياته. وهذه الفريضة صارت اليوم سهلة يسيرة نسبيًا بفضل النقل الجوي الذي في طاقة المرء تحمل نفقاته. إن محطة الحجاج في مطار جدة - وهي عبارة عن مبنى على شكل خيمة عملاقة يمتد على مساحة بضع عشرات الآلاف من الأمتار المربعة - تستوعب في وقت واحد عددًا أكبر من المسافرين مما يستوعبه أي مطار في العالم. إن الحج يجمع بالمعنى المادي للكلمة، المسلمين من كل أرجاء الأرض بعضهم ببعض، وهو يجتذب نحوًا من مليون حاج من الخارج كل سنة، وحوالي العدد نفسه من

### خريطة مكة

- 1 حي جود
- 2 حي الباب
- 3 حي الشبكية
- 4 حي السوق الصغير
- 5 حي المسلة
- 6 حي باب العمرة
- 7 حي النماطة
- 8 حي السوق
- 9 حي للقرارة
- 10 الكرم
- 11 حي الزركية
- 12 حي النفع
- 13 حي السليمانية
- 14 حي بني عامر
- 15 درة الخنادير
- 16 درب المعلاة
- 17 حي مرة
- 18 قصر شريف الأشراف، عين الرقيق (1905-1982) بناء والده محمد بن عبد
- 19 قصر شريف الأشراف، عبدالله، الأخ الأكبر لعون الزمزمي
- 20 حي بني البراد
- 21 حي سوق آل
- 22 حي كندقي
- 23 النورة
- 24 التميمي
- 25 رقائق النصر
- 26 موانع ساسا فميلة
- 27 حي اللشعبي
- 28 الصفا
- 29 حي أجناد (يرجع في هذا الحي مبنى مؤسسة التكايا المصرية وسراي الحكومة الجديد)
- 30 مقر الحرس الرئيسي (الشرطة)
- 31 بركة والي الجبل، مغفر الشرطة، الخ
- 32 مدرسة (تستخدم حالياً لمركز للنساء فداطر زينة ومكتبة لدراسات القرآن)
- 33 بركة ساجد بنز كبيرة للمياه موصولة بالمخاض
- 34 دار القضاء وسكن القاضي
- 35 قبر أبي طالب (عم الرسول)
- 36 أبرار مياه موصولة بالمخاض
- 37 قبر السيد علي
- 38 قبر الركن الشيخ محمود
- 39 جبل عقيق
- 40 حي المدينة (المتحف)
- 41 أبرار ماء من القفاطر (مثل هذه الأبار موجودة حالياً في الدروب الرئيسية كاتبة)



عبرها سلسلة من الردفات والدهاليز، في القرن التاسع عشر، تضاف ظهور الصلاة البخارية برعاية القوى الاستعمارية مع استحداث نوايا خاصة لتوفير نفقات الحج، ليجعل رحلة الحج في متناول الآلاف من الفلاحين وأبناء المدن العاديين من مناطق نائية جداً كالبنغال والملايو وجنوب الهند الشرقية الهولندية، الذين ما كانوا ليأملوا على الإطلاق في أداء تلك الفريضة الدينية في عصور ما قبل الصناعة.

الرحلة سنوات عديدة من عمر الإنسان - أو حتى عمره بكامله - كي يتم «الركن الخامس» من أركان الإسلام، في تلك الرحلة، كان ثمة «مدن/قوافل» تتحرك بسرعة تحت إمرة «أمير الحج» بعد أن تنطلق من سورية ومصر والعراق. وكان أمرو القوافل بمثابة قادة عسكريين في الميدان. واجههم الأولي، في واقع الأمر، كان حماية الحجاج من قطاع الطرق البدو. ابن جبير، الذي أدى فريضة الحج عام 1184، يصف خيمة أمير القافلة العراقية بـ«مدينة مسورة» أو «قلعة منيعة» لها «أربع بوابات شامخة»، بلج الممر

ينقصر شهر تشرين الثاني / نوفمبر إلا وكان الوياء قد بلغ أماكن قصبة جداً بمدينة نيويورك. وإذا كانت إجراءات الحجر الصحي (الكارنتين) التي اتخذتها السلطات العثمانية والحكومات الاستعمارية قد حمت مصر وأوروبا من عواقب العدوى، إلا أن الكوليرا استمرت بالتفشي في الشرق وفي الحجاز، حيث وقعت ثماني حالات وبائية بين عامي 1885 و1892. وكان أسوأها على الإطلاق تلك التي شهدتها عام 1893،

وكانت لهذه الزيادة الكبيرة في عدد المشاركين في الحج نتيجة جانبية وخيمة تمثلت في حالات من تفشي وباء الكوليرا على نحو مدمر. ففي عام 1885، قضى وباء مصدره جاره وسنغافورة على ما يُقدَّر بـ 15 ألفاً من أصل 90 ألف حاج، وذلك قبل أن ينتهي الحج الذي صادف وقوعه في شهر أيار / مايو من ذلك العام. ولم يلبث أن امتد الوياء في الشهر التالي إلى الإسكندرية، حيث لقي 60 ألف مصري حتفهم. ولم







## مَدُن متمدّنة

## بغداد:

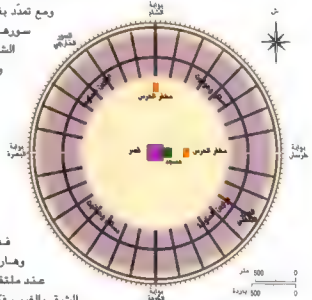
مدينة أسسها في العام 672 بعد الميلاد أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس، وإن كانت المدينة قد بنيت في الأصل على الضفة الغربية لنهر دجلة.

كان اسمها الأصلي «مدينة السلام»، لكن بغداد عُرِفَت بين الشعب بـ«المدينة المدوّرة»، نسبة إلى الجدران الدائرية التي كانت تحيط بها. كان قصر الخليفة والمسجد الجامع يقومان في نقطة المركز منها تماماً، ومتهما تشعب أربعة طرقاً باتجاه الخارج. وكانت تعلو القصر قبة خضراء يبلغ ارتفاعها زهاء 185 قدماً ويعتليها خيال على صورة فرسه.

ومع تمدّد بغداد تدريجياً إلى ما وراء سورها الأصلي باتجاه الضفة الشرقية لنهر دجلة، جرى وصل شطري المدينة بجسر من القوارب، وسُمّي الشطر الشرقي منها بالرصافة.

بلغت بغداد أوجها من حيث الازدهار التجاري والتأثير الثقافي في القرنين الثامن والتاسع للميلاد. ففسى ظل خلافة المهدي وهارون الرشيد، وقفت بغداد عند ملتقى طُرُق التجارة ما بين الشرق والغرب، فكانت تربط آسيا بأوروبا وبالعكس. وبسبب من صروحها العمرانية المهيبة وجدانتها الفخاء، طارت شهرتها بوصفها أغنى وأجمل مدينة في العالم.

في النصف الثاني من القرن التاسع، كانت سلطة الخليفة العباسي قد ضعفت من جراء المشاحنات والمنازعات الداخلية التي كانت تصل أحياناً إلى حد الاحتراق الداخلي. وعندما غزا المغول بغداد في القرن الثالث عشر، قُتل الخليفة ومعه الآلاف من أبناء رعيته. وبومها نُذِرَت أحياء عن بكرة أبيها بعدما انتهت وأُحرست فيها النيران. ولحق تخريب واسع بشبكة الري التي كانت تعتمد عليها المدينة وبساتينها، الأمر

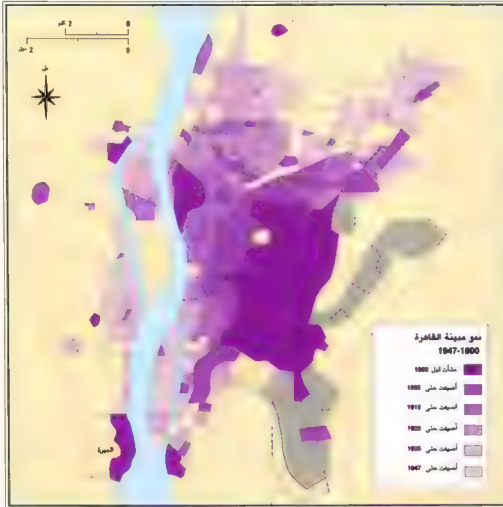


الذي عجل بصورة دراماتيكية في انحطاط المدينة ومن ثم اضمحلالها. وحين صارت بغداد جزءاً من الأمبراطورية العثمانية عام 1534، كانت قد عرفت طعم الإهمال وخمول الذكر ردهاً طويلاً من الزمن.

أُجريت على بغداد تحسينات، وإن على نطاق متواضع، في مستهل القرن العشرين، مع بناء المدارس والمستشفيات فيها. وحملت إليها الطفرة النفطية التي شهدتها سنوات السبعينيات من القرن العشرين الغنى المتزايد، وبفضله شرعت المدينة تتطور على نطاق مذهل، ولاسيما مع إنشاء مناطق سكنية لأبناء الطبقة الوسطى. فحُدّت خطوط جديدة من لسان الماء ومجاري الصرف الصحي، كما بُنيت فوق الأرض شبكة من الطرقات السريعة، فضلاً عن بناء مطار جديد للعاصمة. ثمة أمد عشر جسراً تربط ما بين شطري المدينة، وقد دُمّر العديد منها لاحقاً بفعل القصف الجوي الأمريكي في عام 2003. هذا وتمثّل ساحة التحرير حالياً، القائمة على الضفة اليسرى للنهر عند أحد طرفي جسر الجمهورية، قلب المدينة الذي تشع منه شوارعها الرئيسية.

وفي ظل حكم صدام حسين الديكتاتوري، أُقيمت مجموعة من النُصب التذكارية الضخمة، ومن أبرزها «قوس النصر»، وهو كناية عن كتلة هائلة من البرونز على شكل ساعدين يمتشقان ساهبين قبل إنهماق نموذجان عن ساعدي صدام حسين نفسه. وهناك مثل آخر مفاهيم تماشاً لطله أدعى إلى الإعجاب عن الفن النُصبي الحديث؛ ذلك هو «نصب الشهيد» الذي أُقيم تخليداً لذكرى القتلى في الحرب الإيرانية - العراقية (1980-1988). صنم النصب إسماعيل فتاح، وهو كناية عن قبة ضخمة بصلبة الشكل حُدّت نصفين وأكسيت غطاءً لماعاً بالأجر الغزفي الأزرق التقليدي. وبصرف النظر عن كل هذه النُصب التذكارية، فإن معظم مشاريع التحسينات المركّسة لبغداد قد توقفت لدى اندلاع الحرب مع إيران في بداية الثمانينيات من القرن العشرين. ثم حرب الخليج التي تلت غزو العراق للكويت والعقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق إثر ذلك. لكن الاستثناء الأبرز الوحيد في هذه القصة من الانحطاط المتجدد، كان القصور الرئاسية، وهي في حقيقة الأمر كناية عن مجمعات شاسعة من المبانى تحيط بها الأسوار العالية، وتضم مقرات بأذخة





النيل، واستقرار منسوب النهر عند ضفتيه، فضلاً عن وجود جزيرتين كبيرتين هما الروضة والجزيرة، هو ما أتاح للمدينة أن تتوسع وتتعدد عبر النهر نحو الجزيرة وأسبانية. وهذا ما جعل القاهرة الحديثة (بسكانها البالغ عددهم 18-20 مليون نسمة)، واحدة من أضخم مدن العالم على الإطلاق.

#### طشقند:

إلى حين انهيار الاتحاد السوفييتي في عام 1991، كانت طشقند ذات المليونين ونصف المليون نسمة تقريباً، وأبع أكبر مدينة سوفيهيتية بعد موسكو ولينينغراد وكيف. لقد دُمّرت المدينة بمظمها من جراء زلزال عنيف ضربها عام 1966، فتهدّم 95 ألف

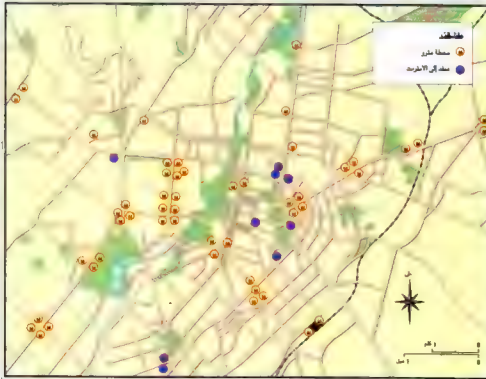
الريح الشمالية بسبب تأخذ معها الروائح الكريهة وأدخنة النفايات المحروقة جنوباً. قبل القرن التاسع عشر، كان ثمة ما يحول دون تمدّد المدينة غرباً، وهو السهل الفيضي (الناجم عن ترسبات الطمي من النهر). لكن أمراء الممالك والولاة العثمانيين بنوا قصوراً بديعة لأنفسهم تحفّ بها الحدائق وتظلّلها أشجار النخيل الوارفة، فيما بقي السواد الأعظم من الشعب يعيش في دروب وأزقة أشبه بالمقاهة داخل أسوار القاهرة القروسطية. أما المدينة ذات النسق الأوروبي بجاداتها العريضة وميادينها الرحبة، فلم تر النور إلا في الستينيات من القرن التاسع عشر، وذلك في محاكاة واعية لمباريس المعاد تخطيطها على يد البارون هاوسمان. والحال، أن تحسّن نظام التحكم بفيضان

إلا أنها استعادت شيئاً من ازدهارها وألقها السابق في عهد تيمورلنك وخلفائه. وبالنظر إلى الصراع المحتدم عليها بين الحكام المتعاقبين، الأوزبك والقازاق والفرس والمغول والأيرت والكالاميك، لم تعرف المدينة قط طعم الاستقلال. في القرن الثامن عشر، قُسمت المدينة إلى أربعة أحياء، متخاصمة أو حتى متعادلة في بعض الأحيان، إنما تنقسم معاً سوقاً واحدة. استولى عليها الروس في العام 1865، ولم يصل خط سكة حديد ما وراء بحر قزوين إلى طشقند إلا في عام 1898، بعدما كان عدد سكانها قد ارتفع ثلاثة أضعاف تقريباً، من 56 ألفاً إلى 156 ألف نسمة. شهدت الحقبة السوفيتية عملية تصنيع مكثفة وتوسعاً في الأحياء السكنية ذات المتنزهات والحدائق الوفيرة. أما المساجد والمدارس وغيرها من المباني الدينية، فإما دُشمت أو حُوّلت إلى مصانع ومخازن ومطابخ. ومنذ الاستقلال والمدينة بأجمعها تعاود التأكيد مجدداً على طابعها الإسلامي، وذلك بتشييد المساجد ذات القباب الساطعة، جنباً إلى جنب المجمععات التجارية الكبرى والأروقة المقنطرة التي تغص بالسلع الأثينة من جنوب شرقي آسيا.

منزل، وأصبح قرابة 300 ألف من سكانها بلا مأوى. وقد أعيد بناء طشقند كمدينة سوفيتية نموذجية، ذات جادات عريضة وفضاءات عمومية رحبة تزدان بالنوافير الرشاشة، وتختلّلها صفوف من المباني العامة والعمارات السكنية المبنية بالخرسانة في هندسة عصرية عالمية، وإن احتفظت بموتيفات أوزبكية تقليدية كالعمارات المقنطرة والأروقة ذات الشرفات المكشوفة والأشغال الفسوفسائية والكسوات الفخية. تمتاز المدينة بمتنزهاتها الفسيحة وشبكة ممرات الأنفاق الحديثة تحتها. عندما صارت أوزبكستان دولة مستقلة في العام 1992، قيل بأن الروس، الذين كانوا يشكلون حوالي نصف عدد السكان، أخذوا يغادرونها بمعدل 700 فرد أسبوعياً. إلا أن اللغة الروسية لا تزال تتردد على السنة نصف مواطني طشقند على الأمل.

قبل إعادة بناء طشقند، كانت هناك مدينتان متميزتان فهما: المدينة الإسلامية القديمة، والمدينة الروسية الحديثة، تضم بينهما ترعة مائية. وقد قُبِض لبعض الدروب والأرقة الشبيهة بالمقاهي في طشقند القديمة ذات البهوت التقليدية بأفئتها المظلة بدوالي

الكريمة البهيجية. أن تنجو من الزلزال المدمر، وطشقند، هو الاسم الأخير من عدة أسماء أعطيت للمدينة القديمة، التي كانت في الأصل مستوطنة تجمعية للبدو الرُحَّل والتجَّار على شفة نهر شروشك، أحد فروع سيرداريا، لما هزم العرب جيشاً صينياً في معركة طلاس عام 751، كانت المستوطنة تُعرف باسم شاش، وعُرب الاسم لاحقاً إلى «الشاش». وقد أُظنبت الكُتَّاب العرب في وصفها باعتبارها بقعة مزدهرة تكثُر فيها الكروم وتنتج بالأسواق والجرفيين العاكفين على أشغالهم بكل مهة ونشاط. ولغظة «طشقند»، التي تعني باللغة التوركية المحلية «المدينة الحجرية»، ظهرت أول ما ظهرت على نقود معدنية سكّت في الحقبة المغولية. ولئن استُبيحت المدينة وانتهبت على أيدي المغول،



## وقعُ النفط في القرن العشرين

ذات عمارات شاهقة، ومجمّعات تجارية براقية، وطُرُقات سريعة من سدة مجازات، وأحدث أنظمة الاتصالات وأكثرها تطوراً، وغيرها وغيرها من آخر منجزات المدينة الحديثة. لناخذ المملكة العربية السعودية مثلاً، وكانت فيما مضى إحدى أفقر دول العالم وأقلّها تطوراً؛ لقد أتاح لها اكتشاف النفط في أراضيها أن تؤمّن لسكانها نظاماً رائعاً للرعاية

الصحية والتعليم العام

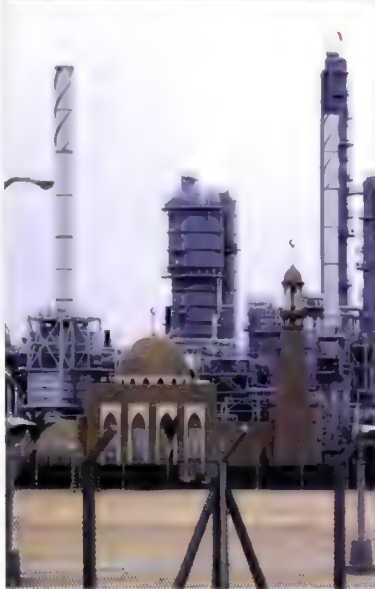
ومن جهة أخرى،

ساهم ذلك في زيادة عدم استقرار المنطقة من جراء تسرّع أقدام الأنظمة الأوليغارشية القبلية، التي مكّنها إمساكها بمقدّرات النفط من التسيّد على البلاد بواسطة صيغة مركّبة من المحسوبية والقمع.

ولعلّ المثل الصارخ على الأثر المدمر لسياسة الاعتماد الكلي على النفط هو العراق فقد غطّته شبكة من العلاقات القرابية يُشرف عليها صدام حسين شخصياً، لم تترك ناحية من نواحي المجتمع إلاّ وامتدت إليها إثر تأميم النفط في العام 1972. لقد تحكّمت تلك الطبقة بتوزيع أذونات الأراضي المصادرة من ملاك الأرض من العهد السابق أو من الخصوم السياسيين، فأقامت مشاريع تجارية وأعمالاً شتى، بما فيها

كان وقعُ النفط والغاز الطبيعي بمثابة نعمة متفاوتة على المجتمعات الإسلامية في غرب آسيا، ولاسيما في منطقة الخليج التي تضم العراق؛ تلك المنطقة التي تحوي ما بين 60 و65 بالمئة من الاحتياطي العالمي المكتشف من النفط فمن جهة، أتاح ذلك للبلدان المنتجة للنفط أن تبني مدناً عصرية تطلب الألباب،

محطة لتكرير النفط في المملكة العربية السعودية. إلى 95 بالمئة تقريباً من نفط العالم تُنتجه حوالي 5 بالمئة من مجمل آبارها النفطية. ويقع ثلثا تلك الآبار في غرب آسيا، حيث تُعدّ المملكة العربية السعودية أكبر منتج للنفط في العالم





## الموارد المائية

ناصر، ممسكاً بزمام النهر بإحكام من خلال تخزينه مياه الفيضان في ما يُعد حالياً أضخم خزان اصطناعي للمياه في العالم يرى بعض الخبراء أنه ستكون للسد العالي عواقب وخيمة بعيدة المدى على البيئة. فالسد يحول دون وصول العناصر الغذائية التي تحملها مياه النهر من المناطق الاستوائية، مما يزيد في درجة ملوحة التربة ويقلص الثروة السمكية في شرق البحر المتوسط والسود التي أقامتها تركيا على نهر الفرات. لم تكن بأي حال أقل إشارة لجدول والمشاكل. فسد كيبان (1975) وسد كراكا (1987)، وكلٌ منهما مدَّ لاحتزان حوالي 30 مليون كيلومتر مكعب من المياه بغية توليد الطاقة الكهربائية وتنظيم جريان مياه النهر. قد مولا جزئياً بقروض من البنك الدولي. غير أن البنك نفسه رفض الإسراف في بناء سد أناتورك الأضخم حجماً، البالغة سعته التخزينية زهاء 46 مليون كيلومتر مكعب، لأن سورية والعراق اللتين يهجر مجرى النهر السفلي أراضيهم، امتنعتا عن الموافقة على المشروع. لقد خففت السدود التركية ومشاريع الري المرتبطة بها من تدفق نهر الفرات بمقدار النصف تقريباً، إلى 30 مليون متر مكعب إلى ما دون 18 مليون متر مكعب في السنة. وبناعاً عن موقفها، تدعي تركيا أن متوسط استخدام البلدان من مياه النهر لم يتعدَّ قط 15 مليون متر مكعب سنوياً، وبالتالي ليس ثمة من ضرر يصيب أيهما منهما. كذلك تعكف تركيا على تطوير نهر دجلة من خلال سلسلة من المشاريع التي قد تقضي إلى انخفاض حجم التدفق المائي، إنما مع تحسُّن في مستوى الاعتمادية. فالعراق هو المستفيد الأكبر من نهر دجلة، وأي نقص يحصل في تدفق مياه الفرات نتيجة الأشغال الهندسية التركية قد يتقلب نفعاً له من خلال تطويره مياه دجلة.

وربما لا تتجلى قضية إدارة المياه المشحونة بكل عوامل التفجير كأوضح ما يكون للعُمان مثلاً تتجلى في الجدول الدائر حول اقتسام مياه نهر الأردن، النقطة المصلية في النزاع العربي - الإسرائيلي. فعاهدة السلام المبرمة بين إسرائيل والأردن في تشرين الأول/أكتوبر 1994، تتضمن بنداً ينصُّ على تزويد الأردن وعلى مراحل بكمية 200 مليون متر مكعب من المياه سنوياً، على أن يؤمَّن جزء من هذه الكمية من الموارد المائية الإسرائيلية الحالية، والجزء المتبقى من مشاريع التطوير المشتركة. وللإشارة والمفاوضات

لطالما كان للماء، وفرته أو ندرته، أعقق الأثر في تلك المناطق التي تشكَّل قلب العالم الإسلامي. ففي مصر الغابرة، أثمرت عدة قرون من الخبرة الإنسانية في التحكم بفيضان النيل السنوي وتصريفه عبر منظومة معقدة من ري المياض، تلك الهندسة المدروجة فائقة الدقة للأهرامات. وفي بلاد ما بين النهرين، كما في مصر، كانت الدولة بكل بنائها البيروقراطية اللازمة لممارسة السلطة والسيطرة، همة النهرين بالذات. وفي الجزيرة العربية، احتلت قحولة الأرض وقسوة المياه مكانهما كمفردتين أساسيتين في لغة الإسلام. ففي القرآن، المنظر البارد والشمسين، الذي يجعل الصحراء تزهو ما بين ليلة وضحاها، إن هو إلا آية من آيات الله، واستعارة مجازية تُستخدم للبعث والنشور. ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمضي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ [سورة فصلت، آية 39]. والمعنى الجذر للفظ «الشريعة» هو السبيل أو الميزان إلى حيث الإزواء، مصدر البقاء والبقاء. وهناك معجم عربي من القرن الثامن عشر يُنسب الشريعة بالماء «السبيل» الذي يروي ظمأ الإنسان ويُطهره من خلال الصوم والصلاة والصح والزوج. لقد كانت إدارة الماء مفتاحاً أساسياً للنجاح أو الفشل بالنسبة للحكومات الإسلامية في الماضي. ففي منطقة أعالي الفرات، حرص الخلفاء العباسيون على ترميم وتوسيع قنوات المياه الجوفية التي بنوها الساسانيون، مما أتاح لهم إضافة مساحات جديدة قابلة للزراعة. وبالعكس، فإن إهمال منظومة الري في العصور اللاحقة عجل بتدهور أوضاع تلك الدولة اقتصادياً وسياسياً.

هذا وتعدَّ إدارة المياه عاملاً مفصلياً في تطور مصر الحديثة. فتحت حكم أسرة محمد علي، بُنيت أولى السدود وخرانات المياه للسيطرة والتحكم بفيضان النيل، مما وسَّع رقعة الأرض الزراعية وسمح باستخدام المنهض الفيضي الواقع ما بين القاهرة والجزيرة إقامة مدينة جديدة على الطراز الأوروبي تتخللها الميادين والجادات العريضة وجمال عبد الناصر، الزعيم القومي الكاريزمي الذي أطاح بالملكية في عام 1952، عجلَ بحداث أزمنة السويس عام 1956 عندما أقدم على تأميم قناة السويس بعدما رفضت الولايات المتحدة تمويل السد العالي في أسوان. والسد الذي بُني بمساعدة سوفيتية، يرضى اليوم عند بحيرة







الدول الإسلامية، من المغرب إلى إندونيسيا، تدور معظمها حالياً في فلك الولايات المتحدة. وتبعاً لذلك، تميل تلك الدول إلى تدريب وتنظيم قواتها المسلحة على النمط الأمريكي. وهذا التفوذ يحدّ باطّراد محل نظيره البريطاني أو الفرنسي أو الروسي السابق، إلّا في حالتي سورية وليبيا، حيث أسلحة وتنظيمات الحقبة السوفييتية لا تزال ملموسة إلى حد بعيد. ربما تكون إيران استثناءً لجهة تطويرها مركزاً مستقلاً لها على الصعيد العسكري. إلّا أنّ هذا المركز ما برح ضعيفاً وفي أولى مراحل نموه. ثمة من بين أعضاء الحكومة الإيرانية من يعلن أنّ الأسلحة النووية تتنافى ومبادئ الإسلام. صحيح أنّك تلمس مشاعر وآراء مماثلة يعبّر عنها في البلدان المسيحية، إلّا أنّه نادراً ما تجدّها داخل الحكومة.

إلى ما هي عليه الآن من قبل الدول الصناعية إبّان الحرب العالمية الثانية والدول الإسلامية بعامّة تندرج في عداد البلدان النامية، إذ لا تملك أي منها قاعدة صناعية متقدمة، مما يعني أنّها مضطرة إلى استيراد منظومات أسلحتها الرئيسية كافة من الخارج. والاستثناء هنا نوعان: الأول، إنّ البنادق والمسدسات ونخائرها وسواها من الأسلحة الصغيرة يتمّ صنعها بكميات وفيرة؛ والثاني، إنّ بضع دول مما لها حلفاء أقوياء، مثل باكستان وتركيا ومصر، تحظى بقدر من المساعدة الخارجية في تطوير صناعة خاصة بها لإنتاج الأسلحة. ويُعتقد أنّ باكستان قد حصلت على مساعدة تقنية من الصين في تطوير برنامجها النووي. وعلى شاكلة القسم الأكبر من دول العالم، نجد



## إضاءة سريعة: جنوب شرقي آسيا 1950 - 2000

الشرقية، وكذلك في جنوب جزر سيلانيزي. وفي تشرين الأول/أكتوبر 2002، انفجرت قنابل (يُزعم أن أعضاء من منظمة «القاعدة» هم الذين زرعوها) في حانة ليلية على جزيرة بالي، مما أسفر عن مقتل 200 شخص وجرح 300 آخرين.

نالت ماليزيا استقلالها في العام 1957 وشكلت اتحاداً يضم الملايو وسنغافورة وصباح وساراواك. وقد انسحبت سنغافورة من الاتحاد في العام 1966 واعتنقت سياسة للحكم متعدد الأعراق والديانات؛ فيما يُعتبر الإسلام، على النقيض من ذلك، دين الدولة الرسمي في ماليزيا. منذ ما قبل تأسيسها، وحالات

شهدت أواخر الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين ظهور تشكيلة متنوعة من الدول في جنوب شرقي آسيا. تتألف المنطقة، في الوقت الحاضر، من جمهورية إندونيسيا واتحاد ماليزيا وسلطنة بروناي، حيث المسلمون أكثرية؛ ومن جمهوريات سنغافورة والفلبين وميانمار (الجمهورية الاشتراكية للاتحاد البورمي)، ومملكة تايلاند، وجمهورية لاو الديمقراطية الشعبية (لاوس)، وجمهورية كامبوتشيا الشعبية (كامبوديا)، وجمهورية فييتنام الاشتراكية، حيث المسلمون أقلية.

تميز انخراط المسلمين في تكوين وتطوير عدد من هذه الدول على مدى السنوات الخمسين الماضية

عقبات صغيرات في أتشيه بإندونيسيا يتعلم القرآن كانت أتشيه، تاريخياً، مركزاً للمقاومة الإسلامية ضد الحكم الاستعماري الهولندي، وهي اليوم المقاطعة الإندونيسية الوحيدة التي أعادت العمل بالشريعة الإسلامية كأساس للقانون العام



بالتعدد والتنوع. وقد تخللته، جزئياً، سلسلة من الانتفاضات التي شملت مسلمين من شتى التوجهات والتطلعات.

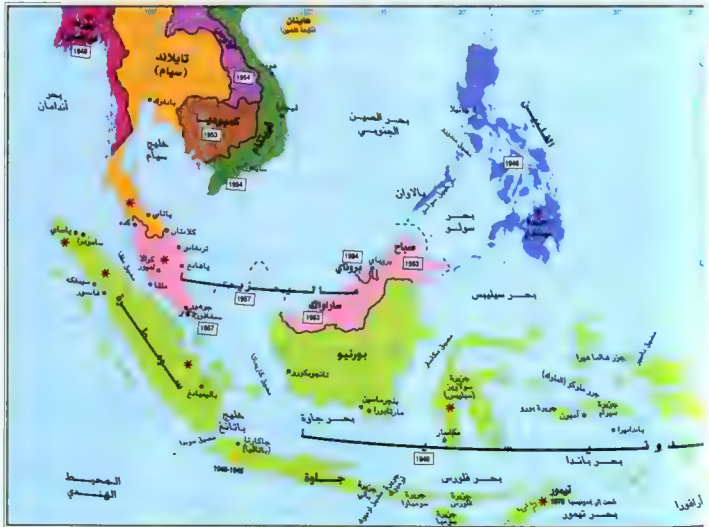
تشكوين جمهورية إندونيسيا مثلاً في الفترة 1949 - 1950، اقترن بانتفاضات (1948 و 1953) قام بها عدد كبير من المسلمين في غرب جاوه وجنوب جزر سيلانيزي (سلبيس) وأتشيه (شمال سومطرة). لأن زعماءهم لم يرق لهم القرار المتخذ بتقييد دور الإسلام في الجمهورية الوليدة. وفي السنوات الأخيرة كذلك، شهدت إندونيسيا ولا تزال سلسلة من النزاعات المحلية والإقليمية والدولية التي للمسلمين ضلع فيها. فما بين عامي 1999 و 2000، اندلع صراع بين المسلمين والمسيحيين في جزر الملوك (ملوكو) الإندونيسية



الانفصال عن دولة الفلبين، وإلى إقامة وطن مستقل للمسلمين الفلبينيين. كما سعت حكومات الفلبينية متعاقبة إلى التوصل إلى تسويات مع المسلمين في المنطقة. والمسلمون في تايلاند يتركزون بالدرجة الأولى في ساتون، شمال غربي البلاد، وفي الأقاليم الجنوبية. باتاني ويولا وناريثوت، المحاذية لماليزيا. وقد بلغت مقاومة المسلمين للدولة التايلاندية، المتخذة شكل نضالات مسلحة ودعوات انفصالية، ذروتها في عقد التسعينيات من القرن العشرين. أما المسلمون في ميانمار (بورما)، فهم يقطنون غالباً في منطقة أراكان على حدود البلاد مع بنغلادش، وما انفكوا منذ خمسينيات القرن المنصرم في نزاع متواصل مع السلطات هناك حول وضعهم القانوني.

التوتر دائمة الحدوث بين سكان ماليزيا الصينيين والملاويين، حتى إن إنداحتها انفجرت على شكل أعمال شغب عرقية في عام 1969. وحيث إن الملاويين مسلمون ويشكلون الغالبية العظمى من سكان البلاد، فإن مثل هذه النزاعات بين فئات المجتمع المختلفة لا بد من أن تأخذ بعداً دينياً. غير أن ماليزيا تشهد كذلك توتراً داخل المجتمع الإسلامي نفسه يستمر معه المسلمون في مناقشة طبيعة دور الإسلام ومناه في شؤون الحكم.

وفي الفلبين، يتواجد المسلمون (أو «المورو») كما يُسمون في كثير من الأحيان) أكثر ما يتواجدون على جزيرة منداناو وأرخبيل سولو. وقد رأينا المسلمين هناك يدعون في أوائل السبعينيات من القرن العشرين إلى



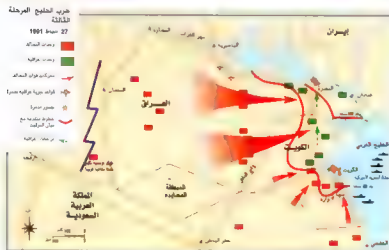
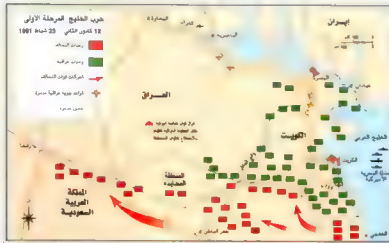
## إضاءة سريعة: العراق 1917 - 2003

السكان هم من الأكراد، ويتواجدون أساساً في شمال البلاد. خلال السنوات الأخيرة من الحكم العثماني، انبثقت حركة تدعو إلى الاستقلال بين ضباط الجيش وأعيان المدن، أجتبتها مشاعر قومية عربية جياشة. وحين منحت بريطانيا، التي كانت احتلت بغداد عام 1917 ونصبت حكومة عسكرية في البصرة، تفويضاً بالانتداب على العراق في مؤتمر سان ريمو عام 1920، واجهت سلسلة من الثورات شارك فيها موظفون سابقون في الإدارة العثمانية وملاك عقاريون وزعماء عشائر ورجال دين سُنّة وطبقة، وكذلك ضباط عسكريون. ردّ الإنجليز على ذلك بإقامة ملكية دستورية على رأسها فيصل بن الحسين، أحد أبناء شريف مكة، الذي كان الفرنسيون قد أخرجوه عنوة من دمشق. وقد انتهى الانتداب البريطاني في عام 1932، حين قبل العراق عضواً في عصبة الأمم، لكن بريطانيا احتفظت بقواعد جوية لها في الشَّعْبَة والحَبْانية، وبمحصنة حاكمة في شركة نفط العراق التي باشرت بتصدير النفط في عام 1934. ولئن أدخلت النخبة العراقية في الحكومة، إلّا أنها ظلت منقسمة على نفسها تتنازعها مختلف المصالح الفنية والعشائرية، في حين عملت الاضطرابات في فلسطين الناجمة عن الهجرة اليهودية على إلهاب الحس القومي والمشاعر المناوئة للإنجليز. وقد أدّى انقلاب عسكري موالٍ للمحور قامت به مجموعة من الضباط القوميين عُرفت به «العرب الذهبي»، إلى احتلال البريطانيين بغداد والبصرة للمرة الثانية في عام 1941

وتسببت أزمة السويس عام 1956، وانضمام العراق إلى «حلف بغداد» الذي يضم تركيا وإيران وباكستان، والموالى للغرب والهادف إلى احتواء النفوذ السوفييتي، بحادث توترات شديدة ما لبثت أن انتهت بقيام ثورة تمكنت بدعم شوري من الإطاحة بالنظام الملكي في عام 1958. غير أن الحكم العسكري الجديد نفسه استبدل في عام 1963 (ومرة أخرى في عام 1968) بضباط ينتمون إلى حزب البعث العلماني المتوجه. وفي ظل صدام حسين التكريتي (نائب رئيس الجمهورية الفريق أحمد حسن البكر، ورجل النظام القوي قبل زمن طويل من تبوّته سدة الرئاسة في عام 1979)، سفرت عشيرة البو نصّر من تركيز جهاز حزب البعث على

شأن معظم الدول العربية. أصبح العراق دولة مستقلة بعد انقراط عقد الأمبراطورية العثمانية عند نهاية الحرب العالمية الأولى وقد واجه منذ البداية مشاكل جمة في بلورة شعور موحد بالهوية القومية. صحيح أنه كان تحت حكم العثمانيين المتسكنين بالمذهب السني، إلّا أن أغلبية السكان العرب (حوالي 60 بالمائة) هم من الشيعة الذين تربطهم وشائج دينية وثقافية قوية بإيران المجاورة، حيث المذهب الشيعي هو عقيدة الدولة الرسمية منذ القرن السادس عشر. وبهاء ربع





المنازل المعمول به في بلدان أوروبا الشرقية لجلاء مراكز قوى مهولة أساسها توليفة مركبة من الحسوبة والإكراه. وقد أنبت نظام الحكم هذا أنه منيع وصامد على نحو لافت للنظر. وعمل ما في وسعه لخلق شعور بالهوية الوطنية العراقية. أساسه التراث العربي - الإسلامي والتراث «الرافدي» ما قبل الإسلامي، مع توظيفه للتنقيبات الأثرية والفولكلور والشعر والفنون على أنواعها لتعزيز حسّ الفريدة والتمايز العراقيين وجري التذليل بالأكراد على نحو وحشي، فذُمرت نحو من ألف قرية وأُزهقت أرواح آلاف المدنيين بالفخازات السامة. هذا بينما وقف الشيعة، على وجه العموم، إلى جانب الحكومة في حربها الكارثية مع إيران (1980-1988)، وإن كانت هناك معارضة لا يستهان بها من جانب حزب الدعوة الذي أسسه رجل الدين المغدور، آية الله محمد باقر الصدر في ستينيات القرن العشرين. وفي أعقاب قيام قوات تحالف دولي بطرد العراقيين من الكويت في عام 1991، اندلعت انتفاضة شيعية في عدد من المدن الجنوبية، من بينها البصرة والنجف وكربلاء، لكنها سرعان ما أُلحقت دونما رحمة بالرغم من وجود القوات الأميركية في المنطقة. وفي حملتها لاستئصال شأفة المعارضة بكل صورها، أقدمت الحكومة العراقية على تجفيف المستنقعات الجنوبية (الأهوار) التي يقطنها الشيعة؛ في حين وجد الأكراد في المنطقة الجبلية للقوات المتحالفة حماية فعالة لهم. وخلافاً لكل التوقعات، لم تعمل العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق بعد احتلاله الكويت سوى على تشديد قبضة النظام الحاكم على المجتمع العراقي، وأغنت أكثر فأكثر الشبكات التي يسيطر عليها صدام حسين وإبنائه من خلال احتكارهم صادرات النفط غير الشرعية وبرنامج الأمم المتحدة «النفط مقابل الغذاء». وقد اكتمل سقوط النظام إثر الهجوم الأنجلو - أمريكي على العراق في آذار/مارس 2003، بالقبض على صدام حسين في كانون الأول/ديسمبر من نفس العام. لأنه آن من غير الواضح بعد ما إذا كان الأميركيون سينجحون في تحقيق هدفهم المعلن، ألا وهو إقامة نظام حكم ديمقراطي يحظى بالقبول لدى جميع فئات الشعب العراقي.

## إضاءة سرية: أفغانستان 1840 - 2002

1919)، طُبق مبدأ الاحتراف في الجيش، كما أدخل التعليم الحديث إلى البلاد. وقام ابن حبيب الله وخلفه أمان الله (ح 1919-1929) بدفع عجلة التحديث أوطاً إلى الأمام بإجرائه تغييرات تشريعية كبيرة، بما في ذلك تحريم العبودية وشرع يسمح بتعليم النساء، وعدل من وضعيتين القانونيتين بأن منحهن حقوقاً متساوية في الزواج والطلاق والميراث، كذلك اعتمد اللباس الغربي في البلاط. فأثارت تلك الإصلاحات حفيظة بعض العلماء وزعماء القبائل المحافظين المنتمين إلى الطريقة النقشبندية، فناروا على أمان الله وأجبروه على ترك البلاد إلى المنفى في عام 1929.

وآل الأمر بعد أمان الله إلى القائد العسكري البشتوني شاد شاه (ح 1929-1933)، فأعاد خلفه ظاهرشاه (ح 1933-1973) العمل بالحاكم الشرعية، وكافأ قبائل البشتون التي كان يعمل عليها بإعطاء المناصب الحكومية على زعمائها، وغض الطرف عن ممارسة التمييز العرقي ضد أبناء البلاد من غير البشتون في توزيع الثروة. وفي الوقت عينه، استؤنف برنامج التحديث إنما بشكل معدّل، اضطلعت الدولة فيه بالدور الرئيسي في التنمية الاقتصادية. وبفعل الضغوط الاستراتيجية الناجمة عن مغاميل الحرب الباردة والنزعة القومية البشتونية للنظام التي ولدت توترات حادة مع الدولة الجارة: باكستان، اقترب طرفٌ نافذٌ في النخبة البشتونية من موسكو. وأتت هذه العملية إلى عزل ظاهر شاه على يد ابن عمه، رئيس الوزراء الأسبق محمد داود، بدعم من بعض الدول المجاورة. ألغى داود الملكية، وأعلن نفسه رئيساً لجمهورية أفغانستان. ودّ السوفييت بتدبير انقلاب عسكري قاده حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني، الشيوعي، وأدت هذه الخطوة إلى تدخل سوفييتي مباشر في عام 1979 لمساندة جناح «برشام» (غير البشتوني) في حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني بزعامة بابر كرامال. والجهاد الذي تبع ذلك، ونال دعم بعض الدول العربية، إضافة إلى باكستان

أفغانستان بلاد جبلية تكثر فيها الأودية السحيقة والوادي والتجود القاحلة: وهي لم تتشكّل في أي وقت مضى كياناً سياسياً واحداً وإن دخلت أجزاء منها ضمن دولة البشتون التي أسسها أحمد شاه دوراني (ح 1747-1772). سكّان البلاد في غاية التحدّد والتنوع، يُمثّل البشتون، وهم أكبر مجموعة عرقية - لغوية فيهم، حوالي 47 بالمئة وتتركّز هذه المجموعة السكّانية في الهزام الجنوبي من المناطق المحاذية للحدود مع باكستان. أما الهاجيك، وهم ثاني أكبر مجموعة سكّانية من حيث الحجم (حوالي 35 بالمئة)، فيعيشون أساساً في شمال البلاد، إلى جانب الأوزبك والتركمان والقرغيز (8 بالمئة)، فيما يُمثّل الهزاره، وهم من الشيعة الإمامية، نحواً من 7 بالمئة من السكّان.

ونتيجة الصراع بين الإخوة، تفككت أوصال الدولة الدورانية في القرن التاسع عشر. وقد فتح ذلك الباب واسعاً أمام التدخل الروسي والبريطاني. فاهتمام بريطانيا بحماية إمبراطوريتها من التحدّيات الروسية، حفّزها على اجتياح أفغانستان مرتين: الأولى في الفترة 1839-1842، والثانية في الفترة 1879-1880. ونظراً لحاجتها إلى حكومة مركزية قوية لتثبيت وجود أفغانستان دولة عازلة في وجه الروس، نصّبت بريطانيا «الأمير الديندي» عبد الرحمن خان (ح 1880-1901)، فوطد هذا الأخير سلطانه على البلاد بشنّ حرباً ضد الهزاره الشيعة وقام بحملات هدامة قسرية لأهالي كفرنستان الأصليين من غير المسلمين. وفي خطوة لم يسبق لها مثيل، أعلن عبد الرحمن أنه يحكم بموجب حق إلهي وليس بتفويض قبلي. ففُرس سياسة تمييزية ضد كل من هو غير البشتون وأرقق كاملهم بالاضرابات الجائرة.

أياً كان الأمر، فقد أدخلت أيضاً عناصر الدولة الحديثة إلى أفغانستان، وفي مقدمتها تكوين جيش مركزي استُخدم لإخماد تمردات القبائل، ونظمت الحكومة في دوائر رسمية منفصل بعضها عن بعض. وفي عهد ابن عبد الرحمن، حبيب الله (ح 1909-1929)



أفغاني يحمل قذيفة إلى خط الجبهة سوف ينقل هؤلاء المقاتلون في وقت لاحق صواريخ «ستينغر» أرض - جو. وهذا السلاح على خفة وزنه وقابليته للعمل، يحتوي على أجهزة إلكترونية بالغة التعقيد لتتّبع الهدف. وقد تزوّد المقاتلون سرّاً بهذا الصاروخ عن طريق دائرة الاستخبارات الباكستانية، وكان له أثر مدمر على الاحتلال السوفييتي، وأتاح لرجال قبائل غير مدربين أن يسقطوا طائرات هليكوبتر حربية





## الجزيرة العربية والخليج 1839 - 1950

وشويني، بإصدارهم مرسوماً يقضي بأن تعوَض زنجبار التي ورثها ماجد، على مسقط التي ورثها ثويني، لفقدان هذه الأخيرة العائدات من جراء تقسيم السلطنة بينهما. والذي حَضَّ بريطانيا على التدخل في منطقة الخليج إلى الشمال من مسقط، الحاجة إلى مكافحة القرصنة المستفحلة فضلاً عن شيوع الاسترقاق هناك. وهكذا، وقَّعت سلسلة من المعاهدات ما بين عامي 1835 و 1853 وافق بموجبها شيوخ القبائل العربية المشتغلة في البحر، التي كانت تعيش على الغنائم المنتزعة من السفن العربية وحتى البريطانية، على عقد هدنة تنهي كل أعمال القرصنة، والمواقفة في الوقت عينه على حظر تجارة العبيد، وترك أمر الإشراف على مدى التقيد بالموافق للبحرية الهندية البريطانية. وقد أحس نظام التحالف هذا صناعة صيد اللؤلؤ في الخليج، كما عاد بالفائدة على الملاحة العربية التي طالما عانت أكثر من غيرها من اعتماد الأمن والطمأنينة بسبب القرصنة، مما كان يحمل التجار المحليين على نقل بضائعهم بواسطة السفن البريطانية الأفضل تسليحاً والأمن حماة. ودويلات الساحل المتصالح (دولة الإمارات العربية المتحدة حالياً) ظَلَّت بحكم المصالحات البريطانية حتى عام 1971، ترفضها بريطانيا بالضباط وتُخْرِف على سياستها الخارجية.

وسَّعت بريطانيا نطاق نفوذها ليشمل الكويت عام 1896، حيث أقامت محمية غير رسمية لحماية وكيلها، الشيخ مبارك الصباح، من الأخطار التركي المباشرة وصفتها قوة رئيسية كبرى في المنطقة، راحت بريطانيا تتدخل في العديد من النزاعات المحلية وتدخل تعديلات على الحدود المتنازع عليها، وتحاول ضمان استمرارية الوراثة. وأبرز حالة تستحق الذكر في هذا الصدد، النزاع الذي نشب بين أبو ظبي وعمان والمملكة العربية السعودية على واحة البُرَيْمي وقد فُض النزاع بقيام قوات الساحل المتصالح العُمانية بقيادة بريطانيا بإخراج السعودية من الواحة في عام 1955. كما أن مطالبة العراق بالكويت (التي تعود إلى أيام العثمانيين حين اعترف الشيخ رسماً بالسيادة العثمانية على بلاده) قاومتها بريطانيا بأن أرسلت جنودها إلى الكويت لضمان استقلالها في عام 1961.

التاريخ الحديث للجزيرة العربية والخليج عبارة عن نسج معقد من التفاعلات بين القوى السطحية على الأرض من جهة، والقوى الإقليمية والدولية من جهة أخرى. وقد تصاعفت الرهانات تضاعفاً هائلاً بوجود النفط واعتماد الاقتصادات الغربية، بالإضافة إلى الاقتصاد الياباني، على الإمدادات المنتظمة التي يمكن تأمينها منه. وإلى حين اكتشاف النفط في المنطقة، كانت في الأغلب الأعم منطقة فقيرة (فهما خلا مركزيّ صيد اللؤلؤ في الكويت والبحرين وميناء مسقط التجاري). ولا أهمية كبيرة لها بالنسبة للعالم الخارجي، بيد أن بريطانيا كانت في حاجة إلى حماية إمبراطوريتها الهندية من خصوم أو منافسين محتملين، بمن فيهم روسيا القيصرية والسلطنة العثمانية وإيران، اذْلك أقدمت على احتلال عدن في عام 1839، التي سرعان ما أصبحت محطة حيوية للتزود بالوقود (وخمها بعد مستودعاً لإعادة التزود بالوقود) في الطريق إلى الهند.

وهذا التطور الذي عرفته عدن، دسَّ عملية ضخمة قام بها البريطانيون طوال الثلاثينيات من القرن العشرين لتهدئة كل المنطقة الساحلية في جنوب الجزيرة العربية ولا سيما القطاعات القريبة من موانئها، بما فيها مرتفعات لمح والمدن - الدويلات المتناحرة في وادي حضرموت، مستخدمين في ذلك قاذفات القنابل التابعة ل سلاح الجو الملكي كرادع أخير وقد ضُمَّت محمية جنوب الجزيرة العربية (سُغِيَتْ لاحقاً «اليمن الجنوبي» قبل أن تتوحد مع اليمن في عام 1991) نحواً من ثلاث وعشرين سلطنة وإمارة وكياناً قبلتها تحت السيطرة التامة والشاملة لبريطانيا، حيث السلاطين يهيمون على المدن، وحيث طبقة «السادة» التي تزعم تصدرها من سلالة الرسول، تحتكر ملكية الأرض وتقوم بدور الوسيط بين عشائر الداخل. وإلى مسافة أبعد شرقاً، تمكّنت أسرة البوسعيد العُمانية في عهد زعيمها سيد سعيد بن سلطان (1807-1856) من خلق دولة مترامية الأطراف في المحيط الهندي أخذت تغتني وتزداد ثراءً بفضل تجارة العبيد وتصدير العاج والتوابل من المناطق الخاضعة للسلطان في زنجبار وبموجب سلسلة من المواقف المبرمة ما بين 1838 و 1856، نزل سيد سعيد عند طلب الإنجليز بالحد من الخفاشة في البلاد، موقراً المزيد من النزاعات للتدخل البريطاني. فُلِدِي وفاته في العام 1856، سُوِيَ البريطانيون نزاعاً نشب بين ابنه: ماجد



## صعود الدولة السعودية

بحيث انتقلت السلطة في تسعينيات القرن التاسع عشر إلى أسرة آل الرشيد الموالية للعثمانيين. ومن خلال إحيائه دولة أسلافه إثر غارة قام بها على معقل آل الرشيد في الرياض عام 1902، اتبع سليل محمد آل سعود، للمفقور له عبد العزيز بن سعود، النموذج الكلاسيكي نفسه الذي يُمصّاف بين القوة العسكرية للقبائل والقوة المعنوية للإحياء الديني. نظم محاربو ابن سعود، المعروفون بـ«الإخوان»، ضمن مستوطنات زراعية سُمّيت «الهجرات». وقد استلّهمت هذه الأخيرة من المجتمع الذي بنّاه النبي محمد عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة في العام 622. وقد أخضع فيها البدو لتدريب عسكري وتلقف ديني صارم. ولما كانت مستوطنات «الهجرات» تلك متوزعة في نقاط استراتيجية على امتداد الهضبة النجدية، فقد كان في استطاع تعبئة الإخوان وحشدهم على جناح السرعة مما وفّر على ابن سعود أعباء الإنفاق على جيش مستديم.

وقد أعادت الدول الأوروبية تمركز الدولة السعودية باتجاه الخارج بأن أحكمت الطوق على الجزيرة العربية من خلال السيطرة على محيطها.



مراحل اتساع الدولة السعودية  
1926-1902

الرشيد تحت سيطرة آل سعود حوالي 1912

الرشيد تم تحريرها بحلول 1920

الرشيد تم تحريرها بحلول 1926

محمّد وسلاسل عسكرية كبيرة

صوب

الرشيد تحت سيطرة الأمير

الرشيد تحت القنطرة الغربية

الرشيد تحت القنطرة الغربية

الرشيد تحت القنطرة الغربية

الرشيد تحت القنطرة الغربية

لعلك تجد في قيام المملكة العربية السعودية في القرن العشرين ترجيحاً للعديد من السمات التي وسّمت دعوة النبي محمد عليه الصلاة والسلام. يعود تأسيس الدولة السعودية الأولى إلى القرن الثامن عشر، حين قامت على تحالف ما بين مُصلح ديني من المذهب الحنبلي، هو محمد بن عبد الوهاب، وبين محمد آل سعود، حاكم مدينة عنيزة بالقصيم. إلا أن نفوذ محمد آل سعود تقلّص كثيراً من جراء التدخل المصري في عام 1818،

المفقور له بإذن الله الملك عبد العزيز بن سعود (يبدو في الصورة جالساً في الصف الأمامي إلى اليسار)، وقد طوّز ابن سعود حركة «الإخوان» بتجنيد أفرادها من القبائل البدوية وبهذه القوة الملتزمة، استطاع بناء الدولة التي صارت تُعرف منذ عام 1932 بدولة المملكة العربية السعودية.



## إضاءة سرية: إسرائيل - فلسطين

تكمّن جذور النزاع العربي - الإسرائيلي في جنين اليهود المهري للعودة إلى «أرض إسرائيل»، الأرض التي وعد الله بها النبي إبراهيم. وقد بنيت الصهيونية الحديثة على هذا الاعتقاد الموروث، إذ رأت أن الخلاص من الاضطهاد يكون في امتلاك أرض يمكن إقامة دولة يهودية ذات سيادة عليها. أقيمت أول مستوطنة يهودية عام 1878 في بتاح تيكفا. وأثناء الحرب العالمية الأولى، أعطى البريطانيون تعهدات متناقضة للعرب واليهود: فوعدوا شريف مكة بدولة مستقلة، وبناءً عليه قاد ابنه فيصل وعبد الله الثورة العربية ضد الأتراك العثمانيين؛ وفي نفس الوقت، قبلوا بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وهو المشروع الذي حظي بتأييد متزايد من الجاليات اليهودية في أوروبا، ولا سيما بعد وصول النازيين إلى سدة الحكم في ألمانيا. وإثر انتفاضة قام بها عرب فلسطين ابتداءً من عام 1936، وضعت خطة لتقسيم فلسطين إلى دولتين: عربية ويهودية. إلا أن الخطة عُلّقت لدى اندلاع الأعمال العدائية بين الطرفين عام 1939. وبعد أن أطاح الطرفاء في الحرب العالمية الثانية النقلاب عن فطائع الإبادة الجماعية التي اقترحوها النازيون بحق اليهود، تزايدت الضغوط للسماح بهجرة يهودية واسعة النطاق إلى فلسطين، وسرعان ما أصبحت تلك الضغوط جارفة. يتعذر الوقوف في وجهها. في عام 1947، صدرت خطة تقسيم فلسطين عن منظمة الأمم المتحدة التي تخصّص على قيام دولتين: عربية ويهودية، «متشاككتين معاً في عناق غير ودي» لكنّهما جيتان متصارعتان». على حد وصف أحد المسؤولين: «قبل زعماء اليهود بالخطة لكن العرب رفضوها». في 14 أيار/مايو 1948، انسحب البريطانيون من فلسطين، وفي اليوم التالي اعترفت الدول الكبرى باستقلال دولة إسرائيل. استطاعت الدولة الجديدة أن تنجو من هجمات متزامنة إنما غير منسقة، شنّها عليها جيوش الدول العربية المجاورة، مما عاد عليها بزيادة من الأراضي فوق ما خصّص لها بموجب خطة الأمم المتحدة. بسط شرقي الأردن - الأردن لاحقاً - سيطرته على جزء من فلسطين، بما فيه القدس الشرقية التي تضم أماكن ومزارات مقدسة لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين جميعاً. وجاءت هجمات شتّى مقاتلون يهود غير نظاميين، كالمذبحة التي طالت أهالي قرية دير ياسين الفلسطينية عام 1948، لتحتل آلاف الفلسطينيين على الفرار من مدّهم وفراقهم، مما خلق مشكلة لاجئين سوف تعمل باستمرار على صبّ الزيت على النار وتتمسّب بنشوب الحروب تباعاً في الأعوام 1956، 1967، 1973 و1982.

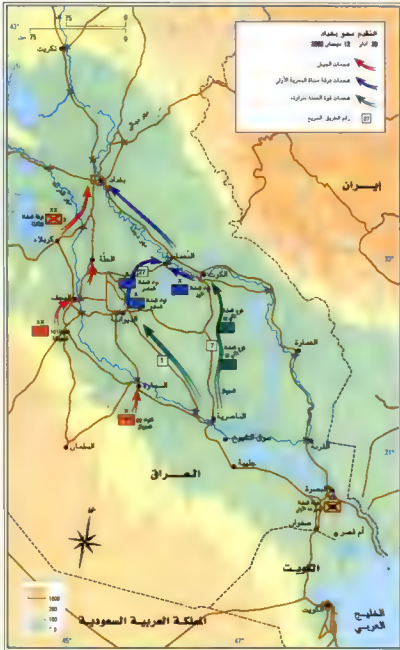








ونطاق مشاركة الجيش العراقي النظامي فيها في وجه مصاعب هائلة غير واضحين تماماً. ورغم نجاح الأميركيين في القبض على صدام حسين في كانون الأول/ديسمبر 2003، إلا أن قوات التحالف ما برحت تتعرض لهجمات متفرقة تندرج في خانة حرب العصابات.



للسلحة الكيميائية، إلا أن المجتمع الدولي التزم الصمت حيال الموضوع. وما فتئت هذه القضية بالذات تؤثر في مواقف الإيرانيين حيال ما يرون فيه ازدواجية معايير غربية فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل.

وبالنسبة للاجتياح العراقي للكويت في آب/أغسطس 1990، لعل باعده كان وضع العراق المالي السيء وقراءة خاطئة لردة الفعل الدولية المحتملة. لم يكن الاجتياح عنواناً على دولة عضو في هيئة الأمم المتحدة (وعضو في جامعة الدول العربية) فحسب، بل كان انتهاكاً صارخاً للقانون الدولي أيضاً. وإذا ما ترك من دون ردع، فقد يدع العراق يسيطر على حصة من احتياطي النفط العالمي أكبر بكثير مما يملك أصلاً. من منظور عراقي، يجوز التحجج بأن الحدود والدول التي اصطنعتها القوى الاستعمارية ولا تتمتع بأي أساس تاريخي لا تستحق الاحترام. غير أن العراق كان سبق وأن اعترف رسمياً بسيادة الكويت على أراضيها ضمن حدودها الحالية في عام 1963. وعلى أية حال، قام تحالف تدعمه الولايات المتحدة ويضم وحدات عسكرية ضخمة من مصر وسورية، بطردها من الكويت في مطلع عام 1991.

وفي السعاسم 2003، شنت الولايات المتحدة وبريطانيا هجوماً عسكرياً على العراق، بدعى تطبيق قرارات الأمم المتحدة التي أهدفت المنظمة الدولية في تطبيقها. وكذلك بذريعة أن العراق بات يشكل خطراً إقليمياً لا بل ودولياً لما يملكه من أسلحة دمار شامل، بما فيها الأسلحة النووية والبيولوجية والكيميائية. اعتبر العالم الهجوم على العراق انتهاكاً لأحد المبادئ الأساسية للأمم المتحدة، الذي ينص على عدم شرعية الحرب العدوانية. ولم تلق إلى جانب الولايات المتحدة في ذلك لا المكسيك ولا كندا، رغم اعتماد كلا البلدين اقتصادياً عليها.

لم يُعثر على أي سلاح جاهز للعمل لدى القوات المسلحة العراقية، كما لم يُعثر حتى نهاية عام 2003 على أي برنامج لتصنيع أسلحة الدمار الشامل في العراق. وقد اكتملت المرحلة الأولى من الحرب، بأن زحفت القوات المدعومة الأميركية على بغداد، وكبرى المدن العراقية الأخرى، واحتلتها في غضون بضعة أسابيع. وتبقى الطبيعة الحقيقية للمعارك التي دارت



من هويته الشخصية. والشَّابات المسلمات إنَّما يتخذن الحجاب حالياً باعترافه وسيلة لتوكيد هويتهن الخاصة بناءً على السبر الذاتي وليس بقبول المسلمات والممارسات الدينية للأجيال السابقة. ومثلما هي الحال في السهاقات الأوروبية الأخرى، تؤدي الصوفية في بريطانيا دوراً مهماً كحركة دينية، ولا سيما في اجتذاب المهتدين الجدد إلى الإسلام.

**هولندا (أمستردام، روتردام، لاهاي، أوترخت):**

في هولندا جالية إسلامية متنوعة المذاهب والمشارب، وهي تتألف من أتراك، وأفارقة من شمال القارة، وملوحيين من جزر الهند الشرقية الهولندية سابقاً. ومع ترسُّع أقدام الجاليات الإسلامية في هولندا، طرأت زيادة على عدد المساجد التي تبني هناك منذ عقد الثمانينيات من القرن العشرين. والعديد من المساجد ترتبط ببلدان المنشأ، ولا سيما تلك التي تعود إلى الأتراك لأنَّ أئمتها تؤدِّم الدولة التركية نفسها. تأخذ الدولة الهولندية على عاتقها تعليم اللغات الوطنية لأبناء المهاجرين في المدارس؛ لكنَّ مثملاً هي الحال في سائر أقطاب أوروبا، للتعليم الديني مهمّة تضطلع بها المساجد حصراً.

**إيطاليا (روما، ميلانو، تورينو):**

في إيطاليا جالية إسلامية متنوعة الأعراق، إنَّما يغلب على تكوينها المغاربة والتوانسة، وترفعها مؤخراً أعداد متزايدة من يوغسلافيا السابقة. في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، حرصت الجالية المغربية بالفصوص على بناء المساجد والمرافق اللازمة لسدِّ الاحتياجات الدينية والتعليمية. إسبانيا:

إنَّ إسبانيا، بتاريخها الإسلامي الطويل، لترتدي أهمية كبيرة كبديل أوروبي يشهد حالياً نوعاً من الإحياء الإسلامي ولا سيما في أقاليمه الجنوبية. إنَّ الغالبية العظمى من المهاجرين المسلمين إلى إسبانيا هم من دول شمال إفريقيا، وسوداهم الأعظم من المغرب. وهناك جاليات من إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى ومن الشرق الأوسط أيضاً. إنَّ بناء المساجد جارٍ على قدم وساق في إسبانيا، وكذلك تأمين مرافق ومستلزمات التعليم الديني الإسلامي. يتسم الموقف الإسباني من الإسلام بالتعاطف والود على وجه العموم، ولغة حركة ذات شأنٍ لاعتناق الإسباني الدين الإسلامي ولا سيما في بلاد الأندلس. ولعلَّ التركيز على استقلالية المنطقة والتحول إلى الإسلام يندرجان هنا في إطار الاكتشاف المتجدد لهوية جرى كبثها ربحاً طويلاً من الزمن

لأشياء الموهبة لكن فترة السبعينيات شهدت موجة عارمة من العمال الأتراك الوافدين على ألمانها، أفضت إلى نشوء جاليات إسلامية ذات تركّزات استثنائية. ففي تلك الفترة بالذات، التحقت عائلات بأكمليها بالمهاجرين الأصليين، وسُخِّع معظم العمال وضعية «العمال الضيف»، التي تشدُّ على المفهوم الرسمي بأنَّ التوطن مؤقت ليس إلا. وخلال الثمانينيات من نفس القرن، شرعت الجاليات الإسلامية في ألمانها بتأمين ما يلزمها من مرافق دينية واجتماعية، وذلك بتشديد المساجد وتكوين الجمعيات الدينية التي ترتبط العديد منها بجماعات مقراتها الرئيسية في تركيا. وعلى نحو مماثل، تنشط الطرق الصوفية كالنقشبندية بشكل لافت؛ ومن خلال هذه الجماعات تحديداً، يلعب المتأسلمون الجدد دوراً خطيراً داخل الجاليات الإسلامية. **بريطانيا (لندن، غلاسكو، مانشستر، برمنغهام، برادفورد):**

بدأت هجرة المسلمين إلى المملكة المتحدة في منتصف القرن التاسع عشر باستقرار بعض البحارة اليمنيين في موانئ كارديف، وساوث شيلدن، ولينغول، ولندن، وأخيراً في برمنغهام. إلا أنَّ معظم الهجرة الإسلامية إلى بريطانيا جاءت من جنوب آسيا (باكستان وبنغلادش)، حيث وصل في إبَّان الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين عدد غفير من المهاجرين الاقتصاديين لشغل وظائف بناءً على استدعاءات مسبقة. وأدَّى وصول عائلات بأكلها خلال الستينيات إلى قيام شتّى المرافق الضرورية لتقديم الخدمات الدينية والثقافية على غرار ما حصل في معظم جاليات المهاجرين المسلمين في أوروبا. وقد اجتذبت لندن، بالأخص، جاليات إسلامية متنوعة؛ وهذا ما جعل المنظور الثقافي والديني فيها أكثر ليبرالية منه في بقية الجاليات المسلمة في المملكة المتحدة. هنا تختلط أعداد ليست بالقليلة من العرب والباكستانيين والبنغلادشيين، باللاجئين النازحين حديثاً إليها، فضلاً عن الطلاب المسلمين الوافدين إليها من وراء البحار. بينما تميّز برادفورد باحتضانها جالية أكثر تجانساً من أصل باكستاني، وهذا ما انعكس تنوعاً واختلافاً أقلَّ في النظرة الدينية. برمنغهام، من جهة أخرى، وإنَّ كانت مؤيلاً لاجالية يخفي عليها الأصل الباكستاني، إلا أنَّ المسلمين فيها أكثر تنوعاً بكثير، وهم يضمون عدداً ليس بالقليل من المتأسلمين من أصول إفريقية - كاريبية. إنَّ الشباب المسلم في بريطانيا أخذوا على نحو متزايد، باكتشاف الإسلام من جديد كجزء



هذا المسجد القائم في حدائق قلعة شترديغن بألمانيا، والذي يرجع بناؤه إلى حوالي العام 1750. يمزج في طرازه المعماري الموريتاني الإسلامية بالمتأثرات الباروكية الأوروبية

## المسلمون في أمريكا الشمالية

دوي الأصول الإفريقية، أي الأفرو-أميركيين، استأثروا وما زالوا بأهمية كبيرة على وجه الخصوص، إن «أمة الإسلام» حركة انفصالية ناشطة بين الأفرو-أميركيين، لكن أكثرية المسلمين لا يعدونها من الإسلام في شيء. غير أنها تظل قوة يُعتد بها بالرغم من أن نسبة متزايدة من المسلمين الأفرو-أميركيين باتت تنحاز إلى المعتقدات والعبادات المأثورة عن التيار الرئيسي للإسلام السني منذ عام 1976، حين تولى واريث دين محمد، ابن إلهيا محمد مؤسس «أمة الإسلام»، زعامة قسم من تلك الحركة. يمثل المسلمون الأفرو-أميركيون نسبة لا يستهان بها من أبناء الجالية المسلمة في الولايات المتحدة، والإقبال على اعتناق الدين الإسلامي كبير يسوع خاص بين زلّاء السجون من السود، وذلك رداً على التمييز العنصري والمعاملة الوحشية المأساة التي يلقونها، وهو يحول إلى حد بعيد على الأصول الإسلامية لأسلاف العديد من المواطنين الأفرو-أميركيين. المسلمون من البيض في أمريكا ليسوا على قدر ذاته من الأهمية العددية، إلا أنهم مع ذلك دعامة ركنية للدين الإسلامي ولهم صوت مسموع، وكثيراً ما يرتبطون، شأن نظرائهم في أوروبا، بالحركات الصوفية. لقد أُلحقت التأسيس الأولي للإسلام في أمريكا الشمالية إلى فترة من الذوايان في المجتمع، صنّعت معها قضية الهوية الدينية ضمن قضايا الاندماج الثقافي العام، فيما بقي المسلمون الأفرو-أميركيون خارج هذه السيرة. لكن مع قدوم الطلاب المسلمين من وراء البحار، والمهاجرين الأحدث عهداً المتصفيين بالدين كالكابكتانيين على سبيل المثال، طرأ ارتفاع على نبرة التوكيد على الهوية الدينية في أمريكا. هنالك على وجه العموم طيف واسع من العبادات وأشكال الممارسة الدينية بين الجاليات المسلمة في أمريكا الشمالية، ولئن كانت العديد من الجمعيات الإسلامية والمساجد تقوم على أساس عرقي، إلا أن هناك أيضاً منظمات إسلامية أبوابها مشرعة لمختلف الأعراق دون استثناء.

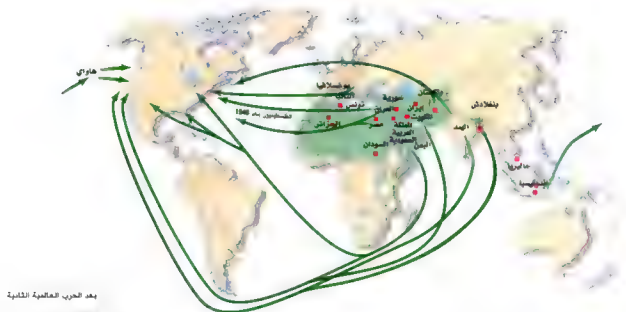
لنأخذ «اتحاد الطلبة المسلمين»، الذي أسسه في عام 1963 الطلاب المسلمون في جامعة إيلينوي بمدينة أوربانا مثلاً، فهو يضطلع بدور بالغ الشأن في التشديد على الهوية الإسلامية كتميز للتمييز بالهوية العرقية. وهناك منظمات مظلة أخرى في الولايات المتحدة، ومجلس الجاليات الإسلامية في كندا، أسهمت وما فتئت تسهم بقطر لا بأس به في هذا التحول نحو الهوية الإسلامية الجامعة. على المستوى

تعود نشأة السكّان المسلمين في الولايات المتحدة إلى حقبة مبكرة زمنياً. فحمة شاهد على أن المسلمين الأوائل وصلوا إلى هناك برفقة المستكشفين الإسبان في القرن السادس عشر. لكن فاتحة الجاليات الإسلامية التي يُعتد بها إنما نجمت عن هجرة من سورية ولبنان إبان الستينيات من القرن التاسع عشر ما لبثت أن استتبعها مزيداً من المهاجرين في العقود اللاحقة. وشهدت الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية توافد سيل دافق من المهاجرين على أمريكا رداً على القبول الاقتصادي والسياسي التي تكلمهم في بلدانهم الأصلية، ومنها: أوروبا، وجنوب غربي آسيا، وشرق إفريقيا، والهند، وباكستان في مقدمة الولايات التي استوطنتها الجاليات المسلمة تأتي ميسنغهن، أوهايو، إنديانا، إيلينوي،

أواخر القرن التاسع عشر  
وأوائل القرن العشرين

دور الإسلام  
الهند، الهند

ماسبوستس،  
أيووا، لويزيانا،  
نيويورك، وبنسلفانيا.  
في كندا، لم تكس  
الجاليات المسلمة متركزة  
إلى هذا الحد في أماكن معينة، بل كانت أكثر حركية  
من الوجهة الجغرافية. كما أن بلدان المنشأ اختلفت،  
هي الأخرى، منها بالنسبة إلى الولايات المتحدة، إذ  
جاءت الغالبية العظمى من المهاجرين المسلمين إلى  
كندا من بلدان عربية، وشمال إفريقية، ومن جنوب شرقي أوروبا،  
وتركيا، وإيران، وأفغانستان، والشرق الأقصى وشرق  
إفريقيا. ويضمهم وفد إليها من أقطار تابعة  
للكومنولث البريطاني. وفي حالتي الولايات المتحدة  
وكندا على السواء، كان اعتناق الإسلام عاملاً في بروز  
المجتمع الإسلامي هناك. فالمسلمون الأميركيون من



بعد الحرب العالمية الثانية

دور الاسلام

اللاهوتية

اللاهوتية

إلى الإسلام والمسلمين، متخذاً في ذلك وجهة سلبية وقد كان لأحداث 11 أيلول/سبتمبر 2001، والهجمات الأخرى التي استهدفت أميركيين، وعمليات قتل المدنيين الإسرائيليين (الذين يتعاطف معهم بقوة المسيحيون الإنجيليون ناهيك عن اليهود في أميركا)، وقّعها الشديد على الجالية المسلمة في الغرب عموماً، وفي الولايات المتحدة بشكل خاص. وهكذا ترتب على قادة الجالية الإسلامية والزعماء الدينيين أن يحدّثوا من جهة محاولات تنميط الإسلام سلبياً بتصويره على أنه دينٌ عنيف، ويتصدّوا من جهة أخرى لمشكلة تسييس الإسلام في أوساطهم هم.

المحلّي، تتوافر لمعظم تجمعات المسلمين في المدن، مثل ديترويت ونيويورك وشيكاغو، المرافق اللازمة لتأمين الطعام الحلال، ومستلزمات الدفن، والمساجد والمصليات والقاعات الاجتماعية، فضلاً عن المؤسسات التربوية الخاصة بالتعليم الديني للأطفال. أما لجهة علاقتهم بالمجتمع الأوسع، فالمسلمون في أميركا الشمالية، وفي الولايات المتحدة بنوع خاص، واجهوا تحديات ليست بالهينة على مدى السنوات الخمس والعشرين الفائتة. فبعد قيام الثورة الإيرانية عام 1979، واحتجاج مواطنين أميركيين في السفارة الأميركية في طهران، أخذ الرأي العام في تغيير نظرتهم

مالكولم إكس، زعيم المسلمين السود في أميركا، استهجن حياته مجرماً صغيراً قبل أن يهتدي إلى جماعة بأمة الإسلام. بات المرحمة الانفصالية لكن حجّه إلى مكة عام 1964 أقنعه بأن الانفصالية اتجاها خاطيء، وأن الإسلام الحقّ يضم أناساً من جميع الأعراق. وقد أدبّن ثلاثة من أعضاء أمانة الإسلام بمقتله إثر اغتياله في شباط/فبراير 1965



## المساجد وأماكن العبادة في أمريكا الشمالية

حدوث تحوّل نحو إقامة مساجد أقلّ اصطفاً بالصيغة العرقية لناحية الذين يؤمّونها للصلاة. وقد أنشئ «مجلس المساجد» في الولايات المتحدة لتسهيل أمر توفير أماكن العبادة اللازمة للجاليات الإسلامية هناك.

ويتبنّى من تقرير نُشر في العام 2001، أن الذين يؤمّون المساجد، بحسب الانتماءات العرقية، هم أبناء جنوب آسيا بنسبة 33 بالمئة، والأفرو-أمريكيون بنسبة 30 بالمئة، والعرب بنسبة 25 بالمئة وما فتىء أئمة المساجد يُستقدمون من بلدان كمصر وتركيا وباكستان، إلّا أن ثمة أعداداً متزايدة من الأئمة يجري إعدادهم داخل الولايات المتحدة بالنظر لتوفر المزيد من الوسائل الضرورية لتدريب الأئمة. بعض الأئمة يُسوّلون كذلك من الخارج، لكنهم في معظمهم يتقاضون أجورهم من الجاليات المحلية. وقد أنشئ مجلس للأئمة في عام 1972. والمساجد، على وجه الإجمال، تدار بواسطة مجالس استشارية محلية.

تنبغي الإشارة هنا إلى أن المساجد والمباني الأخرى التي يستخدمها المسلمون في أمريكا الشمالية، بما في ذلك «خسنيخات» الشبهة الاثني عشرية، و«جنّعة هانات» الإسماعيليين، ومعابد «أمة الإسلام»، تؤدي في واقع الأمر لسلسلة متنوّعة من الوظائف إلى جانب كونها أماكن للصلاة والعبادة فهي تستعمل لأغراض ترفيهية شتى، كمدارس لنهاية الأسبوع، وصفوف للأطفال، وقاعات للمحاضرات، وكذلك لتنظيم دورات لتعليم الراشدين. وهي تخدم أيضاً بمقاهيها مكتبات عامة، وحوانيت لببيع الكتب، ومطابع صغيرة لنشر المواد الإسلامية، فضلاً عن استضافتها المناسبات الاجتماعية كحفلات الأعراس ومراسم التأبين هذا عدا عن اضطلاعها بدور حاسم كنقطة اتصال بغير المسلمين كي يتعرّفوا على الإسلام ويلتقوا بالمسلمين - وهذه لعمرى مسألة في غاية الأهمية خصوصاً في أعقاب هجمات نيويورك وواشنطن عام 2001. وهكذا مع تطور الجاليات الإسلامية باطارد في أمريكا الشمالية، تغدو المساجد ومراكز التجمّع الإسلامية الأخرى مفاصل حيّة لإطلاق المبادرات.

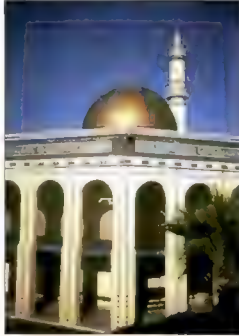


بعد أن استتب المقام للجاليات الإسلامية في الولايات المتحدة، شهد العقد الثاني من القرن العشرين أول ظهور للجوامع والمساجد على أراضيها، تلبية لاحتياجات المسلمين الدينية والاجتماعية. ومثلما جرى في أوروبا، استُخدمت الجيوب في أول الأمر كمصليات، وتبع ذلك تحويل بيوت قائمة إلى مساجد، بهنما جاء إنشاء المساجد المشيئة خصيصاً لهذا الغرض في مرحلة لاحقة. وقد أقيمت معظم المساجد أصلاً لخدمة جاليات محدّدة عرقياً، كما لم تكن دينية بالمعنى الحصري، إذ كانت المباني تستعمل لأغراض عبادة واجتماعية على حد سواء. وفي أحيان كثيرة، كان يُصار إلى استئجار قاعات عامة أو صالات خاصة لمناسبات أضخم، كصلاة العيد مثلاً، كي تستوعب عدداً غفيراً من المؤمنين؛ وهذا ما كان يحصل في تورنتو ومونتريال وإدمونتون في كندا مثلاً. وأول مسجد للأفرو-أمريكيين، وكان تابعاً لأمة الإسلام، أقيم في حي هارلم بنيويورك عام 1950.

لكن حتى الستينيات من القرن العشرين، لم يكن يوجد ما يكفي من المساجد والجوامع لاستيعاب أبناء الجالية الإسلامية المتنامية باطارد، التي وجدت نفسها مضطرة إلى استخدام مصليات وفسحات خاصة لأداء فرائضها الدينية. على كل، هناك الآن ما يربو على ألف مسجد مسجّل رسمياً في الولايات المتحدة. لحلّ واحد من أضخم المساجد التي أقيمت في الولايات المتحدة، هو المركز الإسلامي في ديترويت الذي ارتفع بنجانه ما بين عامي 1962 و1968. وقد تكفل بنقائه بنائه أبناء الجالية الإسلامية في المدينة بحكم كونهم جماعة المصلين الذين سيرانته. ثم جاءت التبرعات والمنح المالية من الحكومات المصرية والسعودية والإيرانية واللبنانية لتكشف عن

مسجد المقر الرئيسي للجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية بالقرب من مدينة إنديانا بوليس في ولاية إنديانا. المبني من تصميم المهندسين المعماريين عولازر جودر ومختار خليل، واكتمل بناؤه عام 1981. إنه يُقدّم صورة عصرية وتقديمية للإسلام، الدين الذي يعتنقه ما يربو عن ثمانية ملايين من الأميركيين والكنديين. يحتوي المبنى فصلاً عن قاعة لصلاة، على مكتبة ومكاتب إدارية.

المركز الثقافي الإسلامي في تامبه  
ولاية أريزونا (بني عام 1984)



لكن التردد على أماكن العبادة يجب ألا يفهم بالضرورة على أنه تطور يكتنف الجالية الإسلامية في أمريكا بأوسع مظاهره ففي دراسة ميدانية أجريت عام 1987، اتضح أن ما بين 10 و 20 بالمائة فقط من المسلمين في أمريكا يؤمنون بالمساجد بانتظام، في مقابل 40 بالمائة من المسيحيين يواظبون على الصلاة في الكنائس. وفي الوقت الذي قد يُعهد فيه بعض المسلمين من الجيل الصاعد تأكيد هويتهم الإسلامية بالانغماس في ممارسة الشعائر الدينية، نجد أن الأغلبية العظمى من المهاجرين الجدد الوافدين من جنوب آسيا ووسطها أكثر ميلاً إلى الاندماج في النخار السائد للمجتمع الأمريكي.



## الفنون الإسلامية

عرفت الأقطار الإسلامية تقاليد نابضة بالحياة والنشاط في مضمار الفنون، التي ازدهرت فيها أياً زدهار. لكن خلافاً للتقاليد الفنية للشعوب الأخرى،



كان الخزف الصيني على الدوام موضع إعجاب وتأمين في العالم الإسلامي، ويمكن تبين تأثيره بجلاء في هذا البريق السلجوقي

فإن الفنون التي تفوق سواها من حيث الأهمية في الحضارة الإسلامية، كانت تعدّ «زخرفية»، «فائوية» أو «محمولة» في الحضارات الأخرى، من ذلك: الأقمشة، والخط، وفنون الكتابة، والسيراميك، والمشغولات المعدنية، والأبنية الزجاجية وما إليها. وهذه بمعظمها كانت تستلزم لصنعها تحويل مواد وضيعة كالألوان النباتية أو الحيوانية، والرمال، والطين، أو الفلزات المعدنية، إلى أعمال فنية جليلة تتميز بالألوان الزاهية والتصاميم المعقدة. مهما يكن من أمر، فإن الكثير من أكثر هذه الأعمال رفعة ورهافة، كانت في نهاية المطاف قطعاً ذات قيمة منفعية، من قبيل دلاء الاستحمام وصينيات الطعام المعدة للاستعمال في الحياة اليومية.

كثيراً ما نسمع أن الإسلام يحرم تصوير الأشخاص في فنونه، لكن الحقيقة ليست كذلك تماماً. ينبغي القول بالأحرى إن الإسلام لا يهيد التصوير في

الموضوعات والسيقات الدينية كافة، والسبب يعود ربما إلى الخشية إياها من الوقوع في الوثنية التي أمت بالديانات الأخرى في باكر الأزمنة. أما في السياقات الأخرى، ولا سيما في الموضوعات الشخصية أو البلاطية، فقد أرينا تقليداً حياً من الفن التصويري ينمو ويزدهر. وحسبنا شاهد على ذلك، جدران القصور التي كثيراً ما كانت تزدان بالمشاهد المتضمنة صوراً بشرية. أما في المساجد، فقد كانت الزخرفة غير التصويرية التي أساسها التزيين بالأشكال الهندسية والنباتية، وكذلك بالكتابة النقشية، هي الطاغية أكثر من سواها. وإذا كان فن تصوير الأشخاص بجميع صوره، فناً غير ذي صبغة دينية تعريضاً في ديار الإسلام، فإن العكس ليس بالضرورة صحيحاً. ذلك أن الفن غير التصويري كان جد ملامم ومحل احترام كبير في كل السياقات والموضوعات، علمانية كانت أم دينية.

كانت الأقمشة بمثابة الدعامة الأساسية للحياة الاقتصادية في القرون الوسطى الإسلامية. فكانت تُصنع من الصوف، والكتان، والحرير، والقطن؛ وتتراوح تشكيلاتها من الأظواف الرقيقة كالأورغندي والموصلين (الأول مشتق اسمه من مدينة أورغندي وآسيا الوسطى، والثاني من مدينة الموصل في العراق)، إلى البطانيات المثينة واللباد والأقمشة التي يصنع منها البدو الرُحّل خيمهم. ولم تكن الأقمشة تستخدم لإكساء الأفراد فحسب، بل كانت تدخل في صلب تحديد الغضاءات وتأنيثها في تلك البلاد الجافة الفقيرة بالأخشاب، حيث يجلس الناس عادةً على المساجيد ويتكئون على الوسائد. كانت الأقمشة في مجملها من الصنف العادي، غير المزخرف؛ لكن السادة المورسين، من الغلفاء نزولاً إلى التجار، كانوا يشترون الأقمشة الغريبة، ذات الألوان الزاهية والنقشات المعقدة. ولذلك كان يُصار إلى إضفاء البهجة على الجيوب الخام بواسطة الأصباغ الفخرة المصنوعة من مواد شتى، التي كانوا هم أنفسهم يتاجرون بها على نطاق واسع. لقد استطاع الحرفيون والصناع المهرة أن يستنبطوا مجموعة مؤهلة من التقنيات، تبدأ بالتطريز والتسجيف (الكنفا) وتنتهي بالحياسة على النول والتلوين بالأصباغ، وكل ذلك من أجل أن تأتي أقمشتهم غاية في الجمال.

وتجيب الكلمة في الإسلام يعني أن تكون الكتب والكتابة موضع تقدير بالغ في كل مكان. وقد أدّى



وبالمثل، يمكن تلخيص المؤثرات الأوروبية في تصوير الشخصيات من خلال هذا الرسم للسلطان سليم الثالث

الذهبية والفضية، لذا عمد الحرفيون المسلمون إلى صنع الأدوات والأوعية اللازمة للاستعمال اليومي من خلجانس النحاس، كالنحاس الأصفر والبرونز، وبلغوا شأواً بعيداً في هذا المضمار. وكان الكثير من هذه



الصفينيات، والأحواض، والزبديات، والدلاء، والأكواب، والمباخر، والمصابيح، والشعدانات وما إليها، تُرسمُ بالمعادن الثمينة لجعل أسطحها أكثر إشراقاً ومראהً أبهج للعين. والمشغولات المعدنية المعدة للأغراض الدينية ما كانت تختلف كثيراً عن تلك المستعملة في المنازل، إلا من حيث زخرفتها، التي كانت أقرب إلى الزخرفة الخطية والهندسية والنباتية منها إلى الزخرفة التصويرية

تعلم تقنية صنع الورق من بلاد آسيا الوسطى في القرن الثامن، إلى حدوث طفرة هائلة في تأليف الكتب، والتدريس بالكتب، وإنتاج الكتب، ناهيك عن الفنون المصاحبة لها والمقرنة بها، كالخط والزخرفة والتذهيب والتجليد، وأخيرًا التزيين بالرسم. ولعل أخطر المخطوطات وأتقنها، هي تلك النسخ من القرآن التي كانت ترقن في البداية على الرق، ولاحقاً على الورق وهي تحفل في الغالب بزخرفة غير تصويرية ولا تدهلها الرسوم مطلقاً. لكن الكتب التي تتخللها تصاوير، ولا سيما تلك المصنفة في حانة الأدب الملحمي أو الشعر الغنائي الفارسي، فقد باتت من الصنف الراجح في عالم الثقافة الإيرانية، وذلك بدءاً بالقرن الرابع عشر حين أقام الحكام الساطقون بالفارسية في إيران وتركيا والهند محترفات لهذه الغاية وأنجوا فيها بعضاً من أعظم وأروع الكتب التي عرفها العالم على الإطلاق.

وثمة العديد من الفنون الأخرى المقرنة بديار الإسلام كانت تتوسل الشار لتحويل المعادن المستخرجة من الأرض فقد ورث المسلمون تقاليد صناعة الفخار الموهلة في القدم عن الشرق الأدنى، لكنهم أضافوا إليها وطوروها من خلال استنباطهم قوالب خزفية جديدة، وتقنيات الصقل والقرزجج، وتشكيله غنية من الأشكال الزخرفية. وقد اجتمعت بعض من هذه المقومات المميزة، كالرسم بالطلاء الفوقسي للسامع المكتشف في مصر وإيران القرن الثاني عشر، والرسم بالطلاء التحتي المطور في إيران القرن الثاني عشر أيضاً، لتتفجر نشاطاً خزفياً خلافاً منقطع النظير في بريطانيا حتى القرن الثامن عشر. صحيح أن غالبية المصنوعات كانت عبارة عن أنية فخارية غير مطلية، معدة لتخزين ونقل المياه والأطعمة من يوم ليو، إلا أن الإقبال الشديد على اقتناء وتقليد الأطباء، والزميدات، والأبواب، والزجاجات، والأكواب الفاخرة المصنوعة في الأقطار الإسلامية، شكل ظاهرة مثيرة بكل معنى الكلمة من الصين إلى إسبانيا. أما صناعة الزجاج بطريقة النفخ، وهي تقنية ابتدعت في سورية قبل العصر الإسلامي، فبقيت خاصةً يتفرد بها المشرق دون غيره. فكان صناع الزجاج والزجاجون ينتجون المصابيح المذهبة والمطلية بالملح بالآلاف كي تضاهي بها المساجد والمدارس التي رُفعت لنشر كلمة الله.

يُقال إن النبي محمد قد نهى عن استعمال الأنية





## أبرز المواقع المعمارية الإسلامية

حلية معمارية من النقش للمافر،  
موجودة في قصر بناء السامون،  
أقوى ملوك الطوائف، في طليطلة



تُبنى من أفضل المواد المتوافرة طراً، ويُسهَر على صيانتها بانتظام عبر القرون، فهي عادة ما تكون في طليعة العمارات المحفوظ عليها في أية بقعة من البقاع.

ينزع الحكّام، في أغلب الأحوال، إلى بناء قصور منيفة وباذخة لأنفسهم، يرمزون بها إلى ما يتمتعون به من جأ وسلطة. إلّا أنّ هذه القصور لم يكتب لها البقاء مثلما كُتِبَ للمساجد لأن تصميمها وإنشائها كانا يتسمان بقدر أكبر من التجريبية. أضف إلى ذلك أنّ الوارثين كثيراً ما يعزفون عن صيانة الإنجازات الباهرة لخصومهم. لقد تركّزت التنقيبات الأثرية في الديار الإسلامية على القصور المهجورة أو المهملة، مثل خربة المنجر، المنتجع الأموي بالقرب من أربحا؛ وسامراء، العاصمة العباسية في القرن التاسع في العراق. قلّة من القصور الإسلامية فقط فُيِّضَ لها أن تبقى على وجه الأرض، نذكر منها: «قصر الحمراء» في غرناطة، و«ديوكابي سراي» في استنبول، و«الحصن الأحمر» في دلهي. إنّ القصور الإسلامية عادة ما تكون مزوّقة ومبهجة، لكنها مبنية بطريقة رديئة، تُعطى فيها الأولوية للمظهر والإبراز على الشكل والإنشاء. وخلافاً لما هي الحال في قصر فرساي أو الأرميتاج، تأخذ القصور الإسلامية بصورة نمطية شكل مبانٍ ملحقة بها أجنحة صغيرة متخلّفة حول أفنية داخلية وحدائق غنّاء.

بالرغم مما يُقال من أنّ النبي محمد قد استأه وتجهّم لدى رؤيته أضرحة تنكارية تُقام فوق قبور الموتى، إلّا أنّ بناء الأضرحة أضحي مع ذلك شكلاً رئيسياً لرعاية العمارة في العديد من ديار الإسلام. فكانت تُبنى الأضرحة فوق مداخل تقوى والصلاح بالخصوص، فضلاً عن قبور الأمراء التوّافين إلى حفظ ذكراهم في عالم يلفّه الغموض. إنّ معظم الأضرحة كناية عن مبانٍ مقببة، وهي إما مربعة الشكل أو مُشَنّاة الأضلاع أو دائرية؛ وتتوارق ما بين أضرحة الأولياء البسيطة في شمال إفريقيا إلى صرح «تاج محل» المهيّب في الهند. والكثير منها مُزُود بحراب يُحدّد اتجاه القبلة إذا ما أراد زوّار المقام أن يؤدّوا الصلاة على روحه. ولبعضها مبانٍ ملاصقة كي

إن وجود المسلمين في أية بقعة من العالم إنّما يُستدلّ عليه بمبانٍ من أنماط مميزة، يأتي في طليعتها المسجد الجامع، أو مسجد الجمعة. وإذا كان من الجائز أن يتخذ المسجد أي شكل كان، تبعاً للمواد المتوافرة محلياً وتقاليد البناء المتعارف عليها، فإن المبنى يجب أن يكون دائماً مواجهاً للقبلة، أي في اتجاه الكعبة، ورحباً بما فيه الكفاية لاستيعاب المؤمنين. تنفيذ المساجد، على العموم، من الطوب أو الحجارة، ونُسَقف عادة بالعقود أو القباب. فظالمنا كان الضبّ نادراً، وبالتالي غالباً جيداً، كي يستعمل في التسقيف في المناطق الجافة إلى حد بعيد، وإن كان قد استُعمل على نطاق واسع في المناطق كثيفة الأحرار كبواد الأناضول وجنوب شرقي آسيا. وفي أماكن أخرى، أُنشِرت الأصناف الممتازة من الخشب خصيصاً لتأثيث المساجد، فكانت تُصنّع منها المنابر ومناضد القراءة، التي غالباً ما تكون مطعّمة بأخشاب أخرى، بالعاج أو يعرق اللؤلؤ. كانت المساجد تُزيّن على نحو متقن بواسطة البلاط اللامع والنقوش المجسّمة، وتُكسى أرضيتها بالسجاد المزبّر أو العادي. وقطع السجاد المستعملة في المساجد هي من النوع الموشى بتصاميم نباتية، هندسية وكتاتيبية. ذلك أنّ تصوير الأشخاص كان مستبعداً من السياقات الدينية، ولا تجده إلا في الأماكن والوضعيات غير الدينية. عملياً، كل المساجد لها «حراب» في الجدار لاستقبال القبلة، والعديد منها تعلوها منقّنة أو أكثر يرفع منها الأذان لإقامة الصلاة. ولمّا كانت المساجد في الجمعة

كنائس أوروبية، واستُخدم بعضها لدفن عظام  
القديسين المسيحيين  
إن المكتشفات الأثرية لتشهد على مدى اتساع  
شبكة الطرق التجارية التي كانت تتقاطع في ديار  
الإسلام طويلاً وعرضاً، وأربطة الصين والهند وإفريقيا  
الاستوائية بأوروبا. وبفضل تدجين الجمل قبل ظهور  
الإسلام، صارت التجارة تتم في معظمها بطريق البر،  
مع إنشاء خانات يبعد الواحد منها عن الآخر مسافة

تتسع للزوار المنتظرين أو للقيام ببعض الخدمات  
العامة المتروحة بين تدريس القرآن وإعداد الطعام  
للفقراء. وبهذه الطريقة، كان يتسنى للسادة استخدام  
مؤسسة خيرية ما للتسويق إقامة ضريح  
يُدفن المسلمون في التراب مباشرة، ملفوفين بكفن  
أبيض بسيط ليس إلا. وهكذا، فإن أدوات الدفن التي  
عادة ما يُعول عليها علماء الآثار لفهم التقاليد  
الثقافية الأخرى، لا وجود لها في ديار الإسلام. غير أن

قناة داخلي لسان قانسوه الغوري  
في القاهرة



15 ميلاً لإيواء المسافرين ودوابهم وكذلك بضائعهم  
وجزء من التجارة كان يتم بطريق البحر، فيسلك  
خطوطاً موازية لسواحل المتوسط أو يتتبع مجاري  
الرياح الموسمية حول المحيط الهندي. وقد أتاح التقدم  
المحيز مؤخراً في مجال التنقيب الأثري تحت سطح  
البحر، استكشاف مواقع السفن الفارقة، كذلك السفينة  
العائدة إلى القرن الحادي عشر التي تم العثور عليها في  
سرجي ليماني قبالة الشواطئ التركية. وكانت اللغة  
من ذلك الموقع كمية ضخمة من كسرة الزجاج المعدة  
لإعادة التدوير.

الجفاف النسبي الذي يُميز القسم الأكبر من مناطق  
العالم الإسلامي، ولا سيما مصر وآسيا الوسطى، ساعد  
على حفظ المواد العضوية الهشة التي لولاه لكانت  
اضمحلت في التراب. وأهم هذه المواد، الأقمشة التي  
كانت تلعب دوراً محورياً في الاقتصاد الإسلامي في  
القرن الوسطى، والكثير من هذه الخرق في حالة بالية  
وغير جذابة بالمرّة حتى إنها نادراً ما تعرض في  
المتاحف. ومن المفارقة بمكان، أن أفضل أصناف  
الأقمشة من بلاد المسلمين، والكثير منها مزركش  
بأبتهالات وتبريكات عربية، كانت قد حُفظت في





## توزع المسلمين في العالم (عام 2000)<sup>٣</sup>

الحجم السكاني، فهو باكستان التي تعدّ 134 مليون نسمة، تليها الهند (121 مليوناً)، وبنغلادش (114 مليوناً)، ومصر (61 مليوناً)، ونيجيريا (61 مليوناً) ومن بين البلدان الإسلامية الستة الأولى التي تضم أكثر من نصف عدد مسلمي العالم، وحدها مصر تنطق بالعربية، وأضحت جزءاً من العالم الإسلامي في زمن متقارب ونشأة الإسلام. وفي واحد من هذه البلدان الستة، الهند، يعيش المسلمون كأقلية صحيح أنها أقلية ضخمة، لكنها لا تزال قابلة للعطب. من الوجهة الديمغرافية، يجوز القول إن الإسلام «القديم» الذي أبصر النور في مجرى الفتوحات الإسلامية، قد لحق به بل وتخطاه الإسلام «الفتي» في المناطق الاستوائية إجمالاً

ومن الناحية الطائفية والمذهبية، فإن حوالي 85 بالمئة من مسلمي العالم ينتمون إلى التيار الرئيسي للدين الإسلامي، أعني المذهب السني؛ وهم يندرجون من حيث العرق وإن ليس دائماً بالممارسة إلى أحد المذاهب السنية الأربعة: المذهب الحنفي، وكان المذهب الرسمي للأمبراطورية العثمانية، ويسود في الممتلكات العثمانية السابقة، بما فيها بلاد الأناضول والبلقان، وكذلك في بلاد ما وراء القوقاز وأفغانستان، وباكستان، والهند، وجمهريات آسيا الوسطى والصين؛ والمذهب المالكي، الذي يطغى في المغرب وبلدان غرب إفريقيا؛ والمذهب الشافعي، الذي يعمل به في مصر وفلسطين والأردن، ومناطق اليمن الساحلية، وبين قطاعات من مسلمي كل من باكستان والهند وإندونيسيا، وأخيراً المذهب الحنبلي، وهو المذهب الساري في المملكة العربية السعودية. على أية حال، لقد تعايشت مذاهب فقهية مختلفة زمنًا طويلاً في بعض المناطق، وثمة قدر كبير من التداخل والتشابه فيما بينها في بلدان كمصر، حيث سمحت الحداثة والفقهية بـ«تلفيق» أحكام شرعية من شتى المذاهب.

يمثل المسلمون من غير السنة حوالي 15 بالمئة من مجموع المسلمين في العالم. فالفوارج الذين انتفخوا عن الجسم الرئيسي للإسلام في عام 860، مثّلون من خلال نسخة معدّلة عنهم تعرف بـ«الإباضية»، في

هناك ما يقارب المليار ومتني ألف مسلم في العالم اليوم، أي ما يناهز خمس تعداد البشرية. والغالبية العظمى منهم يقيمون في الحزام الأوسط من المناطق الممتدة من إندونيسيا شرقاً إلى ساحل شمال إفريقيا على الأطلسي غرباً. وعلى ضوء تمدد الإسلام التاريخي نحو الأقاليم الاستوائية في جنوب وجنوب شرقي آسيا، حيث طريقة الزراعة الكثيفة تسمح بدرجة تركز



سكّانية عالية. فإن البلد المسلم الأكبر حجماً من حيث عدد السكان (182 مليوناً) هو إندونيسيا. وهذا البلد بعيد جداً عن المبعث أو الرّجيم الذي ولد فيه الإسلام؛ أعني جنوب غربي آسيا. أما البلد الثاني من حيث



استقلالية رجال الدين الذين طالما احتكروا تأويل ونشر وتطبيق أحكام الشريعة في الماضي. وفي الوقت عينه، أصاب الوهن سلطتهم الدينية، القائمة على الحق الحصري في الوصول إلى النصوص المقدسة، بفضل التوسُّع في التعليم الثانوي وانتشار معرفة القراءة والكتابة. فالكثيرون من الحركات الإسلامية يقودها ويدعمها أناسٌ تلقوا تعليماً تقنياً حديثاً، وحصلوا تعليمهم الديني رأساً من النصوص الأولى أو الثانوية، وهي القرآن والحديث وكتابات المفكرين والفقهاء المحدثين، وليس بواسطة الدراسة الفقهية التقليدية. قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أن الاتجاه نحو ما يمكن تسميته بعلمنة السلطة الدينية في الإسلام أو جعلها ديمقراطية، قد يقضي إلى صيغ أكثر تشدداً وسلفية، كذلك التي تروج لها منظمات من قبيل «رابطة العالم الإسلامي» التي مقرها في المملكة العربية السعودية. غير أنه بالرغم من كل هجمات الإصلاحيين وما يجوز وسماها به «الأميرالية الدينية» المنبثقة من مناطق إنتاج النفط، الغنية مالياً إنصافاً لمحافظة ثقافياً، فقد أثبتت تقاليد الصوفية المتسرلة بالهيبات أنها على درجة عالية من الرجوعية والقدرة على التكيف، ففي إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، وفي العديد من مناطق آسيا، ومنها الجمهوريات السوفييتية السابقة، نجد صيغاً من الإسلام طلع بها زعماء كاريزميين ترمسوا في مجالات تهذيب النفس والتحكُّم بالفرائض والأهواء (وهي مجالات تُكسَلُ وإن كانت لا تحلُّ بالضرورة محل الفرائض الدينية المعتادة من صلاة وصيام وزكاة وحج)، لا تني تسجُلُ تقدماً وتبني على مآثورات جرى تشاقلها زمناً طويلاً إما بالتواتر الشفهي أو من خلال العلاقات الشخصية. إن التنوع الشديد الذي يسم المعقّدات والعبادات الإسلامية، كما هي شائعة أو «مجتمعة» في النصوص، ما هو إلا وجه من مجسمتها الرمزية الغنية وذخيرتها الوفيرة من المعاني، وإن تأخذ الأشكال المتعينة من السلطة الدينية طريقها إلى الانحلال وينكشف جبرها أكثر فأكثر عن مواجهة تحدّيات الحداثة، تخرج إلى حيز الوجود أشكال بديلة من السلطة الروحية والقوى الاجتماعية سواء بسواء.

عُمان، وزنجبار، وتاهرت في الداخل الجزائري، أما الشيعة، فيتركزون في إيران، وجنوب العراق، والكويت، والبحرين، بالإضافة إلى أقلّيات ليست بالصغيرة منهم في كل من أفغانستان (3,8 ملايين أو 15 بالمئة من السكان)، الهند (30 مليوناً أو 3 بالمئة)، لبنان (1,2 مليون أو 34 بالمئة)، باكستان (28 مليوناً أو 20 بالمئة)، سورية (مليونان أو 12 بالمئة)، تركيا (3 ملايين أو 20 بالمئة)، الإمارات العربية المتحدة (حوالي نصف مليون أو 16 بالمئة)، واليمن (7 ملايين أو 40 بالمئة). والسواد الأعظم من الشيعة – حوالي 85 بالمئة – ينتمون إلى الشيعة الإمامية أو الاثني عشرية ومعظم الشيعة الإمامية يتقوّنون بواحد أو بأخر من كبار الزعماء الدينيين، أو «آيات الله العظمى»، الذين يُعرفون بهـ«المراجع» (مراجع التقليد أو الاجتهاد)، ويتخذون صفة المفسرين المؤهلين للشرع الإسلامي. والطائفتان الشيعيتان الأخريان هما: الزيدية في اليمن، والإسماعيلية أو الشيعة السبعية ممثلة بمذهبين ما برحا قائمين إلى يومنا هذا. ويعود هذان المذهبان في منشئهما إلى الخلافة الفاطمية: المستطية، ويُعرف أتباعها في جنوب آسيا وشرق إفريقيا بهـ«البهرة»، وهم يتبعون الداعي المطلق للإمام/الخليفة الفاطمي المستعلي بالله (ت 1101)؛ والنزارية، ويتبع أصحابها زعيمهم الروحي: الأغا خان، وهو نبيل من ذرية فارسية تنحدر من محمد بن إسماعيل الذي يُعتبر بمثابة إمامهم الحي. وقد عاش النزاريون ضمن جاليات صغيرة في سورية وإيران وآسيا الداخلية وشمال غربي الهند إلى حين هجرتهم إلى إفريقيا والغرب ابتداءً من القرن التاسع عشر.

إن العديد من المسلمين الملتزمين سواء أكانوا من السُنّة أم من الشيعة، يتقوّدون بأحكام واحد من المذاهب الفقهية أئمة الفكر. لكن الماحصل أنه في العديد من البلدان ذات الأغلبية المسلمة، جرى إدماج عناصر من الشرع الإسلامي، ولا سيما القوانين المتعلقة بالأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق والميراث، في صلب النظام القانوني للدولة. ففي معظم البلدان الإسلامية، أُنشئت الدولة الحديثة، بدءاً بالإصلاحات، أو «التنظيمات» العثمانية التي وضعت المؤسسات الإسلامية تحت سيطرة الدولة بالتدريج، على اجتراف

رفع الأذان لدعوة المؤمنين إلى الصلاة: صوتٌ يتردد صدى عبر العالم الإسلامي البالغ التنوع





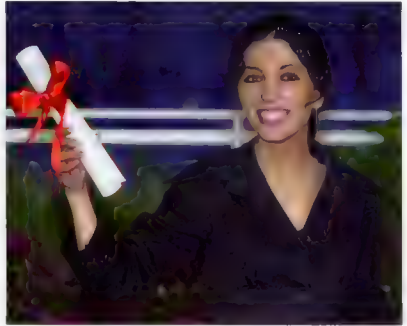
## السينما الإسلامية

العام في حانة لاحتساء البيرة في ميدان غلاتة بإسطنبول. وفي إيران، بدأ أوغهاسان أوغهايان، الإيراني من أصل أرمني، ببناء دور السينما للعموم في عام 1905، وأنشأ أول مدرسة للأفلام للسينما في أوروبا عام 1929، وأنتج أول فيلم روائي إيراني في عام 1930. كانت معظم أنحاء إفريقيا وآسيا عرضة للتصوير السينمائي كجزء من التجربة الاستعمارية التي كانت تعيشها. فكان أن شكّل العالم العربي بدرجة كبيرة ستارة خلفية مثيرة للأفلام الغربية. وهكذا، فتن الجمهور الفرنسي بشمال إفريقيا، واجتذبت فلسطين اهتماماً واسعاً بحكم كونها الأراضي المقدسة، وأسرت مصر فضول الناس لتاريخها الغابر وإذا كانت صناعة السينما الاستعمارية قد أنتجت قرابة 200 فيلم في شمال إفريقيا، فإن ستة منها فقط شارك فيها ممثلون عرب.

وأدى إدخال الصوت باللغات العامية إلى إعطاء إنتاج الأفلام المحلية دفعة قوية. فالسينما المصرية، على سبيل المثال، اجتذبت المستثمرين والمشاهدين المحليين على السواء عندما اشتركت موسيقيين ومغنيين مصريين شعبيين من أمثال المطربة أم كلثوم في أفلامها. هذا ولم تقتف السينما المصرية بأن صارت قوة موجّهة في البلدان العربية الأخرى، بل تركت كذلك بصماتها واضحة على الفن السينمائي في بلدان بعيدة جداً عنها كالأفلام الناطقة بالفارسية في إيران ما قبل الثورة الإسلامية. غير أن صناعة السينما الوطنية لم يتسنّ لها أن تحرز تطوراً في معظم البلدان العربية الأخرى بسبب القيود المالية والضغط الاستعماري وأغلب هذه البلدان لم تعرف صناعة السينما إلا بعد نهيلها الاستقلال (لبنان وسورية في الأربعينيات من القرن العشرين، وبلدان شمال إفريقيا في الخمسينيات ومطالع الستينيات من القرن نفسه).

إنّ الحقب الاستعمارية، كثيراً ما كانت الأفلام المستوردة إلى الأقطار العربية وسيلة من جملة الوسائل لخدمة أغراض قوى الاستعمار. حتى اليابانيون لجأوا إلى استخدام صناعة السينما الإندونيسية الوليدة لدعم مجهودهم الحربي إنّان احتلالهم إندونيسيا في الفترة 1942-1945. وفي الوقت عينه، أسهمت السينما في تقييس اللغة الإندونيسية لتغدو اللغة القومية للميلاد. في العام

دخلت صناعة السينما المجتمعات الإسلامية بعد زمن وجيز من ظهورها في الغرب، وقد عرضت في باديء الأمر على جمهور منتخب من المشاهدين فلم تمش بضعة أشهر على الظهور الأول للسينما في أوروبا عام 1896، حتى كانت أفلام الأخوين لومير تعرض على الشاشة في العالم العربي لجمهور من النخبة في غالبية. ففي مصر، على سبيل المثال، كانت العروض السينمائية تقدّم في مبنى بورصة طوسون بالإسكندرية، وفي المغرب داخل القصر الملكي بفاس. أما في تركيا، فالحروض كانت تتمّ في بلاط السلطان، أي في قصر بلدن بإسطنبول. وفي عام 1900، سافر العاهل الإيراني مظفر الدين شاه إلى فرنسا خصيصاً لمشاهدة «السينما توغرافيا» و«الغافوس السحري».



وفي السنة عينها، صور ميرزا إبراهيم خان، مصوّر الملك الخاص، فيلمه «حفلة الأزهار» في بلجيكا، مخرجاً بذلك أول فيلم إيراني في تاريخ السينما. أصبحت صناعة السينما المحلية في تلك الأقطار النور بفضل جهود الأجنبي أو أفراد من الأقليات فيها ونسوق مثلاً على ذلك، سيغموند ويتبرغ، الروماني من أصل بولندي، الذي شرع يعرض الأفلام على الجمهور

حصل هبوط مفاجيء في عدد الأفلام المنتجة في تركيا، إلا أنه عاد وارتفع مجدداً مع نهاية ذلك العقد. تركز معظم الدول في المنطقة على إحكام قبضتها على صناعة السينما لما لها، في عرفها، من أهمية فائقة كوسيلة تغيير وأداة احتجاج. ففي تركيا، مثلاً، تعمل مثل هذه الرقابة الصارمة على مستويين: على مستوى السيناريو، وكذلك على مستوى الفيلم المنجز، ولعملة عملية مشابهة تحدث في إندونيسيا، حيث تتم الرقابة قبل تصوير المشاهد وأثناء عملية التوليف. وفي السينما الإيرانية، لا تخرج الأفلام بنسختها النهائية إلى شاشات العرض إلا بعد أن تنال ترخيصاً رسمياً من الدولة. وفي حالات قليلة يكون هذا الترخيص مطلوباً حتى في مرحلة كتابة النص. وفي معظم الدول العربية، يتعين على المشاريع السينمائية أن تستحصل مسبقاً على إذن رسمي بالتصوير، وذلك قبل نيل الترخيص الأخرى من وزارة الإعلام أو سواها من السلطات الرقابية بخفة ضمان جدارتها التجارية.

وهريّ بنا أن نذكر هنا «بوليود»، أي صناعة السينما الهندية التي تتخذ من مومباي (بومباي) قاعدة لها، ليس فقط لأنها كانت موضع تقليد ومحاكاة واسعة في كثير من البلدان الإسلامية، ولا سيما في عقودها الأولى، بل وبالنظر كذلك إلى الوجود المهم للمسلمين فيها ككتبة سيناريو ومتجدين وموسيقيين وممثلين الخ. وهناك أيضاً صنف من الأفلام السينمائية الهندية يُدعى «شاهنشاه» (ملك الملوك)، وهو يعود زمنياً إلى فيلم «بوكار» (1939) الذي تدور قصته حول الأمبراطور المغولي جيهانكير. إنه أول «فيلم اجتماعي إسلامي» جذير بالتشويه. ولكن استمرت شخصية هذا الأخير بالظهور في أفلام من الإنتاج الحديث، إلا أن الحضور المسلم فيها أخذ يرتدي طابعاً أقل ملوكية، مركزاً في الأكثر على مشاكل الطبقة المتوسطة الإسلامية في شمال الهند. إلى أن اضمحل هذا الصنف السينمائي تدريجاً بعد سبعينيات القرن العشرين.

نشير، في الختام، إلى أنه وبعد غياب ملحوظ عن عالم السينما (أقل من أربعين فيلماً ما بين طويل وقصير)، عادت أفغانستان إلى مسرح السينما العالمية بفيلم: «أسامة» في العام 2003، وهو من إنتاج أفغاني - ياباني - إيرلندي مشترك. ولكنه أول فيلم سينمائي أفغاني ما بعد طالبان، فقد عُرض في مختلف مهرجانات السينما العالمية، بما فيها مهرجان كان ولندن.

العربي، اتخذ الإنتاج السينمائي منحى قومياً واشتراكياً متعاضداً بعد الاستقلال، حيث دأبت كل من سورية والجزائر وتونس تتوسل الفن السينمائي للإعلاء من شأن هويتها القومية على النشأة. وفي إيران، دشّن فيلم «البقرة» لداريوش مهرجوي، الفائز بإحدى الجوائز السينمائية، وكذلك فيلم «قصير» لمسعود كيميئي، وكلاهما أنتجا في العام 1969، بداية ما يُعرف بـ«الموجة الجديدة» في السينما الفنية الإيرانية، التي راحت الأفلام الإيرانية بعدها تنال إطاراً عالمياً متزايداً، وحوالي الفترة ذاتها، وبالتحديد في عام 1970، شكّل فيلم يلماز غوناي «الأمل»، المعانز هو الآخر على إحدى الجوائز السينمائية، نقطة انعطاف في السينما التركية ودشّن مرحلة «الموجة الجديدة» من الأفلام التركية.

في الفترة 1978-1982، واجه السينمائيون في إيران مستقبلاً غامضاً نتيجة لعدم الاستقرار المالي وقلة اهتمام الحكومة بالسينما خلال المرحلة الانتقالية، ناهيك عن أمور أخرى غرهها. وفيما عدا بعض الاستثناءات القليلة، لم يُصّر إلى إنتاج أية أفلام من النوعية الجيدة في تلك الفترة قبل الثورة، كان علماء الدين في معظمهم يرفضون السينما أو يتجاهلونها. لكن الإسلاميين، بعد الثورة، أدركوا ما لها من قوة مؤثرة وقروا وضعها تحت إشرافهم وتوجيههم. وهكذا، صار تبشّر السينما عند المماليكة بمثابة سلاح أهدبوها يحارب به الثقافة المائلة للغرب والإمبريالية لنظام حكم بهلوي. وفي عام 1989 (عام وفاة الخميني)، ظهرت أفلام، ومنها فيلماً «باشو» والغريب الصغير، لتكسب السينما الإيرانية من جديد إعجاباً وتقديراً على نطاق العالم. والسينما الإيرانية بإفساحها المجال هكذا أمام خطاب لا يني يمتو ويتطور داخل المجتمع، إنما تركزت أداة خطيرة الشأن في عملية التغيير نفسها.

شهدت الخمسينيات من القرن العشرين بدء انتعاش الدول العربية من مضمار الإنتاج السينمائي. فقد وقعت صناعة السينما الجزائرية في الإفلاس، فيما واجهت تطوراتها المصرية أزمة اقتصادية خانقة. وجاء التلفزيون وإنتاج شرائط الفيديو بالجملة ليزيد من تدهور صناعة السينما في المنطقة كافة. فكان أن توجهت الأفلام نحو الإنتاج المشترك مع الغرب، وهذه هي الحال في بلدان شمال إفريقيا وسورية، ولا سيما في لبنان. وبعد بداية الثمانينيات من القرن الماضي،

الصورة إلى اليمين: المهرجة  
السينمائية الإيرانية سمورة  
مططاف تقف أمام عداست  
المصورين بعد نيلها جائزة من  
فيلمها «العاصمة بعد الظهر»، وذلك  
خلال الحفل الاختتامى لمهرجان  
«كان» السينمائي السادس  
والخميني في أيار / مايو 2009.  
هي أمة المخرج المصوب محسن  
مططاف، أعربت فيلمها الأول  
«النفاحة» (1998) في عمر الخامسة  
عشرة كذلك فإن فيلمها «اللوح  
الأسود» (2000) عن اللاجئين  
الأكراد على الحدود العراقية  
الإيرانية قد نال أيضاً جائزة في  
مهرجان «كان»

## استخدام الإنترنت

الوصول إلى أحكام مراجع التقليد الأحياء، من أمثال آية الله العظمى السيستاني، المرجع الأكبر للشيعة في العراق. فصفحات موقعه على الإنترنت تغطي مسائل وهموماً معاصرة، كبطاقات الائتمان، والتأمين، وحقوق الملكية، وتشريح الجثة، والتبرع بالأعضاء، فضلاً عن طلب المشورة حول الواجبات والفرائض الدينية. وبعض الطرق الصوفية مواقع على الشبكة تحكي بالتفصيل عن خطوط النسب الروحية لمشايخها، ونصوص الأوراد والأذكار المستخدمة في طقوسها. لكن، طالما أن الكثرة الكثيرة من الممارسات

قبل قدوم العصر الرقمي، كانت المسائل الإسلامية المثارة للنقاش أو المطروحة للحل تُعالج في كثير من الأحيان محلياً، من قبل علماء الدين، مفسري العقيدة الدينية المعترف بهم، القائمين بدور الوكلاء الرئيسيين للسلطات الدينية. وكان لانتشار معرفة القراءة والكتابة والتعليم الثانوي في الشطر السنّي من العالم الإسلامي، أثره الجثرف لوزن وأهمية هؤلاء العلماء قبل وقت طويل من ظهور شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت). مع ذلك، فالإنترنت تسهم في تسريع وتيرة هذه العملية بتسهيلها أمر اضطلاع الأفراد أنفسهم بالاجتهاد، استناداً إلى مصدرين أساسيين هما: القرآن والحديث. فيما مضى كانت المرجعية المعرفية حكراً على الفقهاء المؤهلين دون غيرهم، لكن جاء هذا التطور المذهل ليسحب البساط من تحت أقدام الهرمية التقليدية للمعرفة.

إن المسلمين المبحرين على الشبكة غير مضطرين بعد اليوم إلى استشارة المعاجم المظهورة للقرآن أو مراجع الفقه الرّبيّة للتوصل إلى اجتهادات أو أحكام، بل حسبهم ببساطة أن ينفذوا إلى مواقع معينة على الشبكة، فيستعرضوا فيها بالمصحح الإلكتروني الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية بمجرد النقر على كلمات مفتاحية بعينها. أو إذا شاؤوا، بإمكانهم إرسال أسئلتهم بالبريد الإلكتروني إلى مئات المواقع على الشبكة التي تقدم الإرشادات الاجتماعية والمسلية والدينية، وفي بعض الحالات، التوجيهات السياسية أيضاً. والكثير من المواقع ذات التموليل الجهد في المملكة العربية السعودية أو دول الخليج، غالباً ما تكون أجوبتها أمهل إلى المحافظة، وقد لا تكون دائماً حساسة لظروف المسائل الاجتماعية أو الاقتصادية. لتأخذ الأجوبة على أسئلة الشباب اللواتي يعيش في أمريكا الشمالية بصدد ما ينبغي عمله بشأن المعاملة السيئة التي يلقينها من أبائهن، مثلاً. إنها قد لا تخرج عن تكرار التشديد على وجوب طاعة الآباء وواجبات الأبناء والبنات تجاههم، لا بل وتقدمها حتى على حقوقهم كمواطنين.

بالنسبة للشريحة الاثني عشرية، وهي التي يقوم رجال الدين فيها وليس النصوص مقام المدبر الرئيسي للسلطة الدينية، تؤمن شبكة الإنترنت سهولة



كان يطبقه نظام طالبان البائد في أفغانستان باسم تعاليم الإسلام «الحقة».

رغم الانتشار السريع لخدمات الإنترنت في طول العالم الإسلامي وعرضه، تبقى النتائج البعيدة المدى لهذا الانتشار غامضة نوعاً ما. فمن جهة، ثمة خطاب إسلامي «كوي» أخذ بالبروز فيما يتجاوز حدود التقاليد والأعراف المحلية، بما فيها تلك السائدة ممثلة بمؤسسات عريقة كالأزهر في القاهرة. ومن جهة أخرى، لا يستطيع الخطاب الأخذ بالبروز هذا أن يتهرب من معالجة موضوع التنوع والمخالفة، طالما أن الأقليات والجماعات المخالفة قادرة على تحدي رأي التيارات الرئيسية في تلك الثقافات، حيث تكون التعددية الدينية والسياسية عرضة للكبت في أغلب الحالات.

الصوقية تبقى مغلقة في وجه الدخلاء من غير المنتمين إليها، فإن الطرق الأكثر تقليدية هي من يسهر على إدارة مواقع لها على الشبكة.

كذلك، الإسلام السياسي حاضر بقضيه وقضيضه على الإنترنت، بحيث يمكن للمرء الوصول بسهولة وسرعة إلى معظم الأحزاب السياسية الإسلامية من خلال مواقعها العديدة كما أن قوى المعارضة موجودة هي الأخرى على الشبكة، وإن كان الوصول إلى مواقع الجماعات المحظورة دونة قيود وتقييدات في بعض الحالات من جانب أجهزة الرقابة الحكومية. وثمة جماعات للنساء المسلمات تنشط في «الفضاء السيبرنتيكي» ضد الممارسات الأبوية من النوع الذي



## جدول زمني بأهم الأحداث الإسلامية

622-570	محمد في مكة	«اختفاء» محمد المهدي، الإمام الثاني عشر للشيعة، أو «الإمام المنتظر»
622-632	محمد في المدينة	«البيعة الصغرى»، أو الاحتجاب الذي يمثل خلاله إمام الشيعة الاثني عشرية بأربعة وكلاء
632-634	خلافة أبي بكر الصديق، انتصار المسلمين في حروب الردة توحيد الجزيرة العربية.	وفاة أبي يزيد البسطامي، أول المتصوفة «السكراني»
634-644	خلافة عمر بن الخطاب، فتح معظم أراضي الهلال الخصيب مصر والقسم الأكبر من بلاد فارس. التوسع باتجاه شمال إفريقيا	تأسيس أول دولة فاطمية للإسماعيليين في إفريقيا (تونس الحالية).
644-656	خلافة عثمان بن عفان، تواصل الفتوحات شمالاً وشرقاً وغرباً. جمع القرآن وتوحيد النص.	إعدام الملاح بتهمة الزندقة، «الشهيد» بنظر المتصوفة المتأخرين.
656-661	الفتنة الأولى إبان خلافة علي بن أبي طالب.	الأمير الأموي عبد الرحمن الثالث ينشئ خلافة أموية في قرطبة بإسبانيا
660-672	إخفاق العرب في الاستيلاء على القسطنطينية	بداية «الغبهة» الكبرى، أو الاستتار الذي يفقد خلاله الشيعة الاثنا عشرية الاتصال بإمامهم.
661	مقتل علي، إقامة الخلافة الأموية على يد معاوية في دمشق.	البويعيون الشيعة يستولون على بغداد ويعزلون الخليفة العباسي رهينة فعلية لديهم.
680	الفتنة الثانية. ثورت معاوية الحكم لابنه يزيد بغير تمرد الحسين بن علي، استشهاده الحسين وأتباعه في كربلاء بالعراق	الخلافة الفاطمية (الإسماعيلية) في مصر.
685-705	عبد الملقية عبد الملك بن مروان، باني قبة الصخرة في القدس.	محمود الغزنوي (من غزنة، أفغانستان حالياً) يغزو شمال الهند
687-691	الخوارج يسيطرون على معظم أرجاء الجزيرة العربية	الأتراك السلاجقة، المنطوقون من أواسط إيران والزاحفون غرباً، يهددون العقيدة الشيعية التقليدية إلى قلب العالم الإسلامي
711	العرب يتقدمون داخل إسبانيا	المرابطون، الوافدون من إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، يصعدون تقدم المسجحين في إسبانيا.
712-713	العرب يفتحون بلاد ما وراء النهر (بخارى وسمرقند)	السلاجقة يهزمون الروم (البيزنطيين) في معركة ملاذكرد، فاتحين بذلك بر الأناضول أمام الاستيطان التركي
728	موت الحسن البصري، المعلم الصوفي الأول	الإسماعيليون الزناريون ينتفضون في وجه الخلفاء السنية السلاجقة يتخذون من بغداد عاصمة لهم.
732	موقعة بواتيج، شارل مارتيل يوقف تقدم العرب داخل فرنسا.	الصلبيون يحتلون أجزاء من سورية وفلسطين.
744-750	الفتنة الثالثة السلالة الأموية تسقط على أيدي العباسيين (749) بسبب الضعف الذي نالها من جراء الانشقاقات والمنازعات الداخلية	الصلبيون ينتزعون القدس من المسلمين.
758	قيام الحكم الأموي في إسبانيا	وفاة الغزالي (م 1058)، المتصرف والمتكلم السني.
765	وفاة جعفر الصادق، سادس أئمة الشيعة. انقسام الشيعة إلى إسماعيليين، واثنى عشرية، وزيديين	وفاة ابن تومرت، مؤسس السلالة الموحدية في إسبانيا.
767	وفاة أبي حنيفة (م 699)، مؤسس المذهب الحنفي في الفقه	صلاح الدين الأيوبي بطرد الصليبيين من القدس.
786-809	عهد هارون الرشيد، الملقبة الخموذجي لعصر الإسلام الذهبي.	وفاة ابن رشد (م 1126)، الفيلسوف الأندلسي
795	وفاة مالك بن أنس (م 713)، مؤسس المذهب المالكي.	قيام سلطنة دلهي في الهند.
801	وفاة رابعة العدوية (البصرية)، المتصوفة والشاعرة.	غارات الصول في بلاد ما وراء النهر وشرق إيران تعيث دماراً وخراباً في المدن
813-833	خلافة العامين، صعود المعتزلة (العقلانيين) والندرسة الاعتزالية في علم العقائد (أو علم الكلام)	الموحدين يتخذون من إسبانيا، وانحسار الوجود الإسلامي هناك يقتصر على مملكة غرناطة الصغيرة (1232-1492) فقط.
820	وفاة الشافعي (م 767)، مؤسس المذهب الشافعي في الشرع الإسلامي	موت جنكيزخان.
847-861	خلافة المتوكل، الذي انقلب على المعتزلة	وفاة ابن عربي (م 1165)، شيخ الثيوصوفية الإسلامية.
861-945	تتكا أوصال الدولة العباسية مع استقلال الولايات تبعاً إلى أن فقدت سلطة الخلافة السيطرة تماماً على أراضيها.	سقوط قلعة الموت، آخر معقل إسماعيلي جنوبي بحر قزوين
870	وفاة البخاري (م 810)، المحدث (جامع الأحاديث النبوية)	خراب بغداد على أيدي المغول.
873	وفاة سُلَّم، المحدث	المماليك، خلفاء الأيوبيين في مصر، يهزمون المغول، الذين



1805-1848	محمد علي يباشر عملية التحديث في مصر.	لم يعرفوا علم الانكسار حتى الآن، في معركة عين جالوت بفلسطين
1815-1817	ثورة الصرب على العثمانيين.	ن 1300
1818	بريطانيا تصبح القوة صاحبة السلطة المطلقة في الهند.	بروز السلاطة العثمانية (العثماني) في بيجينيا، على حدود بينطقة في غرب الأناضول.
1820	محمد علي يشرع في إخضاع السودان	1326
1821-1830	حرب الاستقلال البونانية.	العثمانيون يحتلون بورصة، أول عاصمة حقيقية لهم.
1830	بدء الاحتلال الفرنسي للجزائر.	1362
	إنشاء الخرطوم كموقع بريطاني - مصري متقدم في أعالي النيل	ن 1378
1832-1848	القوى الأوروبية تسارع إلى نخدة الامبراطورية العثمانية في وجه اجتياح محمد علي لأراضيها.	صعود نجم تيمورلنك، التركي العامل في خدمة المغول في بلاد ما وراء النهر، ليفتقو القسم الأكبر من آسيا الوسطى والعربية.
1839-1861	فشل «التمرد» الهندي يؤدي إلى إلغاء «شركة الهند الشرقية»، ويُسَهل السبيل لدمج الهند في صلب الامبراطورية البريطانية.	1389
1859	الروس يهزمون الإمام شامل في القوقاز، ويتبعون ذلك بضم الشيشان وداغستان إلى ممتلكاتهم	1405
1867	تأسيس أكاديمية ديهياند في شمال الهند من قبل فئة من المصلحين الذين يحاضرون الاتصال بالبريطانيين	1453
1888	اكتمال الضم الروسي لكازاخستان.	ويُضعف الامبراطورية البيزنطية
	إمارة بخاري تصبح محمية روسية.	1498
1869	افتتاح قناة السويس.	فاسكو داغاما يدور حول رأس الرجاء الصالح، منهيًا بذلك احتكار المسلمين للتجارة في المحيط الهندي
1875	انهيار خزانة الدولة المصرية. السويس تُباع للبريطانيين	1501
1876	إعلان أول دستور عثماني بعد وقوع ثورة في القصر	صعود الدولة الصفوية في إيران. الشيعة الاثنا عشرية تصبح العقيدة الرسمية للدولة.
1876-1908	السلطان عبد الحميد يُلغى الدستور، ويجري إصلاحات في مجالات التعليم والنقل والاتصالات من خلال الحكم الاستبدادي	1517
	إعلان تونس محمية فرنسية	1526
1882	احتلال بريطانيا لمصر	معركة بانجهوت (الهند) تتوج للإمبر التيموري، بابر، أن يؤسس الامبراطورية المغولية (المغلية) في الهند
1888	مقتل الجنرال غوردون (الملقب بـ«الصيني») في الخرطوم أثناء الثورة المهدية ضد الحكم المصري المدعوم من بريطانيا	ومعركة موهاكس تجعل من الكاثوليك الجبريين تابعين للامبراطورية العثمانية.
	أثناء الثورة المهدية ضد الحكم المصري المدعوم من بريطانيا	1529
	محمد عبده، تلميذ الأفغاني ومريده، يعود إلى مصر ويقر التعاون مع البريطانيين.	1552
	طلاب الأكاديمية العسكرية في استنبول، يُشكلون أول تنظيمهم لوري لتدريكا الفتاة» باسم «جمعية الاتحاد والترقي».	1556-1605
	وفاة السيد جمال الدين الأفغاني (م 1838)، المصلح والداعية للوحدة الإسلامية الجامعة.	عهد الأمراطور المغولي الثالث، أكبر، الذي رعى التقارب الثقافي والديني بين الهندوس والمسلمين
1897	الحركة المهدية في السودان تُمنى بالهزيمة على يد قوة إبحارية - مصرية مشتركة بقيادة الجنرال كيتشنر في موقع أم درمان.	1682-1699
1898	وفاة السيد السيد أحمد خان (م 1817)، الشخصية الإصلاحية والتجديدية، ومؤسس جامعة عليكرة في الهند (1875)	العثمانيون يفسرون المنجر ويلغراد في الحرب مع النمسا ويولندا
1905	وفاة محمد عبده (م 1849)، مؤسس الحركة الإصلاحية السلفية الحديثة.	1718
1906	تأسيس «الرابطة الإسلامية» في الهند.	المصلح في باسروفيتز يُكرس ما فقده العثمانيون من مناطق لصالح آل هابسبورغ.
1906-1908	وقوع ثورة دستورية في إيران.	1739
		العمال الإيراني نادر شاه، يستبجح دلهي ويضع نهاية لسلطة المغول في الهند.
		1757
		الوهابيون ينتزعون الإحساء في شرق الجزيرة العربية انتصار بريطانيا في معركة بلاسي فتح الهند أمام التوسع البريطاني.
		1762
		وفاة شاه ولي الله، المصلح الصوفي الهندي من الطريقة السيرهندية
		1774
		معاهدة كوتشوك كينارجي. العثمانيون يفقدون شبه جزيرة القرم عقب هزيمتهم أمام روسيا. الاعتراف بالقياصرة الروس حضاة للمسيحيين الأرثوذكس في البلاد العثمانية.
		1779
		قيام السلاطة الفاجارية في إيران.
		1789-1807
		الإصلاحات العثمانية الأولى على النعج الغربي في عهد السلطان سليم الثالث.
		1798
		نابليون بونابرت يتزل في بر مصر ويهزم للمماليك في معركة الأهرامات: غزوة تولد اهتماماً بالثقافة الأوروبية.

1908	ثورة «تركيا الفتاة»... تجر السلطان العثماني على إعادة العمل بالدستور والنظام البرلماني مجدداً.	أبو سعود يستجيب الحاج، فيطرد الشريف حسين من الجزيرة العربية ويضع حجر الأساس لمملكة وهابية مُحَدثة.
1909	اعتماد جمهوريتين منفصلتين للناخبين، أحدهما مسلم والآخر هندوسي، في الهند.	تكمير الكيان اللبناني وفصله عن سورية تحت رعاية فرنسا وحمايتها.
1911-1913	إيطاليا تنزح طرابلس الغرب من العثمانيين.	حسن البنا، المدرس المصري، يؤسّس تنظيم «الإخوان المسلمين».
1912	إعلان المغرب محمية فرنسية.	العراق يتأل استقلاله ويُقبل في عضوية عصبة الأمم.
1914-1918	هزيمة الأمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى.	الفلسطينيون يثورون على الحكم البريطاني في فلسطين، وعند ازدياد الهجرة اليهودية من جراء وصول النازيين إلى السلطة في ألمانيا.
1916-1918	إعلان مصر رسمياً محمية بريطانية.	محمد علي جناح يؤتّى قيادة «الرابطة الإسلامية»... منهُباً بذلك دعم المسلمين لحزب المؤتمر.
1917	اندلاع الثورة العربية المدعومة من بريطانيا ضد الحكم التركي بقيادة حسين، شريف مكة، وابنه الأمير فيصل، والكولونيل الإنجليزي ت. إ. لورانس.	دستور سوفيتي جديد يُنظم آسيا الوسطى في ست جمهوريات اشتراكية سوفيتية (أوزبكستان، أذربيجان، كازاخستان، تركمانستان، طاجيكستان، قيرغيزيا)، وثماني جمهوريات اشتراكية سوفيتية ذات حكم ذاتي (تاتارستان، باشكوريا، داغستان... وغيرها من أقاليم القوقاز الواقعة تحت السيطرة الشيوعية).
1917	وعد بلفور يفتح الباب أمام الاستيطان المتزايد لليهود أوروبا في فلسطين.	وفاة محمد إقبال، الشاعر/الفيلسوف، والأب الفعلي لدولة باكستان.
1917-1920	الثورة الروسية والحرب الأهلية في روسيا تفضيان إلى وقوع نزاعات سوفيتية - إسلامية في آسيا الوسطى.	الرابطة الإسلامية تتبنى فكرة قيام دولة إسلامية منفصلة للمسلمين الهنود.
1918	المسلمون في كازاخستان وأذربيجان والقوقاز يناضلون في سبيل الاستقلال الوطني.	البريطانيون يخدمون ترمداً موالياً للمحور قام به ضباط من الجيش العراقي.
1918-1920	القوات الروسية تطوح بجمهورية تركستان المستقلة (1918) وتتسبب باندلاع الثورة البسماتشية.	البريطانيون يجبرون الملك فاروق على استبدال رئيس وزرائه الموالي للمحور بأخر أسهل انقياداً لهم وأكثر تعاطفاً مع قضية الطغاف.
1918	إدراج بُخاري وجمهورية ضمن الجمهوريات السوفيتية.	بدء حملة الإرهاب الصهيوني ضد البريطانيين في فلسطين.
1918	انتصاب بعض «الجدجديين» المسلمين البارزين إلى عضوية الحزب الشيوعي.	تأسس جامعة الدول العربية.
1918	مؤتمر سان ريمو، عصبة الأمم تكلف دولاً بالانتداب على الولايات التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية، فتنتدب بريطانيا على فلسطين وشرقي الأردن والعراق، وفرنسا على سورية ولبنان.	الاعتراف باستقلال كل من شرقي الأردن، ولبنان، وسورية.
1918-1922	الفرنسيون يطردون الأمير فيصل بن الحسين من دمشق، والإنجليز ينصبونه ملكاً على العراق. وأخوه الأصغر، عبد الله بن الحسين، يُنصب ملكاً على شرقي الأردن. الزعيم المصري سعد زغلول يترأس الوفد المطالب باستقلال مصر.	أعمال شغب واسعة النطاق تندلع بين الهندوس والمسلمين في الهند.
1918-1922	إبعاد عن البلاد يُشعل فتيل «ثورة» وطنية.	استقلال الهند. تكوين دولة باكستان من المناطق ذات الغالبية المسلمة فيما دعا كشمير.
1918-1922	إنهاء السيادة العثمانية على مصر، فيما تحتفظ بريطانيا بحق الإشراف على شؤون الدفاع والسياسة الخارجية والسودان وقناة السويس.	انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين. هزيمة نكراء تحمل بالجيش العربية إثر الإعلان عن قيام دولة إسرائيل. نزوح الفلسطينيين عن ديارهم يخلق مشكلة لاجئين خطيرة.
1919-1922	حرب الاستقلال التركية. مصطفى كمال (أتاتورك) يجمع شمل القوى الوطنية التركية لإنزال الهزيمة بالفرداء اليونانيين، وصدّ عمليات الإنزال الأوروبية على بر الأناضول.	الأمير عبد الله، عامل شرقي الأردن، يضم القدس الشرقية (بما فيها البلدة القديمة) والصفحة الغربية إلى دولته.
1923	معاهدة لوزان تضمن وحدة وسلامة الأراضي التركية.	رئيس الوزراء المصري، محمود النقراشي، يتعرّض للاغتيال.
1924	آسيا الوسطى السوفيتية يُعاد ترتيبها تحت أسماء: جمهوريات أوزبكستان، وتركمانستان، وكازاخستان، وقيرغيزيا الاشتراكية.	اغتيال حسن البنا على أيدي عملاء أجهزة الأمن ردّاً على مقتل النقراشي.
1924	إلغاء الخلافة العثمانية. المحاكم الشرعية للتركية تُستبدل بمحاكم مدنية.	الإطاحة بالملكية في مصر بانقلاب قادة ضباط قوميين عرب يزعّمهم جمال عبد الناصر ويحظون بدعم حركة الإخوان المسلمين.
1924	حركة «خلافت» الهندية تحو باللائمة على البريطانيين لإلغاء الخلافة.	

1956	عبد الناصر يؤم قنّاة السويس: خطوة استدعت تدخلًا عسكرياً من إنجلترا وفرنسا، في تواطؤٍ سري مع إسرائيل.
1958	قلب النظام الملكي الموالي لبريطانيا في العراق، بانقلاب دؤي قاده الزعيم عبد الكريم قاسم.
1963	الإطاحة بعبد الكريم قاسم في انقلاب عسكري قام به الضباط البعثيون بقيادة عبد السلام عارف.
1965	تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية.
1966	إعدام سيد قطب، الكاتب والأيدولوجي ذي النزعة الكفاحية الجامحة في تنظيم الإخوان المسلمين بمصر مصرع الرئيس العراقي عبد السلام عارف في حادث طائرة.
1967	حرب الأيام الستة (في حزيران/يونيو) تنتهي بسيطرة إسرائيل عسكرياً على شبه جزيرة سيناء بأكملها، والضفة الغربية بما فيها البلدة القديمة من مدينة القدس، ومرفعات الجولان السورية.
1968	ياسر عرفات (أبو عمار)، قائد منظمة فتح، أكبر المنظمات القذائية الفلسطينية، يُنتخب رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية.
1968	سقوط الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف (شفيق عبد السلام عارف وخلفه في الحكم) على يد الفريق أحمد حسن البكر، لكن السلطة الحقيقية في قبضة صدام حسين التكريتي.
1969	الإطاحة بالنظام الملكي للأسرة السنوسية الموالية لبريطانيا في ليبيا، وذلك بانقلاب عسكري على النمط الناصري، بقيادة العقيد عمر القذافي، البالغ من العمر 27 سنة.
1980-1988	تأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي لتعزز التضامن الإسلامي وتشجيع التعاون السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي بين البلدان الإسلامية.
1970	حافظ الأسد، قائد سلاح الجو السوري، ينتزع مقاليد السلطة في سوريا على رأس حزب البعث.
1981	حرب أهلية في الأردن بين الجيش الأردني والفدائيين الفلسطينيين (ومن هنا منظمة «أيلول الأسود»).
1982	أنور السادات يتولى رئاسة الجمهورية في مصر عقب وفاة جمال عبد الناصر.
1972	بنغلادش، باكستان الشرقية سابقاً، تفوز باستقلالها بمعاونة الجيش الهندي.
1973	حرب أكتوبر/تشرين الأول (حرب رمضان/حرب يوم كيبور). مصر تقم رأس جسر على الضفة الشرقية لقناة السويس، في أول نجاح كبير تعرّض للجيش العربي ضد إسرائيل.
1986	منظمة للبلدان المصدرة للبترول (أوبك) التي تنزعها إيران والملكة العربية السعودية، تفرض زيادة قدرها أربعة أضعاف على أسعار النفط الخام، مما خلق لديها فائضاً هائلاً من «البترودولار» للاستثمار في تصنيع اقتصاداتها وإسنادة الحركات الإسلامية في العالم، وأدى كذلك إلى حدوث ركود اقتصادي عالمي.
1975	اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، لأسباب تعود جزئياً إلى
وجود اللاجئين الفلسطينيين والمقاتلين والعمليات الانتقامية الإسرائيلية ضدهم	
بدء التفاوض بين مصر وإسرائيل.	1977
ضياء الحق، القائد العسكري الباكستاني، يقبض السلطة ويفرض الأحكام العرفية. إعدام الرئيس السابق ذو الفقار علي بوتو، وضياء الحق يشرع بتنفيذ برنامجه الخاص بأسلمة البلاد.	
وفاة علي شريعتي (م 1933)، المفكر والفيلسوف الإسلامي، في مدينة ساوثمبتون ببريطانيا.	
استعمال الاضطرابات في إيران ضد ديكتاتورية الشاه محمد رضا بهلوي.	1978-1979
آية الله الخميني يهزم من منافاه في أوروبا ليقيم الجمهورية الإسلامية في إيران. أخذ 52 دبلوماسياً أميركياً رهائن واحتجازهم لمدة 444 يوماً. اتفاقية كامب ديفيد للسلام بين مصر وإسرائيل تدشّن العملية السلمية بين العرب والإسرائيليين.	1979
وفاة أبو الأعلى المودودي (م 1909)، المفكر والمنظر الهندي - الباكستاني، ومؤسس «جماعتي الإسلامي» (الجماعة الإسلامية).	
الرئيس الباكستاني، ضياء الحق، يشرع بتطبيق «الحدود» أي العقوبات المنصوص عليها في القرآن لصنوف معينة من السرقة والزنا وشرب الخمر.	
الغزو السوفييتي لأفغانستان، دعماً للنظام الشيوعي المعلن. التدريب والتسلح الغربي للمجاهدين يخلق كادراً جيد الإعداد من المناضلين الإسلاميين.	
الحرب الإيرانية - العراقية، الناجمة عن الاستفزازات العراقية لإيران، تتحول إلى أطول نزاع دولي مستدام في القرن العشرين، مؤلفة ما لا يقل عن نصف مليون ضحية على الجانب الإيراني فقط، فضلاً عن هراق اقتصادي هائل، متطرفون إسلاميون يقتالون الرئيس المصري أنور السادات.	1980-1988
إسرائيل تجتاح لبنان وتطرد منظمة التحرير الفلسطينية إلى تونس.	1981
بداية الانتفاضة الفلسطينية الجماهيرية تنتفض ضد الاحتلال الإسرائيلي؛ والأطفال، رُماة الحجارة، يشكلون رأس العمدة في تلك الانتفاضة.	1982
الشيخ أحمد ياسين، رئيس المركز الإسلامي في غزة وعضو تنظيم الإخوان المسلمين الفلسطينيين، يؤسس «حركة المقاومة الإسلامية» (حماس).	1987
آية الله الخميني، المرشد الديني لإيران، «يتجرع السم» ويقبل بوقف إطلاق النار مع العراق. مقتل الرئيس الباكستاني ضياء الحق في حادث طائرة مريب.	1988
صدر «الآيات الشيطانية» للكاتب البريطاني المسلم سلمان رشدي.	
محمد محمود طه، زعيم الإخوان الجمهوريين والمُصلح ذو الميول الصوفية، يُعدم شقاً بتهمة «الردة» في السودان.	
الخميني يصدر «فتوى» ضد سلمان رشدي، مما يحول دون	1989

- 1998 حدث انفجار بين إيران والغرب برغم وجود برغماتيين في الحكومة الإيرانية.  
وفاة العميني (في حزيران/يونيو)، لمخلفه في منصب المرشد الديني الأعلى آية الله علي الخامنئي في الجزائر، فوز الجبهة الإسلامية للإنقاذ بـ 55 بالمئة من أصوات المقتريين في الانتخابات البلدية.
- 1999 الزعم العراقي صدام حسين يحتاج الكويت
- 1990 عملية «عاصفة الصحراء» بقيادة الولايات المتحدة وبمساعدة عسكرية من بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، والملكة العربية السعودية، ومصر، وسورية، وباكستان، تنجح في طرد القوات العراقية من الكويت
- 1991 انتفاضة شعبية في مدينتي الخيف وكربلاء العراقيةتين تقع بوحشة
- تفكك أوصلال لاتحاد السوفييتي، بعد فشل الانقلاب العسكري على غورباتشوف، يؤدي إلى استقلال جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية إنما تحت حكم أفراد من الشريحة الطغلبية المتطرفة السوفييتية السابقة التناقص بين القيادة الشيوعية السابقة والمعارضة الإسلامية في طاجيكستان يتمخض عن حرب أهلية مبررة ومكثفة
- 2000 في الجزائر، الجبهة الإسلامية للإنقاذ تفوز بـ 49 بالمئة من أصوات الناخبين في الجولة الأولى من الانتخابات العامة الجيش يتدخل للحؤول دون فوز الجبهة في الجولة الثانية، ما أثار حرباً أهلية دامت ثمان سنوات يقال إنها كبدت البلاد مئة ألف قتيل على أقل تقدير
- 1992 مشددون إسلاميون يطلقون النار على الكاتب والمفكر الإنساني المصري البارز، فرج فودة، ويردونه قتيلاً في القاهرة
- إقامة منطقتين يحظر فيهما الطيران في شمال العراق وجنوبه لمنع هجمات القوات العراقية على السكان الأكراد والشيعية، القوات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق تتسبب بمصاعب جمّة للفئات الهشة من المواطنين وفي طليعتهم الأطفال.
- 1994 اغتيال الشبّ حُسني، مطرب «الراي» الشعبي الجزائري في فرنسا، والطاهر جعوط، الروائي والناشر الحائز على عدة جوائز أدبية، يردى قتيلاً خارج منزله في مدينة الجزائر.
- 1995 مقتل أكثر من سبعة آلاف مسلم ومسلمة في مذبحة سربرينتشا باليوستة والهرسك، بعدما أخفقت قوات الأمم المتحدة في حماية الجيوب المسلم من هجمات صرب اليوستة.
- 1996 حركة طالبان، المعوِّلة على طلاب المدارس الدينية في أرياف أفغانستان، تستولي على كابل، برنامجها لوضع حد للعنف، ينعكس سلباً على وضع النساء والأقليات في البلاد
- 1997 مقتل أكثر من 80 سائحاً أوروبياً بالقرب من مدينة الأقصر في مصر على أيدي متطرفين إسلاميين
- محمد هاشمي، وزير الثقافة السابق، يُنتخب رئيساً للجمهورية في إيران.
- مقاتلو طالبان يُجهزون على ما يتراوح بين ألفين وخمسة آلاف فرد من طائفة الهزارة الشيعية بعد استيلائهم على مزار الشريف
- «القاعدة» تُهاجم سفارات للولايات المتحدة في شرق إفريقيا
- عبد العزيز بوتفليقة، وزير الخارجية الجزائري الأسبق، يُنتخب رئيساً للجمهورية بناءً على برنامج للمصالحة الوطنية
- مظاهرات مؤيدة للديمقراطية في إيران تقمعها الشرطة بإيعاز من القوى المحافظة
- حملة من القصف الجوي شنتها حلف شمالي الأطلسي تُجبر الصرب على التخلي عن كوسوفو وتضع حداً للتطهير العرقي بحق المسلمين الألبان.
- روسا تقصف الشيشان تحت ذريعة محاربة «الإرهاب الإسلامي».
- 2000 (حزيران/يونيو) الروس يحتلون غورزني، عاصمة الشيشان
- في باكستان، الجنرال برويز مشرف يُطرح بحكومة نواز شريف المُنتخبة ديمقراطياً
- 2001 (أيلول/سبتمبر) حائطو طائرات انتحاريين مرتبطون بـ«القاعدة»، بهاجمون مركز التجارة العالمي في نيويورك ووزارة الدفاع (البيتاغون) في واشنطن، فيزهقون أرواح ثلاثة آلاف شخص تقريباً.
- الولايات المتحدة تقصف أفغانستان وتزيل نظام طالبان من السلطة.
- 2002 (تشرين الأول/أكتوبر) مجموعة إرهابية مرتبطة بـ«القاعدة» تقتل أكثر من 200 شخص، معظمهم من الأستراليين، في تفجير ملاء لهلية في بالي بأندونيسيا.
- 2003 (آذار/مارس) الولايات المتحدة وبريطانيا تُهاجمان العراق من غير موافقة الأمم المتحدة، متذرعتين بأن صدام حسين يخفي أسلحة دمار شامل. ولم يُعثر على أي أثر لتلك الأسلحة
- إرهابيون إسلاميون مرتبطون بـ«القاعدة»، يُقدمون على قتل مدنيين أبرياء في الدار البيضاء، والرياض، واستنبول، ومدن أخرى
- (كانون الأول/ديسمبر) القبض على صدام حسين بالقرب من مسقط رأسه: تكريت.
- هزيمة الإصلاحيين في الانتخابات البرلمانية الإيرانية بعدما رفض «مجمع تشخيص مصالحة النظام»، الذي يُسيطر عليه رجال الدين، طلبات ترشيح العديد من أنصار التيار الإصلاحي.





ماليز روثفن: من الكتّات البارزين عن الإسلام  
والعالم الإسلامي. من مؤلفاته: «الأصولية: البحث  
عن معنى» (2004): «الإسلام: مدخل وجيز جداً»  
(1999): «غضب الرب: الهجوم الإسلامي على  
أميركا» (2002): «مسألة شيطانية: سلمان رشدي  
وغضبة الإسلام» (1990): «الإسلام في العالم»  
(1984 ، 2000). كتب عدة سيناريوهات لهيئة  
الإذاعة البريطانية، وحاضر في الدراسات  
الإسلامية والتاريخ الثقافي والأديان المقارنة في  
جامعات بريطانية وأميركية، وهو اليوم كاتب  
متفرغ يقسم وقته ما بين لندن والنورماندي.

البروفسور عظيم نانجي: مدير معهد الدراسات  
الإسماعيلية في لندن. عمل سابقاً أستاذاً ورئيس  
دائرة الأديان بجامعة فلوريدا، وشغل مناصب عدة  
في مختلف الجامعات الأميركية والكندية. من بين  
الكتب المنشورة له: «تمثيل الدراسات الإسلامية في  
خرائط» (1997)، و«الروزنامة الإسلامية» (1996).

إشادات بكتب ماليز روثفن:

الإسلام: مدخل وجيز جداً

الغارديان

«ممتاز»

غضب الرب

«عمل يتسم بعمق الرؤية والاطلاع على خفايا  
الأمر»

كولن ثوبرون

«ممتاز... روثفن مراقب رائق ولماح»

وليم دالريمهل

الإسلام في العالم

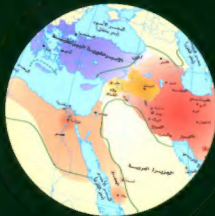
«استبصار غير عادي، وفكر يحفز على الاستزادة  
من معرفة الإسلام»

جون ل. اسهوزتو

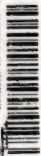
# من غزوات النبي محمد ﷺ إلى معارك المجاهدين نظرة بانورامية على 1500 سنة من تاريخ دين وشعبه

يجمع هذا الأطلس التاريخي الجديد، الصادر في أوانه تماماً، ما بين الرواية السردية لتاريخ الإسلام ومسار تطوره والعرض الشيق والحداب للخرائط ورسوم بيانية غنية بالمعلومات والمعطيات. إنه يقدم لنا لوحة أسرة لواقع من أعظم أديان العالم - دين تعتقه جموع البشرية - في وقت لم يسبق قط أن بلغ الاهتمام بالإسلام هذه الدرجة من الشدة وحس الاستطلاع. أعد الأطلس كاتبان يعدان من المراجع الثقات حول الإسلام. وقد جاء تصنيفه على نحو يجعل منه مدخلاً ومرجعاً للقارئ العام وللطالب على حد سواء.

- يعطي الأطلس الفترة الزمنية الممتدة من أواخر العصر القديم ما قبل الإسلام إلى يومنا الحاضر.
- يشتمل على تعظية مستقلة لكل منطقة على حدة الشرق الأوسط، وإفريقيا، وآسيا الوسطى، والهند، وجنوب شرقي آسيا، وأوروبا، وأميركا الشمالية.
- يضم الأطلس حوالي 100 خريطة ملونة تبين لنا الطبيعة المتحوّلة للحدود والتركّزات السكانية وطرق التجارة الرئيسية، وتتابع صعود وسقوط السلالات الإسلامية الحاكمة والمذاهب الدينية، كما تستجلي كيفية تدرّج الثروات المعدنية والموارد المائية، والأنماط الزراعية، والمواقع الأثرية، والعديد من العناوين الأخرى.
- يحتوي على عدد كبير من الصور الفوتوغرافية والرسوم البيانية الملونة والعادية.



Bibliotheca Alexandrina



0430936

ISBN 9953-37-377-9



9 789953 373775